

عَلَّامُ الْقُرْبَى مَا أَعْطَاهُ لِلْحَضَارَةِ

عُلماء العرب وما أعطوه للمحاضرة

تأليف

فَدْرِي حَافِظ طوقان

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

نائب رئيس الاتحاد العلمي العربي بالقاهرة

رئيس الجمعية الأردنية للعلوم

عضو المجمع العلمي لدول البحر الأبيض المتوسط بإيطاليا

عضو عدة جمعيات علمية في أمريكا وأوروبا

مَنشورات المَآخِزِيَّة - الرِّيَاض

وَدَار الكَاتِب المَكْرِي - يَروَت

مقدمة

قام العرب بدورهم في خدمة الحضارة ، والمساهمة في تقدم العلوم . هذا ما نحاول إثباته وتركيزه في هذا الكتاب .

وهذا هو موضوع الكتاب .

وهذا ما أرادته وزارة التربية والتعليم في مصر ، حين عهدت إلى وضع كتاب يبحث في (العلوم عند العرب) .

والواقع أن هناك كثيرين يجهلون الخدمات التي قدمها العرب للحضارة والعلوم ، بل إن بين هؤلاء من يعتقد أن العقل العربي لم يستطع في جميع الأدوار التي مرت عليه أن يقدم لل المدنية خدمات علمية جليلة كالتى قدمها الغرب ، وأنه لم يكن بين العرب من استطاع أن يصل علميا درجة غاليليو ، وكبلر ، ونيوتن ، وفرايداي ، وباكن ، وغيرهم ...

قد يكون هناك أسباب لهذا الجهل ... وقد يكون تحامل بعض علماء الإفرنج على التراث العربي وإهمال العرب تراثهم وتاريخهم من عوامل وجود ذلك الاعتقاد .

وإن نظرة بسيطة إلى ما ألفه الغربيون في التراث اليوناني واستعراضا لأرائهم في نتائج القريحة العربية ، يكشفان التحامل والإجحاف ، وإن بعض علماء الغرب عمدوا إلى الانتقاص من قدر الحضارة العربية ؛ وقد قصدوا تشويه صفحات لامعات في تاريخ العرب لما آرب أصبحت غير خافية على أحد .

وعلى الرغم من هذا كله ، ومن حسن الحظ ، وجد بين العلماء من قام بخدمة الحقيقة لأنها حقيقة ، ومن قام يدافع عن الحق لأنه حق ، فقد ظهر في الغرب نفر من العلماء ينصف العرب لأن التاريخ يقضى بذلك ؛ وهو — أى التاريخ — يبحث دائما عن الحقيقة ، فهي رائده ، وهي مبتغاه .

قال سارطون في شأن الذين ينتقصون من قدر العرب العلى :

«... إن بعض المؤرخين يجربون أن يستخفوا بتقدمة الشرق للعمران ، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً ما... إن هذا رأى خطأ ، وإنه لعمل عظيم جداً أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، ولولا ذلك لتأخر سير المدينة بضعة قرون... » ويعتقد الدكتور سارطون أن العرب كانوا أعظم معلمين في العالم ، وأنهم زادوا على العلوم التي أخذوها ، وأنهم لم يكتفوا بذلك ، بل أوصلوها درجة جديدة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء .

وقال نيكلسون : «... وما المكتشفات اليوم لتحسب شيئاً مذكوراً إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء في القرون الوسطى المظلمة ولا سيما في أوروبا... »

وقال دى فو : «... إن الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به . أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وإثرائه حتى سلوه إلى العصور الحديثة... » . ويذهب (سيدو) إلى أن العرب هم في واقع الأمر أساتذة أوروبا في جميع فروع المعرفة .

وقد يقول قائل . إن المعارف القديمة لا تهمننا ، وليس فيها ما يلائم العصر الحاضر في شتى ميادين المعرفة ؛ فالقدماء العرب ومن قبلهم (اليونان) لم يقدموا صورة عن الكون ، ولم تكن آراؤهم في بعض نواحي المعرفة ناضجة . وفي كل يوم نشهد تحولا وانقلابا في الفكر والعلم إذن ما هي ميزة تراث الأقدمين حتى توجه إليه العناية والاهتمام ؟

وفي هذا مغالطة ليس بعدها مغالطة ؛ فالتراث الذى خلفه الأقدمون ، والانقلابات التي تتابعت : هي التي أوصلت الإنسان إلى ما وصل إليه . وجهود فرد أو جماعة في ميادين المعرفة تمهد السبيل لظهور جهود جديدة من أفراد أو جماعات أخرى . ولولا ذلك لما تقدم الإنسان ولما تطورت المدنية . ذلك لأن الفكر البشرى يجب أن ينظر إليه كسكائن ينمو ويتطور ، فأجزاء

منه تقوم بأدوار معينة في أوقات خاصة تمهد لأدوار أخرى معينة : فالليونان قاموا بدورهم في الفلسفة والعلوم مثلاً ، فكان هذا الدور ممهداً للدور الذي قام به العرب ، وهو الدور الذي مهد الأذهان والعقول للأدوار التي قام بها الغربيون فيما بعد . وما كان لأحد منهم أن يسبق الآخر ، بل إن الفرد أو الجماعة كانت تأخذ عن غيرها ممن تقدمها وتزيد عليه . فوجود ابن الهيثم وجابر وأمثالهما كان لازماً وممهداً لظهور غاليليو ونيوتن : ولو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ولو لم يظهر جابر لبدأ غاليليو من حيث بدأ جابر .

وعلى هذا يمكن القول : لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر من النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن لليلاد .

إن الحضارة العربية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ ، فلم يكن بد من قيامها حين قامت . وقد قام أصحابها العرب بدورهم في تقدم الفكر وتطوره بأقصى الحماسة والفهم ، وهم لم يكونوا مجرد ناقلين كما قال بعض المؤرخين ، بل إن في نقالهم روحاً وحياءً ، وكذلك لم يكن ميكانيكياً ، فهو أبعد ما يكون عن الجود . ويرى كثير من الباحثين اللامعين أن قيام العرب بشرح الفلاسفة الكلاسيكية أمر جدير بالظن والاعتبار ، وهو أمر لا بد منه قبل أن تنهأ العقول للتفكير العلمي الحديث .

وفوق ذلك لم يقف العرب عند حد الشرح ، بل خرجوا إلى نسق جديد في الفلسفة في بعض بحوثها : « ففلاسفة العرب قد نحوا في البحث عن الوجود منحى مستقلاً غير تابع لتعلقهم بالقرآن ... » كما يقول (وافي) . ويميل المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرزاق إلى هذا الرأي ويرى في القول أن الفلسفة العربية صورة مشوهة من مذهب أرسطو ومفسريه ، ظالماً وإجحافاً .

هذا الرأي قد تلاشى عند الكثيرين من المثقات العالميين ، وقد ثبت لديهم أن للفلسفة كياناتاً ذات ميزات تميزها عن مذهب أرسطو ومفسريه ... ففيها

عناصر مستمدة من مذاهب الفلسفة اليونانية غير مذهب أرسطو ، وفيها عناصر هندية وفارسية ، ثم إن فيها ثمرات عبقرية أهلها ، ظهرت في تأليف نسق فلسفي قائم على أساس من مذهب أرسطو مع تلافى ما في هذا المذهب من النقص باختيار آراء من مذاهب أخرى ، وبالتخريج والابتكار

وفي العلوم خطوا خطوات فاصلة — كما سيتجلى في هذا الكتاب — فبعد أن اطلعوا على ما تركه القدماء ، نقحوه وشرحوه وأضافوا إليه إضافات مهمة وأساسية تدل على الفهم الصحيح وقوة الابتكار .

برع العرب في الرياضيات وأجادوا فيها وأضافوا إليها إضافات أثمرت إعجاب علماء الغرب ودهشتهم ، وقد اعترفوا بفضل العرب وأثرهم الكبير في خدمة العلم والعمران .

لقد اطلع العرب على حساب الهنود ، وأخذوا عنه نظام الترقيم وفضلوه على النظام الشائع بينهم ؛ وهو نظام الترقيم على حساب الجمل . وكان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام فذبوا بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين ، عرفت إحداها بالأرقام الهندية : وهي التي تستعملها هذه البلاد وأكثر الأقطار الإسلامية والعربية ، وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية ، وقد انتشر استعمالها في المغرب والأندلس . وعن طريق الأندلس دخلت هذه الأرقام إلى أوروبا وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية .

وليس المهم هنا تهذيب العرب للأرقام الهندية وإدخالها أوروبا ، بل المهم إيجاد طريقة جديدة لها ؛ طريقة الإحصاء العشري واستعمال الصفر لنفس الغاية التي نستعملها لها الآن . ومن المرجح أنهم وضعوا علامة الكسر العشري ، والذي لا شك فيه أنهم عرفوا شيئاً عنه .

واشتغل العرب بالجبر وأتوا فيه بالعجب العجيب ، حتى إن كاجورى قال : « . . . إن العقل ليدعش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر . . . » ، وهم أول من أطلق لفظة «جبر» على العلم المعروف بهذا الاسم ، وعنهم أخذ الإفرنج هذه اللفظة ، وكذلك هم أول من ألف فيه بصورة عليية منظمة ، وأول من ألف

فيه — كما سيتجلى في هذا الكتاب — محمد بن موسى الخوارزمي في زمن المأمون ، وكان كتابه في الجبر منهلاً استقى منه علماء العرب والغرب على السواء ، واعتمدوا عليه في بحوثهم وأخذوا عنه كثيراً من النظريات . وقد أحدث هذا الكتاب أعظم الأثر في تقدم علمي الجبر والحساب ، بحيث يصح القول : إن الخوارزمي وضع علم الجبر وعلم الحساب للناس أجمعين .

لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن : فإليهم يرجع الفضل في وضعه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك وفي الإضافات المهمة التي جعلت الكثيرين يعتبرونه علماً عربياً كما اعتبروا الهندسة علماً يونانياً . ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر في الاختراع والاستكشاف وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والصناعية .

وفي الفلك نهض العرب نهضتهم المعروفة وأحدثوا فيه انقلاباً ، وذلك للأمور التالية :

(أولاً) لأن العرب نقلوا الكتب الفلكية القديمة عند اليونان ، والفرس ، والهنود ، والكلدان ، والسريان ، وصححوا بعض أغلاطها وتوسعوا فيها . وهذا عمل جليل — لا سيما — إذا عرفنا أن أصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها في العربية . وهذا طبعاً ما جعل الأوروبيين يأخذون هذا العلم عن العرب ؛ فكانوا (أى العرب) بذلك أساتذة العالم فيه .

(ثانياً) في إضافاتهم المهمة واستكشافاتهم الجليلة التي تقدمت بعلم الفلك شوطاً بعيداً .

(ثالثاً) في جعلهم علم الفلك استقرائياً ، وفي عدم وقوفهم فيه عند حد النظريات كما فعل اليونان .

(رابعاً) في تطهير علم الفلك من أدران التنجيم .
وفي الجغرافيا ساعد العرب على تقدمها وصححوا كثيراً من أغلاط بطليموس وكشفوا مناطق لم تكن معروفة في بعض القارات . ولقد أثبت العرب من اتصالهم بالعالم الخارجي أنهم مرنون قابلون لمسيرة

الحضارات المختلفة وأقلمتها وأنهم أذكاء ذوو حيوية وخيال فسيح
وقد وصلوا إلى أقصى الأرض ووضعوا المؤلفات النفيسة وزانوها بالخرائط...
وحسبهم بخرأ أنهم ربطوا الجغرافيا بالفلك ، فسبقوا في هذا العلماء المحدثين .
والعرب أول من وضع أصول الرسم على سطح الكرة ، وأول من أوجد
بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار ؛ وهو من أعمال العرب المجيدة
التي تدل على ما كان للعرب من الباع الطويل في الأرصاد والرياضيات
وأعمال المساحة .

يقول (وايدمان) : « إن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان
وفهموها جيداً ، وطبقوها على حالات كثيرة ومختلفة ، ثم أنشأوا من ذلك
نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة ، فهم بذلك قد أسدوا إلى العلم خدمات
لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن ، وفرادى ، ورتنجن » .
ومن يطلع على بحوث العرب في الطبيعة ، ولا سيما البصريات ، وإضافاتهم
يتبين له صحة ما ذهب إليه (وايدمان) .

لقد ترجم العرب مؤلفات اليونان في بعض فروع الطبيعة ولم يقفوا عند
حد النقل ، بل توسعوا فيها وأضافوا إليها إضافات تعتبر أساساً لبعض المباحث
الطبيعية . والعرب هم الذين وضعوا أساس البحث العلمي كما سيتجلى في « مآثر
ابن الهيثم » ، وقد قويت عندهم الملاحظة وحس الاستطلاع ورغبوا في التجربة
والاختبار ، فأنشأوا العمل ليحققوا بعض النظريات وليستوثقوا من صحتها .
فقد دعا جابر إلى الاهتمام بالتجربة وحث على إجرائها ، وقال : « إن واجب
المشتغل في الطبيعيات والكيمياء هو العمل وإجراء التجارب ، وإن المعرفة
لا تحصل إلا بهما » .

وعرف العرب الطريقة العلمية الحديثة ، وقد ساروا عليها ومهدوا
لأصولها وكشف عناصرها ، فسبقوا (باكن) إلى إنشائها ، بل إنهم زادوا على
طريقة (باكن) التي لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية .
لقد أدركوا الطريقة المثلى ، وقالوا بالأخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل

وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود في المتوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة ، وسنين هذا مع شيء من التفصيل عند البحث في مآثر ابن الهيثم .

لقد وصل العرب في علم البصريات إلى أعلى الدرجات ، وثبت أن (كبلر) أخذ معلوماته في علم الضوء عن « ابن الهيثم » ، وسحرت بحوث بعض علماء العرب في الضوء (ماكس مايرهوف) وأثارت إعجابه إلى درجة جعلته يقول : « ... إن عظمة الابتكار العربي تتجلى لنا في البصريات ... »

ويمكن القول : إن ابن الهيثم قد قلب الأوضاع القديمة في المناظر وأنشأ علما جديداً ؛ هو علم الضوء الحديث بالمعنى والحدود التي زيدها الآن . وأثر « ابن الهيثم » في هذا لا يقل عن أثر (نيوتن) في الميكانيكا في القرن السابع عشر لليلاد ، أي إن « ابن الهيثم » هو رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادى عشر لليلاد .

أما في الكيمياء ؛ فللعرب ابتكارات وإضافات جعلت (برتيلو) يقول عن « جابر بن حيان » : « لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق » . وقد كان لبحوثه وبحوث غيره من علماء العرب في الكيمياء أثر كبير في تكوين مدرسة كيموية ذات أثر فعال في الغرب ، كما كان لهم النصيب الأوفر في الأمور الكيموية النظرية ، والعمليات ، والتطبيقات ، والتحليل . وكانوا في الكثير منه بادئين ومبتكرين . ولقد عرفوا عمليات التقطير ، والترشيح ، والتصفيد ، والتذويب ، والتبلور ، والتكليس . وكشفوا بعض الحوامض والمركبات ؛ وهم أول من استحضروا حامض الكبريتيك ، وحامض النتريك ، وماء الذهب ، والصودا الكاوية ، وكربونات البوتاسيوم ، وكربونات الصوديوم ، وحصلوا على الزرنيخ ، والألمد من كبريتيدهما ؛ وغيرها مما تقوم عليه الصناعة الحديثة ، وتستعمل في صنع الصابون والورق والحبر والمفرقات والأصبغة والسجاد الصناعي .

وفي الطب ثبت أن للعرب فضلا كبيرا في إنقاذه من الضياع ، وفي الإضافات المهمة إليه ونقل ذلك إلى أوروبا . ويرى (كمستون) أنه لو لم يكن

للرب غير هذا الفضل في الانقاذ ، لكفاهم خدمة وغرا . لقد رفع الرب شأن الطب ، ولهم الفضل في جعل الجراحة قسما منفصلا عنه ، وفي إنشاء المستشفيات والتفنن فيها ، وفي الترخيص الشرعى لممارسة الطب والصيدلة .

وكذلك في الصيدلة وضعوا أسسها ، وهم أول من أنشأ مدارسها ، واستنبطوا أنواعا من العقاقير وامتازوا في معرفة خصائصها وكيفية استخدامها لمداواة المرضى ، كما أعطوا من النبات مواد كثيرة للطب والصيدلة .

وحارب علماء العرب التنجيم وقالوا بإبطال الكيمياء القديمة ، وطالبوا بالرجوع إلى العقل والاعتماد على الأدلة العقلية . والعرب فوق ذلك أول من لاحظ أن حوادث التاريخ مقيدة بقوانين طبيعية ثابتة ، وأن باطن التاريخ — في واقع الأمر — نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها .

ومن بين علماء العرب من جمع الشروط التي تجعله مؤسسا لعلم الاجتماع . وقد وضعوا في ذلك كتباً نفيسة ذات أثر في تطور الفكر . لقد قال ابن خلدون بوجوب اتخاذ الاجتماع الإنساني موضوعا لعلم مستقل ، وذهب إلى أن الأحوال الاجتماعية تتأثر من غلل وأسباب ، وقد أدرك — قبل غيره من علماء أوروبا بعدة قرون — أن هذه العلل والأسباب تعود في الدرجة الأولى إلى طبيعة العمران أو طبيعة الاجتماع . وقد درسها دراسة مستفيضة خرج منها بكشف بعض القوانين المتعلقة بها .

وفي الصفحات التالية فصول موجزة لما أثر العرب في الطب والصيدلة والكيمياء والنبات والطبيعة والرياضيات والفلك والجغرافيا . ولم نقف عند هذه الفصول ، بل أتبعناها عرضا سريعا لنتاج بعض المقدمين في تاريخ تقدم الفكر من علماء العرب الذين برزوا في ميادين العلوم والفلسفة .

ولقد سبق أن قمنا بدراسات لما أثر العرب في الرياضيات والفلك وظهرت هذه مقفلة في كتابنا تراث العرب العلمى . ويتجلى من موضوعات هذا الكتاب (علماء العرب) أنه كان للعرب في سير الحضارة وامتدادها ما يدل على

أنهم قد قاموا بدورهم في التطور الفكري العام بحماسة متناهية وفهم قوى . وبذلك هياؤا العقول للتفكير العلمي الحديث ؛ ولولا ذلك لتأخر سير النهضة الأوروبية بضعة قرون .

لقد كان هذا عندما كان العرب أحراراً ، ولكن حينما ابتلوا بالاستعمار التركي والغربي ، وما صحبهما من ضغط على المواهب وتقييد الحريات ، وقتل للقابليات وحرمان من فرص الحياة على أنواعها . أقول حينما ابتلوا بكل ذلك ، ضعفت عزائمهم ، وهزلت هممهم ، وأحاطهم الخمول واليأس ، حتى لقد تسرب إلى كثيرين أن العرب ليسوا أهلاً لعظائم المبتدعات ؛ ولا أكفاء لحل الرسائل ، ولا صالحين لخدمة المدنية .

أنا لا أقول ولا أدعى أن العرب خير الناس ولا أفضل الناس ، ولا أزعـم أن قابلية في جنس تكون أعظم وأعلى منها في جنس آخر ، لكنني أومن بأن سبق أمة لأمة ، حتى وسبق فرد لفرد في مضمار التقدم ، إنما يرجع في الأساس إلى الفرص التي تبعث الهمم وتحفز إلى الخلق والإبداع في الأمم أو الأفراد . وإنني أذهب إلى أبعد من هذا فأقول : إن الأمم التي تسمى متأخرة لو يرفع عنها ضغط الاستعمار والخرافات ؛ لضربت بسهم في خدمة الإنسانية والحضارة . وفي هذا القرن شهد العالم استفاقة العرب من غفلتهم ونهوضهم من كبوتهم ؛ فإذا الدعوة إلى التحرر والانطلاق تأخذ طريقها على الرغم من العراقيل والعقبات وتتجه في الاتجاه السليم ؛ وهذه الدعوة تتجلى قوية في العرب المثقفين ، وعنيفة في العرب الذين خرجوا من طوق الاستعمار في بلادهم ، ثم انثنوا يساعدون أقوامهم للنضال ، واستعادة روح الكرامة الشخصية ، والقومية التي كاد الاستعمار أن يأتي على ما بقي منها .

ولسنا بحاجة إلى القول : إن التحرر والانطلاق من القيود لا تكون مجدية مثمرة إذا لم تبني على أساس ، وإذا لم تسر في طريق يضمنان لها الاستمرار والاندفاع والنجاح . وليس أضمن لهذا كله من استمداد الماضي واستلهامه عزماً وقوة ، لا مباهاة ونفراً ؛ ومن معرفة الحاضر وإشباعه دوساً وفحفاً ، ومن النظر إلى المستقبل بعين الرجاء والأمل .

أما الماضي ففيه كل ما يعتز به ويفخر ، وكل ما يوحى الثقة بالنفس والاعتماد عليها . وأما الحاضر فهو الصرح الذي نقيم عليه المستقبل ؛ ولهذا علينا أن نتبصر فيه ، وأن نتفهم مشا كلنا في أنفسنا ووجودنا ، وأن يكون لنا من وعينا ما يحركنا ويدفعنا إلى الأمام .

والذي أرجوه أن يكون في كتابنا هذا عبرة لمن زالت ثقتهم بأنفسهم ، ولمن يتسوا من الوصول إلى الحياة الكريمة وفي المجموعة الإنسانية ، كما أرجو مخلصا أن يجدوا في هذه الصفحات حافزا وملهما ؛ حافزا يحفزهم إلى النهوض والوثوب للتغلب على العقبات والصعاب ، وملهما يستلهمون منه الوحي لإعلاء شأن الوطن والمساهمة في خدمة الإنسانية ورفع مستواها .

قمرى حافظ طوقاد

نابلس - الأردن

الباب الأول

يبحث في مآثر العرب في العلوم

الفصل الأول : الطب والصيدلة عند العرب .

الفصل الثاني : الكيمياء والنبات عند العرب .

الفصل الثالث : علم الطبيعة عند العرب .

الفصل الرابع : الرياضيات والفلك عند العرب .

الفصل الخامس : الجغرافيا عند العرب .

الفصل السادس : النزعة العلمية عند العرب .

الفصل الأول

الطب والصيدلة عند العرب

١

يقول بعض الكتاب : إن العرب لم يكونوا غير نقلة ماهرين ولم يعرفوا من العلوم إلا جانبها النظرى .

وهذا القول يردده بعض المستشرقين ويقلدهم فى ذلك بعض المتعلمين منا . وفى هذا خطأ وتحامل ؛ فلقد ثبت لدى الباحثين المنقبين من علماء الغرب ، أن العرب كانوا مبدعين مخترعين أكثر منهم نقلة فى كثير من العلوم . وقد قال الدكتور سارطون : « . . . » إن بعض الغربيين الذين يجربون أن يستخفوا بما أسداه الشرق إلى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً . . . هذا رأى خطأ . . . لو لم تنقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية ، ولولا إضافات العرب الهامة ؛ لتوقف سير المدنية بضعة قرون . . . » وقال كمستون : « . . . » إن لم يكن للعرب من فضل غير إنقاذ الطب والعلوم القديمة من الضياع ؛ لكفاهم غمراً . . . »

والواقع أنهم لم يقفوا عند الإنقاذ وحفظ العلوم القديمة من الضياع ، بل نقحوها وأضافوا إليها إضافات هامة وأساسية وأعطوها إلى أوروبا منسقة واضحة .

واعترف (دى فو) بأن الميراث الذى تركه اليونان فى الطب وغيره لم يحسن الرومان القيام به ؛ أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلموه إلى العصور الحديثة .

وجاء فى كتاب تطور الطب للسير وإيم أوسلر : « . . . » بأن العرب أشعلوا

سراجهم من القناديل اليونانية ، وبلغت مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن إلى الحادى عشر لليلاد من المكانة والأهمية ما لا نكاد نجد له مثيلا فى التاريخ . . .

واعترف بعض المحدثين من العلماء بفضل العرب على الطب ذاكرين خدماتهم وإضافاتهم ومبتكراتهم وإبداعاتهم ، نذكر من هؤلاء : فرديناند ، ووستنفلد ، والبارون كارا دى فو ، وكارل بروكلمان ، وماكس مايرهوف ، ودونالد كامبل ، وغاربسون ، وادوارد براون . . .

لقد عكف العرب على دراسة ما أخرج به اليونان والسريان والكلدان فى الطب وأصلحوا بعضه ، ثم زادوا عليه زيادات هامة يقول عنها كتاب تراث الإسلام : « إن العرب زادوا على الطب اليونانى كثيراً ، وزياداتهم فيه مبنية على التجربة ؛ أى إنها كانت عملية . . . وهذا يرد رأى القائلين بأن علوم العرب كانت نظرية تقوم على الأسلوب الغيبي .

وقد ظهر لهم فيه مؤلفات نفيسة ؛ كالفانون لابن سينا ، وكتاب الحاوى للرازى ، وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى . ولقد استفاد الإفرنج من هذا الكتاب فى نهضتهم الحديثة فائدة كبرى ، وبقيت بعض المؤلفات الطبية العربية تدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر لليلاد .

وما يدل على تقدير الغربيين للطب العربى ورجاله ؛ أن جامعة (برنستون الأمريكية) قدرت خدمات الحضارة الإسلامية وأفضالها على الإنسانية والثقافة ، فراحت تخصص أنخم ناحية فى أجمل أبنيتها لمآثر علم من أعلام الحضارة الخالدين ؛ (الرازى) . كما راحت تنشئ دارا لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات وإخراجها ونقلها إلى الإنجليزية حتى يتمكن العالم من الوقوف على أثر التراث الإسلامى فى تقدم الطب وازدهار العمران .

نبغ في الطب كثيرون ، وتصفح بسيط لكتب طبقات الأطباء ، وتراجم الحكماء ، والفهرست ، وكشف الظنون ، وغيرها . تثبت أن الذين زاولوا صناعة الطب والصيدلة كثيرون جداً . وقد كان لهم نظام خاص يسيرون عليه ، ورئيس يتخضعون ويحيز المقتدر منهم . وبلغ عدد الأطباء في زمن المقتدر بالله في بغداد ٨٠٠ امرأة رجل ونيفا وستين رجلا سوى من استغنى عن محنته باشتهاره في التقدم في صناعته ، وسوى من كان في خدمة السلطان . . .

ولم يقتصر النبوغ في الطب على الرجال فقط ، فقد نبغ من النساء عدد غير قليل ؛ كأخت الحفيد بن زهر الأندلسي ، وابتتها ، وكانت عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة مما يتعلق بمداواة النساء .

والفحص الطبي عند العرب لا يختلف كثيراً عما هو عليه الآن ؛ فقد كانوا يفحصون البول ويحسون النبض ، وانتقدوا كثيراً من آراء أطباء اليونان في هذا الشأن وأصلحوها وعلقوا عليها . والثابت أنه كان لهم حظ وافر من صدق النظر في التشخيص والعلاج . . . ولم يشغلوا أنفسهم — كما اتهمهم بعض الكتاب — بالآراء الفلسفية ونظريات الكهانة والتنجيم . . .

فلقد كانوا يفحصون العليل بكل دقة وبكل الوسائط المعروفة لديهم . . . فيسأل المريض عما يشكو ، وعن طريق معيشته ، وعن عاداته ، وعن الأمراض التي أصيب بها سابقاً ، وعن حالة عائلته الصحية ، ومناخ بلاده ، وغير ذلك من السؤالات المفيدة بالتشخيص والتي لا يسأل خيراً منها أطباء هذا الزمن . . .

وبعد ذلك كانوا يلاحظون حالة النبض والبول بعناية فائقة ، ويعلق الدكتور « أمين خير الله » في كتابه القيم ، الطب العربي : . . . ولا يسعنا إلا أن نعجب من النتائج الصائبة ومن المعلومات القيمة التي كانوا يستخرجونها من فحص النبض والبول . . .

ولاحظ أطباء العرب لون الجلد وملتحمة العينين وحالة الجلد عند الملمس ،
أسخنا كان أم باردا ، ناعماً أم خشناً ... ثم حالة اضطجاع المريض في فراشه
وحالة التنفس وعمقه ... كما كانوا يتتبعون سير المرض اليومى ويدونون ذلك ..
وثبت من مؤلفاتهم أن أطباء العرب لم يكونوا حاذقين في التشخيص
فحسب ، بل أتقنوا فن التفريق بين الأمراض ، وساهموا في تقدم الطب
الداخلي ، وأضافوا إليه إضافات هامة حينما وضعوا لأول مرة وصفاً دقيقاً
لبعض الأمراض المعدية . فابن سينا كان يفرق بين التهاب الرئوى
والبورادى ، وبين التهاب السحايا الحاد والثانوى ، وبين المنص المعوى
والمنص الكلوى .

والرازى أول من وصف بدقة ووضوح مرضى الجدرى والحصبة ،
وابن زهر كان أول من وصف خراج الخيزوم والتهاب التامور الناشف
والانسكابى .

وجاء فى كتب الرازى وابن زهر تفصيلات لدرس السريرات ... : فهم
بعد أن توسعوا فى شرح نظريات المرض ووصفوا أعراضه السريرية بعد
الملاحظة الدقيقة ... ، حتى القسم الأكبر من كتاب الحاوى للرازى
يتألف من سجل دقيق للملاحظات على مرضاه وعلى سير المرض ، كما أن وصف
ابن زهر للحوادث السريرية كان دقيقاً إلى أبعد الحدود .

والعرب أول من استخدم المرقد (المخدر) فى الطب والعمليات الجراحية
والسكاويات فى الجراحة ، وأول من وجه الفكر إلى شكل الأظافر عند
المسلولين ، ووصفوا علاج اليرقان والهواء الأصفر ، واستعملوا الأفيون
بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ، ووصفوا صب الماء البارد لمعالجة النزيف ،
وجالخوا خلج الكتف بالطريقة المعروفة فى الجراحة برد المقاومة الفجائى ،
وكذلك هم أول من كتب فى الجذام وفى إصلاح الخلل الضمى وأقواس
الأسنان ، ونسبوا البواسير إلى قبض المعدة وأشاروا بالمأكولات النباتية
علاجاً لها .

وأثبت الوزير لسان الدين الخطيب ، أن مرض الطاعون ينتشر بوساطة العدوى ذلك في عصر لم تكن فيه العدوى ولا الجراثيم معروفة لدى أحد . . .

وفوق ذلك فالعرب أول من كشف مرض الانكلستوما . جاء في مقال نقيس في مجلة الرسالة للرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الخالق ، تعليقا على مقال لنا ما يلي : . . . وأود أن ألفت النظر إلى أن ابن سينا أول من كشف الطفيلية الموجودة في الإنسان المسماة بالانكلستوما ، وكذلك المرض الناشئ عنها المسمى بالرهقان أو الانكلستوما . وقد كان هذا الاكتشاف في كتابه القانون في الطب في الفصل الخاص بالديدان المعوية .

وهذه العدوى تصيب الآن نصف سكان المعمورة تقريبا . وقد بلغ ما كتب عن هذا المرض من المقالات والكتب إلى سنة ١٩٢٢ (٥٠٠٠٠) مرجع ، عنيت بجمعها مؤسسة (روكفلر) بأميركا . وقد سمي ابن سينا هذه الطفيلية — الدودة المستديرة — ؛ وقد كان لي الشرف في سنة ١٩٢١ م أن قمت بمحاضرة ما جاء في كتاب القانون في الطب . وأمكنني أن أقوم بتشخيصها بدقة ، وتبين من هذا أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالانكلستوما . وقد أعاد (دويني) اكتشافها بإيطاليا سنة ١٨٣٨ م ، أي بعد كشف ابن سينا لها يتسعائة سنة تقريباً . . . وقد أخذ جميع المؤلفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة ، وكذلك مؤسسة (روكفلر) . . . ولذلك كتبت هذا ليطلع عليه الناس ويضيفوا إلى اكتشافات ابن سينا العديدة هذا الاكتشاف العظيم لمرض هو أكثر الأمراض انتشاراً في العالم الآن . . .

وجاء في كتاب القانون لابن سينا ما يدل على أن العرب عرفوا السل الرئوي ، وقد أشاروا إليه بوضوح ، وقالوا بانتقال الأمراض بالماء والتراب . وفي كتاب القانون المذكور أول وصف لداء الفيلاريا (مرض الفيل) وانتشاره في الجسم ، وأول وصف للجمرة الخبيثة التي كانوا يطلقون عليها النار الفارسية .

وكذلك قال الرازي بالعدوى الوراثية ، وكان الطبري أول من كشف
الحشرة التي تسبب داء الجرب ، وقد وصفها في كتابه « المعالجة الابقراطية » .
ويتبين من مؤلفات الطبيب ابن التيمى أنه « . . عمل عدة معاجين و الخالج
طبية ودخنا دافعا للوباء . . » ويرى بعض الأطباء أن هذا الدخن الدافع للوباء
أوحى إلى الأطباء الذين أتوا بعده فكرة استعمال التبخير لقتل الجراثيم . .
ويقول الدكتور أمين خير الله : « . . . » . وبينما كان العرب يحملون وجود
الجراثيم ، فقد كانت طريقة إثباتهم لوجود العدوى منطقية . فابن الخطيب
الطبيب والفيلسوف الأندلسي المشهور ، جزم بوجود العدوى ، مع أن هذا
الجزم كان يومئذ مخالفا لكل الشرائع الدينية . . . فقد لاحظ مرارا أن من
خالط أحد المرضى المصاب بمرض سار ، أو لبس من ثيابه ابتلى بالمرض .
ومن لم يخالط نجما من العدوى . . . »

وعالج العرب الشلل بالأدوية المبردة خلافا لليونان الذين كانوا يستعملون
الطرق الحرة في علاجه .

وعلى ذكر الشلل لابد من الإشارة إلى أن ابن سينا وصف الشلل النصفى
وفرق بين شلل الوجه الناتج عن سبب مركزي في الدماغ والناتج عن سبب
محلى .

وكان من أطباء العرب من يرى الوهم والأحداث النفسية من العلل التي
تؤثر في البدن ؛ ومن الأمور التي يتحتم على الطبيب أن يحسب حسابها . وعلى
هذا ؛ فقد سار الكثير من أطباء العرب في معالجة مرضاهم على أساس رفع الوهم
المسيطر عليهم ، وتصغير شأن المرض ، وعالجوا الأمراض العقلية بطرق
إنسانية مبتكرة . وكانوا يخصصون في كل مستشفى كبير ، جناحا للأمراض
العصبية والعقلية . ووضع بعض أطباؤهم الرسائل والمؤلفات ؛ فكتب ابن عمران
كتابا عن (المالنخوليا) ، وكتب ابن الهيثم عن (تأثير الموسيقى في الإنسان
والحيوان) . وكثيرا ما عالجوا هذه الأمراض العصبية والعقلية بطرق فيها
حذق ومهارة ، وتدل على علم بالنفس ، وإدراك الأثر والوهم في المرضى .

ولم يهمل العرب طب العيون ، وقد أجادوا في هذا الميدان نظراً لانتشار أمراض العيون في البلاد الحارة : ك مصر ، وسوريا ، والعراق . وقد بقيت تعاليمهم في هذه الأمراض سائدة حتى القرن السابع عشر للميلاد .

لقد شرح العرب عيون الحيوانات ، واكتسبوا من ذلك خبرة واسعة ومعلومات قيمة ، فعرفوا المسبب لحركة المقلة وحركة الحدقة . . . وأن حركة المقلة مسببة من انقباض عضلات العين ، كما أن حركة الحدقة مسببة عن انقباض وانبساط القرنية ووصف ابن سينا ، عضلات العين ووظائفها ، وكتب ابن ماسويه ، عن أمراض العين ، كما وضع حنين بن إسحق ، كتاباً سماه (العشر مقالات في العين) وقد ترجمه مايرهوف إلى الانكليزية ، وكذلك وضع علي بن عيسى ، رسالة في تشرح العين وأمراضها الظاهرة وأمراضها الباطنة . وقد ترجمت هذه إلى اللاتينية ، وكان أثرها في أوروبا بالغاً أثناء القرون الوسطى .

و ابن الهيثم ، كتب في وصف العين ، وكان وصفه دقيقاً إلى حد بعيد ، وبحث في قضايا البصريات وفي طبيعة النظر . وقال : « إن النور يدخل العين لا يخرج منها ، وأن شبكية العين هي مركز المرئيات ، وأن هذه المرئيات تنتقل إلى الدماغ بواسطة عصب البصر ، وأن وحدة النظر بين الباصرتين عائد إلى تماثل الصور على الشبكتين . . . » .

وقد أتينا على هذا عند البحث في تراث ابن الهيثم العلمي . ولعل كتاب صلاح بن يوسف الكحال في العين ، هو أكبر مرجع جامع في أمراض العين ، وقد جعله على فصول في وصف العين ، ووصف البصر ، وأمراض العين ، وأسبابها ، وأغراضها ، وحفظ صحة العين ، وأمراض الجفون ، وأمراض الملتحمة ، وأمراض القرنية ، وأمراض الحدقة ، وأمراض العين التي لا تقع تحت الحواس ، وأدوية العيون . . .

وكتب بعض أطباء العرب في تشرح الشرايين والأوردة في الرئة . ووصف ابن النفيس ، لأول مرة في التاريخ الدورة الدموية الرئوية ، وكشف قبل سرفيتوس بثلاثة قرون : أن الدم ينقي في الرئتين ، وقد أتينا على شيء من هذا في الفصل الخاص بابن النفيس .

٣

أخذ العرب الجراحة عن اليونان والهنود وبلغوا فيها شأوا بعيداً ، وأول من اهتم بها الرازي ، وشرح على بن عباس المجوسى عملية الشق العجانى على الحصة . وفى أوائل القرن الحادى عشر لليلاد ازدهر العصر الأندلسى بأبى بكر محمد مروان بن زهر ، وقد جمع بين الطب والجراحة ، وامتنع فى كثير من الحالات عن إتمام عملية الشق على الحصة . ولعل الزهراوى أكبر من برع فى عمل اليد وإجراء العمليات الجراحية والاستعانة بالآلات والادوات . وقد وضع كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) ، وهو ثلاثة أقسام : الاول فى الطب ، والثانى فى الاقربا بدين والكيمياء ، والثالث فى الجراحة . ويقول الدكتور « سامى حداد » فى إحدى محاضراته النفيسة عن مآثر العرب فى الطب : « ... أما كتاب الجراحة للزهراوى فهو أطيب ما أنتجه العرب فى هذا الفن ، وهو يبحث فى العلاج بالكى وفى الجراحة العامة مع وصف العمليات الجراحية ، وفى علاج كسر العظام وخلعها ، وفيه ما يزيد على مائتى شكل للآلات الجراحية التى يستعملها كان المؤلف »

وفيه أيضاً إشارة إلى تفتيت الحصة داخل المثانة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ، وبقي مدة طويلة منهلاً لكثير من أطباء أوروبا ، ويعجب الدكتور من بحوث هذا الكتاب ويخرج منه بأن الزهراوى كان جراحاً ماهراً ذا خبرة واسعة حصلها من ممارسة فنه وملاحظة سير مرضاه ومرضى معاصريه من الأطباء ومن أتى قبلهم ، كما يخرج من مطالعته البحث المتعلق بمعالجة السرطان بالقول : « ... فكأنه — أى الزهراوى — فهم مبدأ انتشار الأورام السرطانية وسروحها »

ودفعت الجراحة العرب إلى استخدام المخدرات فيها ؛ كالحشيش ، والافيون ، والزوان ، وست الحسن (هيسيامين) : « ... وربما كانوا مخترعى الاسفنجية المخدرة التى كثر استعمالها فى القرون الوسطى » وقد أخذوا خيطان الجروح من أمعاء القطط والحيوانات الأخرى .

وكذلك هم أول من حضر واستخدم الأوتار الجلدية في تخطيط الجروح بعد العمليات الجراحية .

ويمكن القول : إنه حينما كانت الجراحة في ذروتها عند العرب أثناء ازدهار حكمهم كانت الجراحة نفسها محقرة في أوروبا ، والجراحون منظور إليهم كأنجاس ، وكانت الجراحة عندهم في أيدي الحلاقين والجزارين ، وكانت المدارس الطبية الأوروبية تتحاشى تعليم الجراحة في القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها لا تليق بالأطباء المحترمين ، وأنه لا يجوز لهم أن يغيروا ما خلقه الله ؛ ففي عام ١١٦٣ م أصدر مجلس « تورس البابوى » قراراً يوجب على المدارس الطبية أن يهملوا تعليم الجراحة . كان كل هذا بينما كان الأطباء العرب يشيدون للطب مقاماً رفيعاً ويعتبرون الجراحة قسماً منفرداً ومحترماً من الطب

٤

وما دمنّا في حديث الطب عند العرب ، فلا بد لنا من التعرض للمستشفيات ، أو كما كانوا يطلقون عليها (البيمارستانات) . فلقد وجه العرب الكثير من عنايتهم للمستشفيات . وفي أيام الأمويين أقاموا بعض المستشفيات للجذام والعميان ، ولكنها كانت بدائية . أما في العصر العباسيين فقد شيد العرب المستشفيات الجديرة بهذا الاسم في بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وغيرها من الحواضر ، وكانوا يختارون موقع المستشفى بعد الدرس والبحث . جاء في كتاب طبقات الأطباء : « أن عضد الدولة استشار الرازى ليختار له مكاناً لبناء مستشفى يحمل اسمه ؛ فطلب الرازى أن يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم ، واعتبر الناحية التي لم يتغير فيها اللحم ، فأشار بإقامة المستشفى عليها »

والمستشفيات عند العرب على نوعين : منها ما هو خاص ببعض الأمراض كالأمراض العقلية والجذام ، ومنها ما هو عام لجميع الأمراض ؛ فأنشأوا

مستشفيات لمعالجة المجدومين ، والمجانين ، والعميان ، والايتام ، والفساء ،
والمعاجزات ، والمرضى فى السجنون ، وللاجيش ، وسائر الناس .

ومن المستشفيات ما كان ثابتا فى المكان الذى اقيم عليه ، ومنها ما كان
محمولا ، ينقل من مكان إلى آخر بحسب ظروف الامراض والابوثة وانتشارها ،
وهو ما نطلق عليه كلمة (Amculance) . ويقول الدكتور د أحمد عيسى ،
فى كتابه (تاريخ البيمارستانات فى الإسلام) : . . . والراجح أن العرب هم
أول من أنشأ البيمارستان المحمول ؛ وهو مستشفى مجهز بجميع ما يلزم المرضى
والمداواة ، من أدوات ، وأدوية ، وأطعمة ، وأشربة ، وملابس ، وأطباء ،
وصيادلة ، وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين
والمسجونين . ينقل من بلد إلى آخر من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة
أو التى يظهر فيها وباء أو مرض معد . . .

وجاء فى كتاب « طبقات الاطباء » وكتاب « تاريخ البيمارستانات » ما يدل
على أن البيمارستانات كانت تسير على نظام تام ، وعلى أصول مرعية لا تقل
عن النظام الحديث والاصول الحديثة ، وإن كانت هذه تفوقها فى الآلات
والادوات والاساليب التى تسود المستشفيات فى هذا العصر مما يتناسب
وتقدم الطب .

وكانت المستشفيات تنقسم إلى قسمين : قسم للرجال ، وقسم للنساء ، وكل
قسم يحتوى على غرف وقاعات ؛ منها ما هو للأمراض الداخلية ، ومنها
ما هو للأميون ، والجراحة ، والكسور ، والتجبير . وبنفس الوقت كان قسم
الامراض الداخلية ينقسم إلى غرف : منها للحميات ، ومنها لحوادث
الإسهال ، ومنها للأمراض العقلية .

ولم تخل المستشفيات من أقسام خاصة للناقبين ، والمياه جارية فى أغلب
الأقسام .

كانت هذه حال المستشفيات عند العرب فى القرون الوسطى ، فى حين كانت
مستشفيات أوروبا وكراً للأمراض والجراثيم . ولم يكن لدى الاوروبيين

إنسانية نحو المرضى ، فقد كان بعض ملوكها يحرقون المجذومين ويعذبون المجانين ، ولا يكثرثون لصحة المسجونين أو حياتهم .

وقد أيد (ما كس نوردو) ما جاء عن مستشفيات أوروبا في القرون الوسطى ؛ فأشار إلى مستشفى (أوتيل ديو) المعاصر لمستشفيات العرب . وقال : إنه كان مثالا للفوضى والقذارة .

لقد كان العرب في هذه المستشفيات يسيرون في عملهم على النظام الذي تسير عليه مستشفيات هذه الأيام من حيث : الأدوية ، والفحص ، والنظافة ، والأكل ، والخدمة ، ونظام الأطباء .

ويطول بنا المطال إذا تعرضنا لهذه النواحي ، فقد تعرض لها ابن أبي أصيبعة في كتاب « طبقات الأطباء » بشيء من التفصيل ، كما أشار إليها الدكتور « أمين أسعد خير الله » والدكتور « أحمد عيسى » في بعض مؤلفاتهما عن الطب العربي والبيمارستانات .

٥

والعرب أول من أنشأ فن الصيدلة وتحضير الأقرباذين ، وإقامة الرقابة على الصيدليات والصيدالة .

« . . . فكان الصيدالة لا يتعاطون صناعتهم إلا بعد الترخيص لهم ، وقيد أسمائهم في الجدول الخاص بهم ، كما كان في كل مدينة مفتش خاص للصيدليات وتحضير الأدوية . . . »

وأتى العرب بالعقاقير من الهند وغيرها من البلدان ، وتحقيق لدى الأفرنج أن العرب هم واضعو أسس الصيدلة ، كما أنهم « أول من أسس مدارس الصيدلة ، ووضع التأليف الممتعة في هذا الموضوع . . . » واستنبطوا أنواعاً كثيرة من العقاقير تدلنا على ذلك أسماؤها التي وضعها العرب والتي لا تزال على وضعها عند الغربيين ، وامتازوا في معرفة خصائص العقاقير سواء أكانت من الأصل النباتي ، أم المعدني ، أم الحيواني ، وكيفية استخدامها لمداواة الأمراض .

... لقد كشف العرب أدوية جديدة عديدة منها : السنامكة ،
والسكافور ، والصندل ، والراوند ، والمسك ، والمر ، وجوز الإق ، والتمر
الهندي ، والحنظل ، وجوز الطيب ، والقرقة ، وخانق الذئب (اكونيت) ،
وغيرها . كما أنهم هم الذين اخترعوا الأشربة ، والكحول ، والمستحلبات ،
والخلاصات العطرية ، ومنها الورد وتوصل ابن سينا إلى تغليف
الحبوب التي كان يضعها للمرضى

وكذلك توصل العرب إلى عمل الترياق المؤلف من عشرات ، بل مئات
الأدوية ، وحسنوا تراكيب الأفيون والزئبق ، وتوسعوا في استعمالها . وقد
مر معنا أنهم أول من استعمل الحشيش والأفيون وغيرهما للتخدير .

ووضع علماء العرب من الأطباء وغير الأطباء مصنفات ورسائل عديدة
في الأدوية المفردة ، والأغذية ، والصيدلة في الطب ، تركيب الأدوية ، وساروا
في بعضها على ترتيب خاص ليسهل على المشتغل والقارئ التقاط منافع كل
دواء ، وماهية الدواء واختياره ، ثم طبعه ثم الأفعال فالخواص . ويتبين من
هذه المصنفات والمؤلفات أن العرب أدخلوا جملة من المواد الطبية في العقاقير
والمفردات الطبية ، وقد جمعها (ليكلرك Leciere في بعض مؤلفاته) وأتى عليها
بنصها العربي وما يقابلها من نص لاتيني ، ومن مقابلة النصين يتجلى الاقتباس
عن اللغة العربية واللفظ العربي .

الفصل الثاني

الكيمياء والنبات عند العرب

١

لقد أصبحت الكيمياء علماً صحيحاً بفضل جهود العرب ونزعتهم العلمية ، وميلهم إلى البحث والتدقيق والتجربة . قال درابر : . . . ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا ، واستعانوا بالعلوم الرياضية واستعملوا وسائل القياس والحصول على معلومات جديدة . وهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكا والسوائل والبصريات على مجرد النظر ، بل لجأوا إلى التجربة والمراقبة والامتحان والاستنتاج بما كان لديهم من أدوات وآلات ، وذلك ما هياً لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع التصفية والتبخير ورفع الأثقال ، كما دعاهم إلى استعمال الاضطراب والربع في الفلك واستخدام الموازنة في الكيمياء مما خصوا به دون سواهم . . .

ويقول بعد ذلك : . . . إن العرب هم الذين أنشأوا في العلوم العملية : علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها المهمة : كحمض الكبريتيك وحمض النتريك والكحول . وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المعالجات الطبية ، فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية . . .

لقد سار العرب في علم الكيمياء في أساس التجربة — وهذا هو الذي دفع هذا العلم خطوات فاصلات — لولاها لما تقدم تقدمه العجيب في هذا العصر .

ويرى بعض علماء الغرب أن محاولة العرب كشف الأكسير الذي يهب الحياة ويعيد الشباب ، ومحاولتهم كذلك معرفة حجر الفلاسفة الذي يحول

المعادن إلى الذهب ، قد دفعتهم إلى معرفة التقطير والتصعيد والتذويب ، كما أدت بهم إلى « كشف الكحول من المواد السكرية والنشوية الخائرة . . . » .

لقد أضاف العرب إلى الكيمياء إضافات هامة جعلت الغربيين يعتبرونه علما عربيا ؛ فهم الذين كشفوا القلويات ، والنشادر ، وتترات الفضة ، والراسب الأحمر ، وحامض الطرطير ، وعرفوا كذلك عمليات التقطير ، والترشيح ، والتصعيد ، والتذويب ، والتبلور ، والتسامي ، والتكليس ، وكشفوا بعض الحوامض . كما كانوا أول من استحضروا حامض الكبريتيك ، وحامض النتريك ، والماء الملكي (حامض النتروهيديروكلوريك) ، وماء الذهب ، والصودا الكاوية ، وكربونات البوتاسيوم ، وكربونات الصوديوم ، وحصلوا على الزرنيخ ، والأثمد ، من كبريتيديهما ، وغيرها مما تقوم عليه الصناعات الحديثة ، وتستعمل في صنع الصابون والورق والحبر والمفرقات والأصبغة والسجاد الصناعي .

وكشف العرب كذلك الحامض الأزوتي . وقد جاء ذكره في رسائل جابر ابن حيان وسماه الماء المحلل ، ثم جاء ألبير الكبير فوصف استحضاره وصفا مدققا . وتوجد اليوم معامل كثيرة لاصطناعه ، ويستهلك منه كميات كبيرة في العالم للصناعات المختلفة التي لا بد فيها من استعماله ، مثل صنع الحامض الكبريتي ، والماء الملكي ، والنيتروبنزين ، والنيتروكليسرين ، وقطن البارود ، والمواد الملونة . ويستعمله الحكاكون لحك النحاس ويسمونه الماء الغالب ، ويستعمله المصورون ويسمونه الماء المساعد ، كما يستعمله الصياغ ويسمونه ماء الفضة . . .

وأدخل العرب طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض . . . وهذه طريقة لا تزال تستخدم إلى الآن ولها شأن في تقدير عيارات الذهب في المشغولات والسبائك الذهبية

وللعرب فضل آخر على الكيمياء في تقسيمهم المواد الكيميائية المعروفة في زمانهم إلى أربعة أقسام أساسية : المواد المعدنية ، والمواد النباتية ، والمواد

الحيوانية ، والمواد المشتقة . وكذلك قسموا المعدنية لكثرتها وتباين خواصها إلى ست طوائف ، . . . ولا يخفى ما ينطوى عليه عمل كهذا من بحث وتجربة وإلمام بخواص هذه المواد وتفاعلاتها بعضها مع بعض

وعلم الكيمياء هذا دخل أوروبا مع أسماء عربية لا تزال باقية في مختلف اللغات الإفرنجية : كالقلى ، والبورق ، والطاق ، والانيق ، والآكسـير ، والكحول ، والقصدير ، والتنور ، والزرنيخ ، والداق ، والأسد (أو الحديد) ، والخيرة ، والغار ، وأبو القرعة . .

واستخدم العرب هذا العلم في الطب ، والصناعات ، وفي صنع العقاقير ، وتركيب الأدوية ، وتنقية المعادن ، وتركيب الروائح العطرية ، ودبغ الجلود ، وصنع الأقمشة . وجاء في بعض مؤلفات جابر وصف لصنع الفولاذ وصل المعادن الأخرى .

ويقول « ابن الأثير » : إن العرب استعملوا أدوية إذا طلى الخشب بها امتنع احتراقه ، واشتهروا في صناعة الزجاج والتفنن فيها ، وكذلك في صناعة الورق ، ولا يخفى ما لهذه من أثر في انتشار العلوم وتقدم الحضارة . ويقول (لويجي رينالدى العالم الإيطالى) : « إن العرب أول من أدخل هذه الصناعة (الورق) إلى أوروبا ، وقد أنشأوا لذلك مصانع عظيمة في الأندلس وصقلية ، ومن ذلك الحين انتشرت صناعة الورق في إيطاليا كلها

ويمكن القول إن للعرب أثرا كبيرا في تكوين مدرسة كيموية تركت أباغ الأثر في الغرب . وما كان هذا ليكون لولا تغيير جابر وأمثال جابر الأوضاع ، وإقامة الكيمياء على التجربة والملاحظة والاستنتاج .

لم يقف العرب عند نتاج الأقدمين ، ولم يتقيدوا بأرسطو أو غيره من فلاسفة اليونان ، ولكنهم خالفوهم في بعض النظريات والآراء ، وأتوا بنظريات وآراء أكثر ملاءمة للحقائق العلمية .

وقد شرحنا بعضها في الفصل الثانى عند التعرض لنتاج علماء العرب وآثارهم في ميادين العلوم .

لقد دعا العرب إلى الاهتمام بالتجربة والحث على إجرائها مع دقة الملاحظة . وقال بعضهم : إن واجب المشتغل في الكيمياء ، هو العمل وإجراء التجربة ، وإن المعرفة لا تحصل إلا بها . وطلب بعضهم (بكابر بن حيان) من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية ، ألا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن يعرفوا السبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهموا التعليلات جيدا ، وطالبوا بالصبر والمثابرة والتأني باستنباط النتائج . ولهذا لا عجب إذا أتقنوا الكثير من العمليات الهامة في الكيمياء ، فوصفوها وصفا هو في غاية من الدقة ، وبينوا الغرض من إجرائها .

ووضع « جابر » قواعد التجربة في بعض كتبه (كتاب نهاية الإتقان) ، و (رسالة الأفران) ، وقد ترجما إلى اللاتينية . وهما يشتملان على وصف التجارب والعمليات « . . . وصفا يليق استعماله وتطبيقه في عصرنا لدرس الوسائل الكيموية في المدارس كافة التي تحتوى على غرفة لحفظ الأنيق ، والقرعة ، والآنايب ، والآباريق ، والفرن ، وبقية أدوات الكيمياء . . . » . لقد كانت كتب « جابر » هذه منارا اهتدى بها العلماء الذين أتوا بعده من العرب والأفرنج من الذين مهدوا للانقلاب . وقد اطلع عليها (غاليليو) و (فرنسيس بيكون) و (نيوتن) وغيرهم . وكان لها أبلغ الأثر في الكشف العملية التي ظهرت في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر .

٢

يعترف (رينالدى) : بأن العرب أعطوا من النبات مواد كثيرة للطب والصيدلة ، وانتقلت إلى الأوروبيين من الشرق ، أعشاب ونباتات طبية وعطور كثيرة كالزعفران والكافور وذكر (ليكلرك) جملة من المواد الطبية التي أدخلها العرب في العقاقير والمفردات الطبية يزيد عددها على الثمانين ، وقد أوردتها بالنص العربي ، وما وضع لها من كلمات لاتينية ، منها ما هي منحوتة أو مقتبسة من الأصل العربي ، ومنها ما لا تزال بلفظها العربي ولكن بحروف لاتينية .

وظهر في العرب من اشتهر في علم النبات بالتدقيق والبحث ، كرشيد الدين الصوري ، «... فكان يستصحب معه مصورا عند بحثه عن الحشائش في منابها ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه إلى المواضع التي بها النبات فيشاهده ويحققه ويريه للبصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها ويجهتد في محاكاتها ، ثم إنه سلك أيضا في تصوير النبات مسلكا مقيدا ، وذلك أنه كان يرى النبات للمصور في إبان نباته وطرأوته فيصوره ، ثم يريره إياه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريره إياه أيضا وقت ذواه ويبيسه فيصوره ، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه في الكتاب وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به في الأرض فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين...» .

وللعرب في الحراثة كتاب جليل جدا ألفه : أبو زكريا الأشبيلي ، . وفي هذا الكتاب حاول المؤلف أن يطبق معارف العراق واليونان والرومان وأهل إفريقية على بلاد الأندلس . وقد بحق المؤلف في تطبيقاته وانتفع بذلك عرب الأندلس والأوروبيون فيما بعد . وصاروا (أى العرب) يعرفون خواص الأتربة وعن كيفية تركيب السماد مما يلائم الأرض أكثر من غيرهم ، كما أنهم أدخلوا تحسينات جمة على طرق الحرث والغرس والسقي ، وهذا ما جعل الأندلس في العهد العربي جنة الدنيا .

قال (كاباتون) : «... وكانت مدينة العرب في إسبانيا ظاهرة في الأمور المادية ، وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لإخصاب الأراضي البور في الأندلس...» .

ويعترف (سيديو) ؛ بأن العرب أضافوا مواد نباتية كثيرة كان يجهلها اليونان جهلا تاما ، وزودوا الصيدلية بأعشاب يستعملونها في الطب والمداواة .

ومن العرب عرف الغرب الأفاويه ؛ كجوز الطيب ، والقرنفل ، ولاحظ بعض العلماء ، أن العرب غرسوا أشجارا ثنائية المسكن فكانت لديهم أفكار (م — ٣ العلوم عند العرب)

واضحة حول تكثير النسل .. ، كما كان لديهم معرفة واسعة بالاقتصاد الزراعى .. . وقد أوصلوا الزراعة إلى أقصى درجات السكال .. . وعنوا بالتسلسل النباتى ، وإليه يعود فضل استعمال الراوند ، ولب التمر الهندى ، وخيار الشنبر ، والمن ، وورق السنا المكى ، والاهليلج ، والكافور .. . واستعمل العرب السكر ففضلوه على العسل خلافاً للقدماء .. . فأدى ذلك إلى كثير من المستحضرات الصحية النافعة .. .

ووضع « ابن البيطار » — كما سيتبين فيما بعد — كتاباً نفيساً فى النبات ، أوضح فيه ملاحظاته الخاصة فى دراسة النباتات والأعشاب ووصف فيه أكثر من (١٤٠٠) عقار بين نباتى وحيوانى ومعدنى ؛ منها (٣٠٠) جديدة . ولم يقف عند هذه الحدود بل بين فوائدها الطبية وكيف يمكن استعمالها كأدوية وأغذية .

ولا يتسع المجال للتفصيل ، ولكن يمكن القول إن علماء العرب قد وضعوا المؤلفات الخافلة بالنباتات الطبية وغير الطبية وأمراضها وطرق مداواتها . وقد دفعت بعلم النبات والزراعة خطوات فاصلات إلى الأمام والنمو والازدهار .

ويمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع إلى الكتاب القيم الذى وضعه الدكتور « أحمد عيسى » فى تاريخ النبات عند العرب ، فقد أتى فيه على الأطوار التى مرت على النبات من جمع وتقييد ، والتقلبات والتغيرات التى طرأت عليه فى استعماله فى الزراعة والعطارة والتداوى ، كما ذكر ما تفنن فيه العرب فى جميع البلدان من التجارب من جميع النواحي ، وأشار المؤلف فى كتابه كذلك إلى تقدم الزراعة فى الأندلس .. . حيث بلغ الحد أن يستولد ورداً أسود وأن يكتسب بعض النبات صفات بعض العقاقير فى مفعوله الدوائى .. .

الفصل الثالث

علم الطبيعة عند العرب

١

يقول (ويدمان) : إن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدا وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ، ثم أنشأوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثا مبتكرة ، فهم بذلك قد أسدوا إلى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن ، وفراداي ، ورتجن . ومن يطالع على بحوث العرب في الطبيعة وإضافاتهم إليها يتجلى له صحة ما ذهب إليه (ويدمان) .

لقد أصبح علم الطبيعة من العلوم التي لها اتصال وثيق بالحياة البشرية ، وشأن عظيم في تقدم المدنية الحديثة القائمة الآن على الاختراع والكشف ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا : إن علم الطبيعة هو الأس الذي شيد عليه صرح الحضارة الحالية ، وهو لم يتقدم تقدما محسوسا إلا حينما أشرف القرن التاسع عشر على ختامه ، وفي هذا القرن ؛ القرن العشرين ، دبت إليه عوامل التحول ، واعتنى به العلماء عناية فائقة ، فأنشأوا المختبرات وأنفقوا عليها المبالغ الطائلة ، وبلغوا في إتقانها درجة كبيرة استطاعوا بواسطتها أن يحلوا بعض المشكلات العلمية وأن يجيبوا عن مسائل كثيرة غامضة ، وظهرت من ذلك عجائب الكون بصورة أوضح وأتم ، واستخدم الإنسان ما استكشفه من نواميس الطبيعة والحياة فيما يعود عليه بالتقدم والرقى .

إن علم الطبيعة من العلوم التي اعتنى بها الأقدمون . فقد كان معروفاً عند علماء اليونان ، وإليهم يرجع الفضل في استكشاف كثير من مبادئه الأولية ، ولهم فيه مؤلفات عديدة ترجمها العرب ، ولم يكتفوا بنقلها بل توسعوا فيها وأضافوا إليها إضافات هامة تعتبر أساساً لبعض المباحث الطبيعية ، وهم الذين وضعوا أساس البحث العلمي الحديث وقد قويت عندهم الملاحظة وحب الاستطلاع ورغبوا في التجربة والاختبار ، وأنشأوا (المعمل) ليحققوا نظرياتهم وليستوثقوا في صحتها ؛ ومن الفروع التي أصابها شيء من اعتناء العرب (الميكانيكا) أو علم الحيل . ومع أنهم لم يبدعوا فيه إبداعاتهم في البصريات إلا أنهم استنبطوا فيه بعضاً من مبادئه وقوانينه الأساسية التي كانت من العوامل التي ساعدت على تقدمه ووصوله إلى درجته العالية . لقد ترجم العرب كتب اليونان في (الميكانيكا) ؛ ككتاب (الفيزيكس) لأرسطوطاليس ، وكتاب الحيل الرومانية ، وكتاب رفع الأثقال لآيرن ، وكتاب الآلات المصونة على بعد ستين ميلاً لمورطس ، وكتاب هيرون الصغير في الآلات الحربية ، وكتب قطيبيوس وهيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للياه وغيرها .

درس العرب هذه المؤلفات ووقفوا على محتوياتها ثم أخذوها وأدخلوا تغييرات بسيطة على بعضها وتوسعوا في البعض الآخر ، واستطاعوا بعد ذلك أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساساً لبحوث الطبيعة المتنوعة . وليس في الإمكان أن نجول كثيراً في هذه الرسالة حول ما أثر العرب في الميكانيكا ، ولكن سنأتي على ذكر شيء من مجهوداتهم فيه وما أسدوه من الخدمات لهذا الفرع من المعرفة ، وما كان لهذه المجهودات ولتلك الخدمات من أثر بين تقدمه ورقيه .

لقد كتب العرب في الحيل ، وأشهر من كتب في هذا البحث : محمد ، وأحمد وحسن ؛ أبناء موسى بن شاكر ، ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على

كل غريبة ، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها ، وهو مجلد واحد... وهى — أى الحيل — شريفة الأغراض عظيمة الفائدة مشهورة عند الناس ، ويحتوى هذا الكتاب على مائة تركيب ميكانيكى ، عشرون منها ذات قيمة عملية . وكان علماء العرب يقسمون علم الحيل إلى قسمين : الأول منهما يبحث فى جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته ، والثانى فى آلات الحركات وصناعة الآوانى العجيبة .

وألف العرب فى علم مراكز الأثقال وهو : « علم يتعرف منه كيفية استخراج ثقل الجسم المحمول ؛ والمراد بمركز الثقل حد فى الجسم ، عنده يتعادل بالنسبة إلى الحامل... » ، ومن الذين ألفوا فيه « أبو سهل الكوهي » و « ابن الهيثم » و « بنو موسى » .

وكذلك للعرب فضل فى علم السوائل ، فلأبى الريحان البيرونى فى كتابه (الآثار الباقية) شروح وتطبيقات لبعض الظواهر التى تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، ووضع — غير أبى الريحان — من علماء العرب فى هذا مؤلفات قيمة ، شرحوا صعود مياه الفوارات والعيون إلى أعلى ، كما شرحوا تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مأخذها من المياه القريبة إليها ، وتكون سطوح ما يجتمع منها موازية لملك المياه . وبينوا كيف تفور العيون . وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلى القلاع ورءوس المنارات ، وشرحوا كل هذا بوضوح تام ودقة متناهية . وقد استنبطوا طرقاً ، واخترعوا آلات تمكنوا بوساطتها من حساب الوزن النوعى وكان لهم به عناية خاصة ، وقد يكون ذلك أنياً من رغبتهم الشديدة فى معرفة الوزن النوعى للأحجار الكريمة وبعض المعادن . وهم أول من عمل فيه الجداول الدقيقة ، فقد حسبوا كثافة الرصاص مثلاً فوجدوها ١١,٣٣ ، بينما هى ١١,٣٥ ، وحسبوا كثافة الذهب فكانت ١٩,١٣٧ بينما هى ١٩,٣ ، والفرق بين حساب العرب والحساب الحديث يسير جداً ، وقد تتجلى للقارى دقة العرب على وجه أتم إذا علم أن حساب العرب كان بالنسبة إلى الماء غير المقطر ، فى حين أن حساب الكثافات الآن هو بالنسبة إلى

الماء المقطر . وفي كتاب (عيون المسائل من أعيان الرسائل) لعبد القادر الطبري ، جداول فيها الأثقال النوعية للذهب ، والزئبق ، والرصاص ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، ولبن البقر ، والجبن ، والزيت ، والياقوت ، والياقوت الأحمر ، والزمرد ، واللآزورد ، والعقيق ، والماء ، والبلخش ، والزجاج . واستطاعوا أن يحسبوا أثقال هذه المواد النوعية بدقة أثارت إعجاب العلماء . وعمل « البيروني » تجربة لحساب الوزن النوعي واستعمل لذلك وعاء مصبه متجه إلى أسفل ، ومن وزن الجسم بالهواء . والماء تمكن من معرفة الماء المزاج ، ومن هذا الأخير ووزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعي . وقد وجد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصراً ومركباً من الأحجار الكريمة والمعادن .

ويعترف « سارطون » بدقة تجارب « البيروني » في ذلك . واخترع « الخازن » آلة لمعرفة الوزن النوعي لأي سائل ، واستعمل بعض علماء العرب قانون (أرخميدس) في معرفة مقدار الذهب والفضة في سبيكة ممزوجة منهما من غير حلها . وعلى كل حال فالذين كتبوا في الوزن النوعي كثيرون ، منهم : سند بن علي ، والرازي ، وابن سينا ، والخيام ، والخازن ، وغيرهم . وكانت كتاباتهم مبنية على التجربة والاختبار ، واستعمل البعض موازين خاصة يستعينون بها على معرفة الكثافة . فقد استعمل الرازي ميزاناً أسماه (الميزان الطبيعي) وله في ذلك كتاب محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي . و « للخازن » كتاب (ميزان الحكمة) كتبه سنة ١١٣٧ م . وفيه وصف دقيق مفصل للموازين التي كان يستعملها العرب في تجاربهم ، وفيه أيضاً وصف لميزان غريب التركيب لوزن الأجسام بالهواء والماء . ونجد فيه جداول الأوزان النوعية لكثير من المعادن والسوائل والأجسام الصلبة والتي تذوب في الماء . وهذه الجداول دقيقة جداً ومستخرجة بطرق متنوعة .

ويقول « سارطون » : إن « ابن سينا » و « الخيام » ابتدعا طرقاً عديدة لاستخراج الوزن النوعي . وكتاب (ميزان الحكمة) المذكور من الكتب الرئيسية المعتبرة جداً في علم الطبيعة : إذ هو أكثر الكتب استيفاءً لبحوث

الميكانيكا ، وقد يكون هو الكتاب الوحيد الذى ظهر من نوعه فى القرون الوسطى ، واعترف (بلتن) فى خطاب ألقاه فى أكاديمية العلوم الأمريكية بهذا الكتاب من الشأن . ومنه يؤخذ أنه كان لدى « الخازن » آلات مخصوصة لحساب الأوزان النوعية ولقياس حرارة السوائل ، وفى الكتاب نفسه بحث فى الجاذبية ، وبأن هنالك علاقة بين سرعة الجسم والبعد الذى يقطعه والزمن الذى يستغرقه . وقال « الخازن » أيضا إن قوى التثاقل تتجه دائماً إلى مركز الأرض ، ولم ينفرد الخازن ببحوثه فى الجاذبية ، فقد بحث غيره من قبله ومن بعده من علماء العرب فيها وفى الأجسام الساقطة ، فاعترف « سارطون » بأن « ثابتا بن قره » و « موسى بن شاكر » وغيرهما قالوا بالجاذبية وعرفوا شيئاً عنها . وقال « ثابت بن قره » : « إن المدرة تعود إلى السفلى لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة فى كل الاعراض : أعنى البرودة والكثافة ، والشئ ينجذب إلى أعظم منه . . . » وقد شرح « محمد بن عمر الرازى » هذه العبارة فى أواخر القرن السادس للهجرة فقال : (إننا إذا رمينا المدرة إلى فوق فإنها ترجع إلى أسفل فعلينا أن فيها قوة تقتضى الحصول فى السفلى حتى إننا لما رميناها إلى فوق أعادتها تلك القوة إلى أسفل . . . »

أليس فى هذا تمهيد لفكرة الجاذبية ؟ أليست مباحث « محمد بن موسى » فى حركة الأجرام السماوية وخواص الجذب سابقة لبحوث نيوتن بها ؟ أليست هذه خطى تمهيدية للتوسع فى قانون الجاذبية ؟ . إن كشف « أبى الوفاء البوزجاني » الذى ظهر فى القرن العاشر للميلاد ، لبعض أنواع الخلل فى حركة القمر دليل على أنه كان يعرف شيئاً عن الجاذبية وخواص الجذب ؟ يظهر من هنا أن علماء العرب والمسلمين — ومن قبلهم علماء اليونان — سبقوا نيوتن فى البحث عن الجاذبية . ونحن لا نزعم طبعاً أن العرب أو اليونان أفرغوا الجاذبية وقوانينها وما إليها فى الشكل الرياضى الطبيعى الذى أتى به نيوتن ، بل إن العرب أخذوا فكرة الجذب عن اليونان وزادوا عليها ووضعوا بعض العلاقات بين البعد الذى يقطعه الجسم الساقط وزمن السقوط ، ثم أتى نيوتن وأخذ ما عمله غيره فى هذا المضمار وزاد عليه حتى استطاع أن يضع

قوانين الجاذبية بالشكل الذى نعرفه مما لم يسبق إليه ، ولا شك أن له فى ذلك الفضل الأكبر . ولكن هذا لا يعنى تجريد العرب ومن قبلهم ، اليونان ، من الفضل . فلما وضع الأساس فى علم من الفضل ما للكشف وللخترع فيه . ويحتوى كتاب (ميزان الحكمة) أيضاً على بحث فى الضغط الجوى ، وبذلك يكونون قد سبقوا (تورشيللى) فى هذا الموضوع ، كما يحتوى على المبدأ القائل بأن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من (أسفل إلى أعلى) على أى جسم مغمور فيه ، ومن هذا استنتج أن وزن الجسم فى الهواء ينقص عن وزنه الحقيقى . وجميع هذه المبادئ والحقائق هى كما لا يخفى ، الأساس التى عليها بنى الآوريون — فيما بعد — بعض الاختراعات كالبارومتر ومفرغات الهواء .

٣

وللعرب بحوث نفيسة فى الروافع ، وقد أجادوا فى ذلك كثيراً ، وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع ، وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية تمكهم من جر الأثقال بقوة يسيرة ، فمن هذه الآلات التى استعملوها : المحيط ، والمخل ، والبيرم ، والآلة الكثيرة الرفع ، والأسفين ، واللوب ، والاسقاطولى ، وغيرها . وقد يطول بنا المطال إذا أردنا أن نبين ماهية كل منها ، ويمكن لمن يريد الوقوف على ذلك أن يرجع إلى كتاب « مفاتيح العلوم للخوارزمى » ففيه بعض التفصيل . ومن الطريف أن العرب عند بحثهم فى خواص النسبة أشاروا إلى أن عمل القبان هو من عجائب النسبة ، فقد جاء فى رسائل « إخوان الصفا » : « . . . ومن عجائب خاصية النسبة ما يظهر فى الأبعاد والأثقال من المنافع ، ومن ذلك يظهر فى القرسطون : أعنى القبان ، وذلك أن أحد رأسى عمود القرسطون طويل بعيد من المعلق والآخر قصير قريب منه ، فإذا عاق على رأسه الطويل ثقل قليل وعلى رأسه القصير ثقل كثير تساويا وتوازنا متى كانت نسبة الثقل القليل إلى الكثير كنسبة بعد رأس القصير إلى بعد رأس الطويل من المعلق . . . » والمقصود من المعلق هنا نقطة الارتكاز Falcum .

واستعمل العرب موازين دقيقة للغاية وثبت أن فرق الخطأ في الوزن كان أقل من أربعة أجزاء من ألف جزء من الجرام . وكان لديهم موازين أدق من ذلك ؛ فقد وزن الأستاذ (فلنדרز بترى) ثلاثة نقود عربية قديمة ، فوجد أن الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الجرام ويقول الأستاذ المذكور تعليقا على هذه الدقة : « إنه لا يمكن الوصول إلى هذه الدقة في الوزن إلا باستعمال أدق الموازين الكيموية الموضوعة في صناديق من الزجاج (حتى لا تؤثر فيها تموجات الهواء) وبتكرار الوزن مرارا (حتى لا يبقى فرق ظاهر في رجحان أحد الموازين على الآخر) ولذلك فالوصول إلى هذه الدقة لما يفوق التصور ، ولا يعلم أن أحدا وصل إلى دقة في الوزن مثل هذه الدقة ، ومن هنا يظهر أن العرب درسوا مسألة الميزان دراسة دقيقة ، وقد ألفوا في ذلك مؤلفات نفيسة جدا . فثابت بن قرة ، ألف كتابين : أحدهما في صفة استواء الوزن واختلافه ، وشرائط ذلك ، والثاني في القرسطون ، ويوجد من هذا الكتاب نسختان إحداهما في برلين ، والثانية في المكتب الهندي بلندن . ومن الذين اشتركوا في الموازين والأوزان نظريا وعمليا : الكوهي ، والفارابي ، وابن سينا ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ، وابن الهيثم ، والجلدي وغيرهم .

واستعمل العرب لموازينهم أوزانا متنوعة ، وأحسن كتاب في هذا البحث : الكتاب الذي وضعه « عبد الرحمن بن نصر المصري » المراقب (المحتسب) العام لأحوال الأسواق التجارية في أيام صلاح الدين الأيوبي . وهناك كتب أخرى تبحث في هذا الموضوع ككتاب ابن جامع وغيره .

وفوق ذلك كتب العرب في الأنابيب الشعرية ومبادئها وتعليل ارتفاع المواقع وانخفاضها فيها ، وهذا طبعاً قادم إلى البحث في التوتر السطحي (Surface Tension) وأسبابه ، وبحث في هذا كله الخازن . وقد يجهل كثيرون أن ابن يونس هو الذي اخترع الخطار (بندول الساعة) ، واعترف بذلك (سيدو) و (سارطون) و (تايلر) و (سدويك) و (بيكر) وغيرهم . وكان عند العرب فكرة عن قانون الخطار ، يقول سمث : (... ومع أن

قانون الخطار هو من وضع غاليليو ، إلا أن كمال الدين لاحظته وسبقه بمعرفة شيء عنه . . . وكان الفلكيون يستعملون الخطار « البندول » لحساب الفترات الزمنية في الرصد . ومن هنا يتبين أن العرب سبقوا غاليليو في اختراع الخطار وفي معرفة شيء عنه ، ثم جاء من بعدهم (غاليليو) وبعد تجارب عديدة استطاع أن يستنبط قوانينه ، فوجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول الخطار وقيمة عجلة الثقالة ووضع ذلك بالشكل الرياضي المعروف ، فوسع دائرة استعمال (الخطار) وجنى الفوائد الجليلة منه .

٤

واشتغل العرب في بحوث الصوت وأحاطوا بالمعلومات الأساسية فيه ، وقالوا : إن منشأ الأصوات حركة الأجسام المصوتة ، وإن هذه الحركة تؤثر في الهواء الذي (لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها ، فإذا صدم جسم جسمًا آخر انسل ذلك الهواء بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل . . .) .

ويقول « الجلدكي » عن التموج الذي يحدث : (ليس المراد منه حركة انتقالية من ماء أو هواء واحد بعينه ، بل هو أمر يحدث بصدم بعد صدم وسكون بعد سكون) . وقسموا الأصوات إلى أنواع منها الجهير والخفيف ، ومنها الحاد والغليظ ، وعزوا ذلك إلى طبيعة الأجسام المصوتة وإلى قوة تموج الهواء بسببها ، وفي اعتزاز الأوتار عرفوا العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة شدة (أو توتره) وشدة النقر من جهة ونوع الصوت الذي يحدث من جهة أخرى ، ولكنهم لم يفرغوا هذه العلاقة في الشكل الرياضي الذي نعرفه . وعللوا الصدى : جاء في (أسرار الميزان) للجلدكي : « . . . والصدى يحدث عن انعكاس الهواء المتموج من مصادمة عال كجبل أو حائط ، ويجوز أن لا يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة فلا يحس بتفاوت زماني الصوت وعكسه . . . » .

وطبق العرب مبادئ الطبيعة في الصوت وغيره على الموسيقى . وبرعوا في هذا الفن وقطعوا فيه شوطاً بعيداً . وليس في هذا أي غرابة ؛ فالموسيقى من الفنون الجميلة التي يطرب لها الإنسان وترتاح نفسه إليها ؛ وهي لغة العواطف ، وقد تكون هي الوحيدة التي يطرب لها الحيوان . اهتم بها المصريون من قديم الزمان وبلغوا فيها شأواً لا بأس به ، وأبدع فيها اليونانيون وأحلوها محالها من الاعتناء والاهتمام ، وكذلك الرومان فإنهم اعتنوا بها وأخذوها عن اليونان وزادوا عليها . وفي الشرق اهتم بها الصينيون واليابانيون وبرعوا فيها واخترعوا آلات كثيرة من ذوات الأوتار ، وظهر منهم من انتقد الموسيقى الأوروبية . هذا في الشرق الأقصى . أما الفرس فقد احتقروها بادية الأمر وترفع أعيانهم عن تعاطيها ، ولكن لم يرض زمن على هذا الاحتقار وذاك الترفع حتى حل محلها العناية والاعتبار ، فألفوا أنغاماً بديعة التوقيع ، وأخذ العرب عنهم كثيراً ، يدلنا على ذلك تسمية الألحان العربية بأسماء فارسية ، كما أخذوا عن البيزنطيين : وهؤلاء وأهل فارس بدورهم أخذوا عن الموسيقى العربية . ولم يكتف العرب بذلك ، بل ترجموا كتب الموسيقى التي وضعها علماء اليونان والهنود ودرسوها ، وبعد أن نقحوها هي وغيرها زادوا عليها ووضعوا في ذلك المؤلفات النفيسة ، وجمعوا بين ألحانهم وألحان اليونان والفرس والهنود ، واستنبطوا الألحان الجديدة لم تكن معروفة ، فضلاً عما اخترعوه من الآلات . ولقد طبق العرب مبادئ الطبيعة على الموسيقى وكانوا دائماً في نظرياتهم الموسيقية عمليين ، فلا يقبلون نظرية إلا بعد التثبت منها عملياً . ويعترف فارمر (Farmer) أن علماء العرب لم يأخذوا بآراء الذين سبقوهم (حتى ولو كان نجم السابقين مضيئاً وعالياً) إلا بعد أن يتثبتوا منها عملياً ، والمعترف به عند علماء الإفرنج أن ابن سينا ، والفارابي ، وغيرهما من علماء الإسلام ، زادوا على الموسيقى اليونانية وأدخلوا عليها تحسينات جمة ، وأن كتاب الفارابي لا يقل — إن لم يفق — الكتب اليونانية الموسيقية ، وثبت أن العرب أجادوا في بحوث التوجات الكرية للصوت ، وفوق ذلك زاد زرياب وتراً خامساً بالانديلس . وكان للعود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطابع

الأربع .. ، فزاد عليها وترأ خامساً أحمر متوسطاً ، ولون الأوتار وطبقها على الطبائع .. وهو الذى اخترع مضراب العود من قوادم النسر معتماً به من مرهب الخشب ... ، .

والآن ... نأتى إلى الآلات الموسيقية عند العرب فنقول :

لا نستطيع أن نسرد كل الآلات التى كانت معروفة عند العرب . ولهذا نذكر أهمها ؛ ولكن قبل ذلك نود أن نوجه النظر إلى أن العرب اعتنوا بصناعة آلات الموسيقى وكانوا ينظرون إلى هذه الصناعة نظراً إلى الفن الجميل ، وقد كتبت عدة رسائل من ذلك ، واشتهرت مدينة اشبيلية بها . وقد جمع العرب آلات غناء كثير من الأمم ؛ كالفرس ، والأتباط ، والروم ، والهند ، واستخرجوا من ذلك آلات تلائم أذواقهم وميولهم ، أضف إلى ذلك ما أضافوه واخترعوه من شتى الآلات . فمن الآلات التى كانت معروفة عندهم : الأرغانون ، والبزق ، والطلبة ، والدف ، والشلياق (آلة ذات أوتار لليونانيين والروم) ، والقشارة ، والطنبور ، والعنق ، والرباب ، والمعزقة (آلة ذات أوتار لأهل العراق) ، والشهروز (وقد اخترع الأخير حكيم بن أحوص السغدى ببغداد) ، والعود ؛ وله خمسة أوتار أعلاها البهم ، والثانى المثلث ، والثالث المشى ، والرابع الزير ، والخامس الحد ، وتترتب هذه الأوتار بصورة مخصوصة بحيث يعادل كل وتر ثلاثة أرباع ما فوقه والمسافة بينهما تعدل رباعاً . ويقال . إن « الفارابى » اخترع الآلة المعروفة بالقانون ، فهو أول من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه إلى الآن ؛ وهو الذى اصطنع آلة « ولفة » من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف أنغامها باختلاف تركيبها . واصطنع « الزلام » آلة موسيقية من الخشب تعرف بالنأى أو المزمار الزلامى ، وأدخل « زلزل » عود الشبوط ، كما أدخل « الحكم الثانى » تحسيناً على تركيب البوق ..

ونختتم بحثنا عن الموسيقى بذكر شئ عن الكتب التى وضعها العرب فى هذا الفن .

وضع العرب ، ولفات نفيسة فى الموسيقى بلغ بعضها الذروة ، وكانت ،

ولا تزال ، من المصادر المعتبرة جدا في تاريخ الموسيقى وتطورها ، وقد يكون كتاب مروج الذهب للمسعودي من أكثر الكتب بحثا وكتابة في اشتغال المسلمين والعرب بالموسيقى ، وفي أشهر موسيقيهم وما يتصل بذلك من طريف الحوادث والأخبار . ويرجح أن «الكندى» أول من كتب في نظرية الموسيقى ، وكتبه فيها هي : الرسالة الكبرى في التأليف ، كتاب ترتيب الأنغام ، كتاب المدخل إلى الموسيقى ، رسالة في الإيقاع ، رسالة في الأخبار عن صناعة الموسيقى . وكتب أيضا «منصور بن طلحة بن ظاهر» ، و«الرازي» و«قسطا بن لوقا البعلبكي» ، و«السرخسي» ، وللأخير كتاب الموسيقى الكبير ، وكتاب الموسيقى الصغير ، وكتاب المدخل إلى علم الموسيقى . وللفارابي كتاب الإيقاعات ، وكتاب آخر اسمه كتاب الموسيقى ؛ وهو من أشهر الكتب ، ويقول عنه سارطون : «إنه أهم كتاب ظهر في الشرق يبحث في نظرية الموسيقى ...» ، ولثابت بن قرة رسالة في فن النغم ، ولأبي الوفاء البوزجاني مختصر في فن الإيقاع ، وأبدع ابن سينا في الكتابة عن الموسيقى ، وله فيها مؤلفات منها : الفن الثامن من كتاب الشفاء وهو الموسيقى وفيه ست مقالات ولكل منها فصول ، وكتاب الموسيقى وهو يدور على الموضوعات التالية : الأصوات ، والأبعاد ، والأجناس ، والجموع ، والإيقاع ، والانتقال ، والصنج ، والشاهر ورد ، والطنبور ، والمزمار ، ودساتين الربط ، وتأليف الألحان . وللشيخ شمس الدين الصيداوي كتاب في الموسيقى تستخرج منه الأنغام ، أكثره شعر وفيه كلام على بحور الشعر والأوزان ودوائر البحور . ولصفي الدين عبد المؤمن البغدادى كتاب الرسالة الشرقية في النسب التأليفية ، وهو مقسوم إلى مقالات وفصول . واصفى الدين الأتموى كتاب الأدوار في الموسيقى ، وينقسم إلى خمسة عشر فصلا ، وفيه صورة عود وصورة آلة قائمة ذات أوتار تسمى نزهة . واشتهر هذا الكتاب كثيرا وبقى قرونا كثيرة المعين الذي استقى منه المؤلفون في الموسيقى . ولمحمد بن أحمد الذهبي الجزيري ابن الصباح شرح عن كتاب في علم الموسيقى ومعرفة الأنغام ، وكذلك لابن زيلا ، وابن الهيثم ، وأبي الصلت أمية ، والنقاش ، والباهلي ، وأبي المجد ،

وعلم الدين قبصر ، ونصير الدين الطوسي ، مؤلفات نفيسة بعضها عديم المثال . وظهر في الأندلس عدد كبير ممن كتبوا في الموسيقى ، وأجادوا في ذلك إجازة أوصلت هذا الفن إلى درجة عالية .

فمن الذين اشتغلوا وكتبوا فيها : ابن فرناس ، والمجريطي ، والكرمانى ، وأبو الفضل ، ومحمد بن الحداد ، وابن رشد ، وابن سبعين ، والرقواطى ، وغيرهم وأنشأ عبد المؤمن مدرسة لتعليم الموسيقى وتخرج منها عدد غير قليل من العلماء الذين استطاعوا أن يتقدموا خطوات بعلم الموسيقى اشتهر منهم : شمس الدين ابن مرحوم ، ومحمد بن عيسى بن كرا ، وهناك كتب عديدة لم يذكر فيها أسماء مؤلفيها ككتاب الميزان ، وعلم الأذوار ، والأوزان ، وهو مبنى على كتاب الأذوار المتقدم ذكره ، ومقسوم إلى ستة أبواب في ماهية الموسيقى وماهية النغم المطلق والأوتار والمواجب ومعرفة الشدود والأوزان وأسماء الدساتين والارتفاع . وفي كتاب رسائل إخوان الصفا بحث في الموسيقى في الرسالة الخامسة من القسم الرياضى ، وهذه الرسالة مقسمة إلى أربعة عشر بابا تبدأ بصفحة ١٣٢ وتنتهى بصفحة ١٨٠ ، ومن يرغب الاطلاع على صناعة الموسيقى وكيفية إدراك القوة السامعة للأصوات وأصول الألحان وقوانينها وكيفية صناعة الآلات وإصلاحها ونوادر الفلاسفة في الموسيقى وتأثيرات الانغام وغيرها ؛ فليرجع إلى الكتاب المذكور ففيه بعض التفصيل .

٥

والآن تأتى إلى البصريات ، وهو من أهم البحوث التى تشغل فراغا كبيرا فى الطبيعة والتى لها اتصال وثيق بكثير من المخترعات والمكتشفات . ولا أكون مبالغا إذا قلت : إنه لولا البصريات ونتائج العرب فيها ، لما تقدم علماء الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب . ولعل « الحسن بن الهيثم » فى مقدمة الذين أضافوا إلى هذا العلم . ظهر فى أوائل القرن الخامس للهجرة « وكان عالما بالبصريات وأول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى هذا العلم . . . » . ولقد ازدهر هذا العلم فى عصر التمدن الإسلامى ازدهارا جعل الأستاذ مصطفى نظيف يقول فى مقدمة

كتابه النفيس « البصريات » ما يلي : « ... والذي جعلني أبدأ بعلم الضوء دون فروع الطبيعة الأخرى أن علما ازدهر في عصر التمدن الإسلامى وكان من أعظم مؤسسيه شأنا ورفعته أثرا : الحسن بن الهيثم الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر للميلاد ... » ويقول كتاب تراث الإسلام : « إن علم المناظر وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم ... » وله فيه كتاب اسمه (المناظر) وهو من أهم الكتب التى ظهرت فى القرون الوسطى ومن أكثرها استيفاء لبحوث الضوء (١) .

ومن كتاب المناظر يتبين أن ابن الهيثم هو الذى أضاف القسم الثانى من قانون الانعكاس ، القائل بأن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان فى مستوى واحد . أما القسم الأول من هذا القانون — وهو من وضع اليونان — فهو : زاويتا السقوط والانعكاس متساويتان ، وقد أدخل فى كتابه هذا بعض المسائل المهمة عرف بعضها باسم « مسائل ابن الهيثم » منها : إذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع الدين ، فكيف تجد على المرايا الكرية والأسطوانية النقطة التى تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها . واشتهرت هذه المسألة كثيرا فى أوروبا نظرا للصعوبات الهندسية التى تنشأ عنها ، إذ ينشأ عن حلها معادلة من الدرجة الرابعة استطاع أن يحلها ابن الهيثم باستعمال القطع الزائد . وضع مرآة مكورة من بعض حلقات كرية ، ولكل منها نصف قطر معلوم ومركز معلوم ، اختارها بحيث إن جميع الحلفات تعكس الأشعة الساقطة عليها فى نقطة واحدة ، وقاس كلا من زاويتي السقوط والانكسار ، وبين أن بطليموس كان مخطئا فى نظريته القائلة : بأن النسبة بين زاويتي السقوط والانكسار ثابتة ، وقال بأن هذه النسبة لا تكون ثابتة بل تتغير ، ولكنه مع ذلك لم يوفق إلى إيجاد القانون الحقيقى للانكسار ، وأجرى عدة تجارب لاستخراج العلاقة بين زاويتي السقوط والانكسار ، واستعمل لذلك جهازا يتركب من حلقة مدرجة من النحاس تغمر وهى فى وضع رأبى إلى نصفها فى الماء ، وكان بالحلقة ثقب صغير

(١) لقد شرح الأستاذ مصطفى نظيف فى كتاب خاص بعنوان (الحسن بن الهيثم بحوثه وكتوفه) .

وخرج فى مجلدين سنة ١٩٤٢ .

وعلى سطح الماء قرص مثقوب عند مركزه وموضوع بحيث إن مركزه ينطبق على مركز الحلقة ، وهذا يشبه الجهاز الذى نستعمله نحن فى قياس الزاويتين . وله جداول أدق من جداول بطليموس فى معاملات الانكسار لبعض المواد . وقد شرح ابن الهيثم فى كتبه بعض الظواهر الجوية التى تنشأ عن الانكسار ، فكان أسبق العلماء إلى ذلك . ومن هذه الظواهر الجوية التى ذكرها وشرحها الانكسار الفلكى : أى أن الضوء الذى يصل إلينا من الأجرام السماوية يعانى انكسارا باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض ؛ ومن ذلك ينتج انحراف فى الأشعة . ولا يخفى ما لهذا من شأن فى الرصد ، فنلا يظهر النجم على الأفق قبل أن يكون قد بلغه فعلا ، وكذلك نرى الشمس أو القمر على الأفق عند الشروق والغروب وهما فى الحقيقة يكونان تحت . ومن نتائج الانكسار لا يظهر قرص الشمس أو قرص القمر بالقرب من الأفق مستديرا بل بيضياً . هذه الظواهر وغيرها استطاع ابن الهيثم تعليلها تعليلاً صحيحاً ، واستطاع أيضاً الوقوف على أسبابها الحقيقية . ومن الحوادث الجوية التى تالمها : الهالة التى ترى حول الشمس (أو القمر) ، وقال : إن ذلك ينتج عن الانكسار حينما يكون فى الهواء بلورات صغيرة من الثلج أو الجليد ، فالنور الذى يمر فيها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة ، وحينئذ يصل النور إلى عين الراى كأنه صادر من نقط حول القمر أو الشمس فتظهر الأشعة فى دائرة حول الجرمين المذكورين أو حول أحدهما . وهو من الذين لم يأخذوا برأى اقليدس وأتباع بطليموس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين إلى الجسم المرئى ، بل أخذوا برأى ديموقريطس وأرسطوطاليس القائل بأن شعاع النور يأتى من الجسم المرئى إلى العين . وقد قال أيضاً بالرأى الأخير بعض علماء العرب المشهورين كابن سينا ، والبيرونى .

وكتب فى الزيج الكرى ، وفى تعليل الشفق ؛ وقال : إنه يظهر ويختفى عندما تهبط الشمس ١٩ درجة تحت الأفق ، وإن بعض أشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما فى الهواء من ذرات عائمة وترتد إلينا فترى بها ما انعكست عنه ؛ وبين أن الزيادة الظاهرة فى قطرى الشمس والقمر حينما

يكونان قريبين من الأفق وهمية ، وقد علل هذا الوهم تعليلاً علمياً صحيحاً ، فبناه على أن الإنسان يحكم على كبر الجسم أو صغره بشيئين : الأول الزاوية التي يبصر منها والتي يطلق عليها (Angle of Vision) أو زاوية الرؤية ، والثانية قرب الجسم أو بعده من العين . والغريب أن البعض ينسب هذا التعليل إلى بطليموس ولم يدر أن بطليموس قال : إن الزيادة حقيقية ، أي إنها غير وهمية ، وهو مناقض لقول ابن الهيثم .

وابن الهيثم أول من كتب عن أقسام العين ، وأول من رسمها بوضوح تام وبين كيف تنظر إلى الأشياء بالعينين في آن واحد ، وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئي إلى العينين ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية في عجلين متماثلين . وفوق ذلك هو أول من بين أن الصور التي تنشأ من وقوع صورة المرئي على شبكية العين تتكون بنفس الطريقة التي تتكون بها صورة جسم مرئي تمر أشعته الضوئية من ثقب في محل مظلم ، ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذي دخل منه النور ، والسطح يقابله في العين الشبكية الشديدة الإحساس بالضوء . فإذا ما وقع الضوء حدث تأثير انتقل إلى المخ ، ومن ذلك تتكون صورة الجسم المرئي في الدماغ . وله أيضاً معرفة بخصائص العدسات اللامسة والمفرقة والمرايا في تكوين الصور .

وبحث العرب في ظاهرة قوس قزح ، نجد ذلك في تأليف « قطب الدين الشيرازي » الفلكية وقد شرحها في كتابه (نهاية الإدراك) شرحاً وافياً ، هو الأول من نوعه بالنسبة للشروح التي سبقته . وكتب ابن الهيثم في المرايا المحرقة ، وله في ذلك كتاب كما لغيره من علماء العرب في القرون الوسطى . وعرف العرب هذا العلم بما يأتي : « هو علم يتعرف منه أحوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة والمنكسرة ومواقعها وزواياها ومراجعتها وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس أشعة الشمس عنها ونصبها ومحاذاتها ، ومنفعتهم بليغة في محاصرات المدن والقلاع . » وكانت بحوث ابن الهيثم في هذا العلم جليلة دقيقة دلت على إحاطته السكية ببدأ تجمع الأشعة التي تسقط على السطح

موازية للمحور بعد انعكاسها عنه ، وكذلك بمبدأ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والألوان ، وقد فاقت كتاباته في هذه البحوث كتابات اليونان . ولم يقف العرب في البحث عند هذا الحد بل تعدوه إلى البحث في سرعة النور ، فقال « البيروني » : إن سرعة النور إذا قيست بسرعة الصوت كانت عظيمة جدا . وقال « ابن سينا » : إن سرعة النور يجب أن تكون محدودة .

وجاء في سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد ما نصه : « واعلم أن الرعد والبرق يحدثان معا لكن يرى البرق قبل أن يسمع الرعد ؛ لأن الرؤية تحصل بمراعاة البصر وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ ، وذلك يتوقف على تموج الهواء وذهاب النظر (أى سير النور) أسرع من وصول الصوت » .

٦

وأخيرا نأتى إلى أثر العرب والمسلمين في المغناطيسية فنقول :
إن اليونان أول من عرف خاصية الجذب في المغناطيس ، وأن الصينيين أول من عرف خاصية الاتجاه . ولقد أخذ العرب والمسلمون هاتين الخاصتين واستعملوهما في أسفارهم البحرية . جاء في كتاب (كنز البحار) :

« ومن خواص المغناطيس أن رؤساء البحر الشامى إذا أظلم عليهم الجو ليلا ولم يروا من النجوم ما يهتدون به إلى تحديد الجهات الأربع يأخذون إناءا مملوا ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه إلى بطن السفينة ، ثم يأخذون إبرة وينفذونها في سمرة أو قشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها في الماء الذى فى الإناء فتطفو على وجهه ، ثم يأخذون حجرا من المغناطيس كبيرا مله الكف ويدنونه من وجه الماء ويحركون أيديهم دورة اليمين ، فعندها تدور الإبرة على صفحة الماء ، ثم يرفون أيديهم فى غفلة وسرعة ، فإن الإبرة تستقبل بجهتها جهة الجنوب والشمال . رأيت هذا الفعل منهم عيانا فى ركوبنا البحر من طرابلس الشام إلى اسكندرية فى سنة أربعين وستماية . وقيل إن

رؤساء مسافرى بحر الهند يتعوضون عن الإبرة والسمرة شكل سمكة من حديد رقيق مجوف مستعد عذهم يمكن أنه إذا ألقى فى ماء الإناء عام وسامت برأسه وذنبه الجهتين من الجنوب إلى الشمال

واختلف العلماء فى نسبة اختراع بيت الإبرة (البوصلة) ، فمنهم من قال إنه اختراع صينى ، وإن البحارة الصينيين استعملوها فى أسفارهم ، وإن العرب بطريقة غير معروفة اقتبسوا آلة بيت الإبرة عن البحارة الصينيين ، وإنه عن طريق المسلمين دخل هذا الاختراع أوروبا ، وقال آخرون : إن البحارة المسلمين على الأرجح هم أول من استعمل خاصية الاتجاه فى المغناطيس فى عمل الإبر فى الأسفار البحرية ، وكان ذلك فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد ، وينفى الدكتور د سارطون ، القول بأن البحارة الصينيين استعملوا خواص المغناطيس وطبقوها فى آلات للأسفار البحرية وغيرها ، وكذلك ينفى د سيدو ، كون البحارة الصينيين استعملوا الإبرة المغناطيسية فى الأسفار ويدعم قوله هذا بما يلى : « ... وكيف يظن أنهم (أى أهل الصين) استعملوا بيت الإبرة مع أنهم لم يزلوا إلى سنة ١٨٥٠ م يعتقدون أن القطب الجنوبي من الكرة الأرضية سيعير تتلظى وهو القائل بأن العرب استعملوا بيت الإبرة فى القرن الحادى عشر للميلاد فى الأسفار البحرية والبرية وفى ضبط المحارب . على كل حال يمكننا القول إن العرب عرفوا شيئا عن المغناطيس وعرفوا خاصتى الجذب والاتجاه ، وأنهم على الأرجح أول من استعملها فى الأسفار البحرية ، وأن آلة (بيت الإبرة) واستعملها فى الملاحة دخلا أوروبا عن طريق البحارة المسلمين ، وتدل بعض المخطوطات والمؤلفات القديمة على أن العرب عملوا بعض التجارب فى المغناطيسية .

يقول الأستاذ نظيف فى كتابه (علم الطبيعة ، نشوءه وتقدمه الحديث و . . .) :

« . . . ومن المحتمل كثيرا أن بعض علماء العرب أجرى بعض التجارب الأولية فى المغناطيسية كتجارب بسيطة من التغطس وفى بيان أجزاء المغناطيس مغناطيسيات كاملة »

الفصل الرابع

الرياضيات والفلك عند العرب

١

برع العرب في العلوم الرياضية وأجادوا فيها ، وأضافوا إليها إضافات هامة أثارت الإعجاب والدهشة لدى علماء الغرب ، فاعترفوا بفضل العرب وأثرهم الكبير في تقدم العلم والعمران .

لقد اطلع العرب على حساب الهنود فأخذوا عنه نظام الترقيم ، إذ أنهم رأوا أنه أفضل من النظام الشائع بينهم — نظام الترقيم على حساب الجمل — وكان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام ، هذب العرب بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين ، عرفت إحداهما بالأرقام الهندية وهي التي تستعملها هذه البلاد وأكثر الأقطار الإسلامية والعربية ، وعرفت الثانية بالأرقام الغبارية ، وقد انتشر استعمالها في بلاد الغرب والأندلس . وعن طريق الأندلس ، وبوساطة المعاملات التجارية والرحلات التي قام بها بعض علماء العرب والسفارات التي كانت بين الخلفاء وملوك بعض البلاد الأوروبية ، دخلت هذه الأرقام إلى أوروبا وعرفت فيها باسم الأرقام (Arapic Numerals) وليس المهم هنا تهذيب العرب للأرقام وتوفيقيهم في اختيار هاتين السلسلتين أو إدخالهما إلى أوروبا ، بل المهم إيجاد طريقة جديدة لها — طريقة الإحصاء العشري — واستعمال الصفر لنفس الغاية التي نستعملها الآن .

وكان الهنود يستعملون (سونيا) أو الفراغ لتدل على معنى الصفر . ثم انتقلت هذه اللفظة الهندية إلى العربية باسم (الصفر) . ومن هنا أخذها الإفرنج واستعملوها في لغاتهم ، فكان من ذلك (Cipher) و (Chiffre) ومن

الصفراء أتت الكلمة (Zephyr) و (Cipher) ثم تقلصت عن طريق الاختصار فاصبحت (Zero) . وعلى ذكر الأرقام العربية (أو الأرقام الهندية) نقول : إن لهذه الأرقام مزايا عديدة منها : أنها تقتصر على عشرة أشكال بما فيها الصفر ، ومن هذه الأشكال يمكن تركيب أى عدد مهما كان كبيرا ، في حين نجد أن الأرقام الرومانية تحتاج إلى أشكال عديدة وتشتمل على أشكال جديدة للدلالة على بعض الأعداد . أما الأرقام اليونانية والعربية القديمة القائمة على حساب الجمل فإن عددها كان بقدر عدد حروف الهجاء .

ومن مزايا الأرقام العربية (أو الهندية) : أنها تقوم على النظام العشري وعلى أساس القيم الوضعية بحيث يكون للرقم قيمتان : قيمة في نفسه ، وقيمة بالنسبة إلى المنزلة التي يقع فيها .

ولعل من أهم مزايا هذا النظام إدخال الصفر في الترقيم واستعماله في المنازل الخالية من الأرقام .

وبما لا شك فيه أن هذا النظام هو من المخترعات الأساسية والرئيسية ذات الفوائد الجلى التي توصل إليها العقل البشرى ، فلم تنحصر مزاياه في تسهيل الترقيم وحده ، بل تعدته إلى تسهيل جمع أعمال الحساب ، ولولاه لما رأينا سهولة في الأعمال الحسابية ، ولاحتاج المرء إلى استعمال طرق عويصة وملتوية لإجراء عمليتي الضرب والقسمة ، حتى إن هاتين العمليتين كانتا تقتضيان جهدا كبيرا ووقتا طويلا . ولو قدر لأحد علماء اليونان من الرياضيين أن يبعث ، فقد يعجب من كل شيء ، ولكن عجبه سيكون على أشده إذ يرى أن أكثر سكان الأقطار في أوروبا وأمريكا يتقنون عمليتي الضرب والقسمة ويجرونهما بسرعة ودون عناء .

ولسنا بحاجة إلى القول إنه لولا الصفر واستعماله في الترقيم لما فاقت الأرقام العربية والهندية غيرها من الأرقام ، ولما كان لها أية ميزة ، بل لما فضلتها الأمم المختلفة على الأنظمة الأخرى المستعملة في الترقيم .

واللصفر فوائد أخرى — هي من عظم الشأن في مكان لا يقل خطرها عن التي ألحنا إليها — فلولاها لما استطعنا أن نحل كثيرا من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات بالسهولة التي نحلها بها الآن ، ولما تقدمت فروع الرياضيات تقدمها المشهود ، وكذلك لما تقدمت المدنية هذا التقدم العجيب^(١) . ومن الغريب أن الأوربيين لم يتمكنوا من استعمال هذه الأرقام إلا بعد انقضاء قرون عديدة من اطلاعهم عليها ؛ أي أنه لم يعم استعمالها في أوروبا والعالم إلا في أواخر القرن السادس عشر للميلاد .

ومن المرجح أن العرب وضعوا علامة الكسر العشري ، ولكن الذي لا شك فيه أنهم عرفوا شيئا عنه ؛ فقد وضع بعض علمائهم (الكاشي) عند حساب النسبة التقريبية (ط) قيمتها على الشكل الآتي : ١٤١٥٩٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ٣ صحيح . ولم نستطع أن نتأكد من استعمال (الكاشي) أن العرب أول من استعمل العلامة العشرية — ولكن ما لا شك فيه أنهم كانوا يعرفون شيئا عن الكسر العشري ، وأنهم سبقوا الأوربيين في استعمال النظام العشري .

لقد وضع العرب مؤلفات كثيرة في الحساب ، وترجم الغربيون بعضها وتعلموا منها ، وكان لها أكبر الأثر في تقدمه . وقد أوضحنا هذا بشيء من التفصيل في كتابنا : « تراث العرب العلمي » .

وكان للعرب أسلوب خاص في إجراء بعض العمليات الحسابية ويذكرون لسلك منها طرقا عديدة . ومن هذه الطرق ما هو خاص بالمبتدئين وما يصح أن يتخذ وسيلة للتعليم . ولقد انتبه بعض رجال التربية في أوروبا إلى قيمة هذه الأساليب المسطورة في كتب الحساب العربية من وجهة التربية ، فأوصوا بها وباستعمالها عند تعليم المبتدئين . جاء في إحدى المجلات التربوية : « . . . وهذا ما حدا بنا إلى درس الأساليب المتنوعة المذكورة في كتب الحساب القديمة بشيء من التوسع والتعميق . وفعلا قد وجدنا بينها طرقا عديدة يحسن الاستفادة منها في التعليم . . . »

(١) يمكن لمن يريد الاطلاع على فوائد الصفر أو على أثر العرب في الحساب بصورة تفصيلية أن يرجع إلى كتابي « تراث العرب العلمي » و « كتابي بين العلم والأدب » .

ولهذا السبب أتت المجلة على بعض هذه الأساليب ودلت على فوائدها في أحد أعدادها ليستفيد منها الأساتذة والمعلمون في تدريس الحساب .

وفوق ذلك بحث العرب في الأعداد وأنواعها وخواصها ، وتوصلوا إلى نتائج طريفة فيها متاع وانفعال ، كما يظهر لنا منها أنهم استعملوا مسائل يحد فيها من يحاول حلها ما يشعذ ذهن ويقوى الفكر ؛ بحثوا في الأعداد المتحابة والمتواليات العددية والهندسية وقوانين جمعها . ومن هذه تتجلى لنا قوة الاستنباط والاستنتاج عندهم . وقد أتينا عليها في كتابنا : «تراث العرب العلمى»

٢

اشتغل العرب بالجبر وأتوا فيه بالعجب العجيب ، حتى إن (كاجورى) قال : « إن العقل ليدعش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر . . . » وهم أول من أطلق لفظة جبر على العلم المعروف الآن بهذا الاسم ، وعندهم أخذ الإفرنج هذه اللفظة (Algebra) ، وكذلك هم أول من ألف فيه بصورة علمية منظمة ، وأول من ألف فيه « محمد بن موسى الخوارزمى ، فى زمن المأمون ، وكان كتابه فى الجبر والمقابلة منهلاً نهل منه علماء العرب والغرب على السواء واعتمدوا عليه فى بحوثهم وأخذوا عنه كثيراً من النظريات . وقد أحدث هذا الكتاب أكبر الأثر فى تقدم علم الجبر والحساب « بحيث يصح القول بأن «الخوارزمى» وضع علم الجبر وعلم الحساب للناس أجمعين .. » ولقد كان من حسن حظ نهضتنا العلمية الحديثة أن قيض الله لها الأستاذ المرحوم الدكتور « على مصطفى مشرفة » ، والأستاذ الدكتور « محمد مرسى أحمد » ، فذسرا كتاب (الجبر والمقابلة للخوارزمى) عن مخطوط محفوظ بأ كسفورد فى مكتبة بودليان ، وهذا المخطوط كتب فى القاهرة بعد موت الخوارزمى بنحو ٥٠٠ سنة ، وقد علقا عليه وأوضحا ما استغلق من بحوثه وموضوعاته . ولقد سبقنا الغربيون إلى نشر هذا الكتاب ولأول مرة نشر الدكتوران الكريمان الاصل العربى (لكتاب الجبر والمقابلة المذكور) سنة ١٩٣٧ مشروحاً ومعلقاً عليه باللغة العربية . وهذه خطوة علمية نحو إحياء التراث العربى وبحث الثقافة العربية ، وأملنا وطيد فى أن يكون نشر

هذا الكتاب فاتحة لنشر غيره من الكتب والمخطوطات العربية الأخرى في مختلف نواحي المعرفة . وفي هذا خدمة جليلة من شأنها أن تربط الماضي بالحاضر وأن تقوى الدعائم التي عليها بنى كياننا .

قسم العرب المعادلات إلى ستة أقسام ووضعوا حلولاً لكل منها ، وحلوا المعادلات الحرفية واستخدموا الجذور الموجبة ، ولم يجهلوا أن المعادلة ذات الدرجة الثانية لها جذران ، كما استخرجوا جذري المعادلة إذا كانا موجبين ، وحلوا كثيراً من معادلات الدرجة الثانية بطرق هندسية ، ويدلنا على ذلك كتاب « الخوارزمي » وغيره من كتب علماء العرب في الجبر ، ووضعوا حلولاً جبرية وهندسية لمعادلات ابتدعوها مخلفة التركيب ، واستعملوا منحني نيكوميديس (Conchoid) في تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وكذلك استعملوا الطريقة المعروفة الآن في إنشاء الشكل الأهلبيجي .

واستعملوا الرموز في الأعمال الرياضية ، وسبقوا الغربيين (أمثال فيثا ، وستيفنس ، وديكارت) في هذا المضمار . ومن يتصفح مؤلفات « أبي الحسن القلصادي » يتبين له صحة ما ذهبنا إليه . فلقد استعمل لعلامة الجذر الحرف الأول من كلمة جذر (ج) ، وللمجهول الحرف الأول من كلمة شيء (ش) ، يعني (س) ، وللمربع المجهول الحرف الأول من كلمة مال (م) يعني س² ، وللمكعب المجهول الحرف الأول من كلمة كعب (ك) يعني س³ ، كما استعمل لعلامة المساواة حرف (ل) ، وللنسبة ثلاث نقط (. : .) .

ولا يخفى ما لاستعمال الرموز من أثر بليغ في تقدم الرياضيات العالية ، وحل العرب معادلات الدرجة الثالثة وقد أجادوا في ذلك وابتكروا ابتكارات قيمة هي محل إعجاب علماء أوروبا . قال كاجوري : « إن حل المعادلات التكهيدية بوساطة قطوع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب ... » ويقول (بول) : « إن « ثابت بن قرة » قد حل معادلات من الدرجة الثالثة بطرق هندسية مشابهة لطرق علماء أوروبا في القرن السادس عشر ، والسابع عشر لليلاد . فيكونون بذلك قد سبقوا ديكارت وبيكر وغيرهما في هذه

البحوث ، وحلوا بعض أوضاع للمعادلات ذات الدرجة الرابعة واكتشفوا النظرية القائلة بأن « مجموع مكعبين لا يكون مكعبا » ، وهذه أساس نظرية فرما (Fermat) .

ومن حلولهم هذه وغيرها يتبين أنهم جمعوا بين الهندسة والجبر واستخدموا الجبر في بعض الأعمال الهندسية ، كما استخدموا الهندسة لحل بعض الأعمال الجبرية ، فهم بذلك واضعوا أساس الهندسة التحليلية . ولا يخفى أن الرياضيات الحديثة تبدأ بها ، وقد ظهر ذلك بشكل تفصيلي منظم في القرن السابع عشر للميلاد ، وتبعها فروع الرياضيات بسرعة ، فنشأ علم التفاضل والتكامل (Calculus) الذي مهد له العرب ، وقد فصلنا هذه البحوث في كتابنا : « تراث العرب العلمى » . ويقول الأستاذ (كاربنسكى) في محاضرة ألقاها في نادى العلم في الكلية الأمريكية بالقاهرة في نوفمبر سنة ١٩٢٣ : « ... ويرجع الأساس في هذا كله (أى في تقدم الرياضيات وإيجاد التكامل والتفاضل) إلى المبادئ والأعمال الرياضية التى وضعها علماء اليونان ، وإلى الطرق المبتكرة التى وضعها علماء الهند . وقد أخذ العرب هذه المبادئ وتلك الأعمال والطرق ، ودرسوها وأصلحوا بعضها ثم زادوا عليها زيادات هامة تدل على نضج فى أفكارهم وخصب فى عقولهم . وبعد ذلك أصبح التراث العربى حافزا لعلماء إيطاليا وإسبانيا ، ثم لبقية بلدان أوروبا على دراسة الرياضيات والاهتمام بها . وأخيراً أتى (فيتا Viceta) ووضع مبدأ استعمال الرموز فى الجبر ، وقد وجد فيه ديكارت ما ساعده على التقدم ببحوثه فى الهندسة خطوات واسعة فاصلة مهدت السبيل إلى تقدم العلوم الرياضية وارتقاءها تقدما وارتقاء نشأ عنهما دلم الطبيعة الحديث وقامت عليهما مدينتنا الحالية . . . » .

وبحث العرب فى نظرية ذات الحدين التى بواسطتها يمكن رفع مقدار جبرى ذى حدين إلى أى قوة معلومة أسها عدد صحيح موجب . ولقد فك إقليدس مقدارا جبريا ذا حدين أسه اثنين . أما كيفية إيجاد مفكوك أى مقدار جبرى ذى حدين مرفوع إلى قوة أسها أكثر من اثنين ، فلم تظهر إلا فى جبر الخيام ،

ومع أنه لم يعط قانونا لذلك ، إلا أنه يقول إنه تمكن من إيجاد مفكوك المقدار الجبرى ذى الحدين حينما تكون قوته مرفوعة إلى الأسس ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ أو أكثر بواسطة قانون اكتشفه هو . . . ، والذي أرجحه أن الخيام وجد قانونا لفك أى مقدار جبرى ذى حدين أسه أى عدد صحيح موجب ، وأن القانون لم يصل إلى أيدي العلماء ، ولعله في أحد كتبه المفقودة . وقد ترجم ونشر العالم (وبكة) كتاب الخيام في الجبر في منتصف القرن التاسع عشر للميلاد . واشتغل العرب في براهين النظريات المختصة بإيجاد مجموع مربعات ومكعبات الأعداد الطبيعية التى عددها (٥) ، كما أوجدوا قانونا لإيجاد مجموع الأعداد الطبيعية المرفوع كل منها إلى القوة الرابعة ، وعنوا بالجدور الصماء ، وقطعوا في ذلك شوطا . ووجدوا طرقا لإيجاد القيم التقريبية للأعداد والكميات التى لا يمكن استخراج جذورها ، واستعملوا في ذلك طرقا جبرية تدل على قوة الفكر وسعة العقل ووقوف تام على علم الجبر . ويعتقد جنتر (Gunther) أن بعض هذه العمليات لإيجاد القيم التقريبية أبانت طرقا لبيان الجدور الصماء بكمور متسلسلة . وقد يعجب القارىء إذا قلنا إنه وجد في الأمة العربية من مهد لاكتشاف اللوغاريتمات ، وقد يكون هذا رأى موضع دهشة واستغراب ، وقد لا يشاركني فيه بعض الباحثين ، وسندكر هنا خلاصة ما توصلنا إليه في هذا الشأن ، وقد سبق أن نشرنا عنه تفصيلا في مقتطف أبريل سنة ١٩٣٥ ، وفي كتاب : « تراث العرب العلمى » عند البحث في ابن حمزة البغرى وآثره العلمية . ومن الغريب أن نجد في أقوال بعض علماء الافرنج ما يشير إلى عدم وجود بحوث أو مؤلفات مهدت السبيل إلى اختراع اللوغاريتمات الذى شاع استعماله عن طريق (نابيير) . قال اللورد (مولتون Moulton) : « إن اختراع اللوغاريتمات لم يمهده له وإن فكرة الرياضى (نابيير) في هذا البحث جديدة لم تتركز على بحوث سابقة لعلماء الرياضيات ، وقد أتى هذا الرياضى بها دون الاستعانة بمجموعات غيره . . » هذا ما يقوله اللورد مولتون ، والآن نورد ما يقوله العلامة (سمث) في كتابه : تاريخ الرياضيات : « كانت غاية نابيير لتسهيل عمليات الضرب التى تحتوى على الجيوب . ومن المحتمل أن المعادلة :

جاس جاص = $\frac{1}{2}$ جتا (س - ص) - $\frac{1}{2}$ جتا (س + ص) هي التي أوحت اختراع اللوغاريتمات ...
« وابن يونس » أول من توصل إلى القانون الآتي في المثلثات الكروية :
جتا س جتا ص = $\frac{1}{2}$ جتا (س + ص) + $\frac{1}{2}$ جتا (س - ص) .
ويقول العلامة الشهير (سوتر) : « وكان لهذا القانون أهمية كبرى قبل اكتشاف اللوغاريتمات عند علماء الفلك في تحويل العمليات المعقدة (الضرب) العوامل المقدرة بالكسور الستينية في حساب المثلثات إلى عمليات (جمع) ... »
يتبين مما مر أن فكرة تسهيل الأعمال المعقدة التي تحتوى على الضرب واستعمال الجمع بدلا منه ، قد وجدت عند بعض علماء العرب قبل (نابيير) .
وزيادة على ذلك فقد ثبت لنا من البحث في مآثر ابن حمزة المغربي ، ومن بحوثه في المتواليات العددية والهندسية ، أنه قد مهد السبيل للذين أتوا بعده في إيجاد اللوغاريتمات .

والحقيقة أنه ما دار بخلدنى أنى سأجد بحوثاً لعالم عربى كابن حمزة هي في حد ذاتها الأساس والخطوة الأولى في وضع أصول اللوغاريتمات . وقد يقول البعض : إن (نابيير) لم يطالع على هذه البحوث ولم يقتبس منها شيئاً . ذلك جائز ، ولكن أليست بحوث ابن حمزة في المتواليات تعطى فكرة عن مدى التقدم الذى وصل إليه العقل العربى في ميادين العلوم الرياضية ؟ أليست هذه البحوث هي طرقاً مهيأة لأساس اللوغاريتمات .

٣

أخذ اليونان الهندسة عن الأمم التي سبقتهم ، وقد درسوها درساً علمياً ثم أضافوا إليها إضافات هامة وكثيرة جعلت الهندسة علماً يونانياً ، وأول من كتب منهم فيها إقليدس ، وقد عرف كتابه بـ « كتاب إقليدس » . وفي هذا الكتاب قسم إقليدس الهندسة إلى خمسة أقسام رئيسية ، ووضع قضاياه على أساس منطقي عجيب لم يسبق إليه ؛ جعل (الكتاب) المعتمد الوحيد الذى يرجع إليه كل من يريد وضع تأليف في الهندسة ، وما الهندسة التي تدرسها الآن

المدارس في مختلف الأنحاء إلا هندسة إقليدس مع تحويل بسيط في الإشارات وترتيب النظريات ونظام التمارين .

جاء العرب وأخذوا كتاب إقليدس وترجموه إلى لغتهم وتفهموه جيداً ، وزضعوا بعض أعمال عويصة وتفنتوا في حلوها . ويقول « ابن القفطي » عن كتاب إقليدس : « ... وسماه الإسلاميون (الأصول) : وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع أصل في هذا النوع ، لم يكن لليونان قبله كتاب جامع في هذا الشأن ولا جاء بعده إلا من دار حوله وقال قوله . وما في القوم إلا من سلم إلى فضله وشهد بغزير نيله ... » وقال « ابن خلدون » في مقدمته : « ... والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة (الهندسة) كتاب إقليدس ، ويسمى كتاب الأصول ، أو كتاب الأركان : وهو أبسط ما وضع للمتعلين وأول ما ترجم من كتب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ، ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين : فمنها الحنين بن اسحاق ، ولأتاب بن قرة ، وليوسف ابن الحجاج ؛ ويشتمل على خمس عشرة مقالة : أربع في السطوح ، وواحدة في الأقدار المتناسبة ، وأخرى في نسب السطوح بعضها إلى بعض ، وثلاث في الحد ، والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجذور . وخمس في المجسمات ، وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة ، كما فعل ابن سينا في تعاليم الشفاء وأفرد له جزءاً اختصه به ، وكذلك ابن الصلت في كتاب الاختصار ، وغيرهم . وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق ... »

وألف العرب كتباً على نسقه وأدخلوا فيها قضايا جديدة لم يعرفها القدماء ، فقد وضع « ابن الهيثم » كتاباً من هذا الطراز « يستحق أن يعتبر واسطة بين كتاب القواعد المفروضة والبراهين الاستقرائية لإقليدس ، وكتاب المحال المستوية السطوح لأبولونيوس ، وبين كتابي سمسون (Simson) ، وستوارت (Stewart) ، فإنه يمثل تلك الكتب كمال الهندسة الابتدائية المعدة لتسهيل حل الدعاوى النظرية ... »

ويعترف « ابن القفطى » بفضل « ابن الهيثم » فى الهندسة : « أنه صاحب التصانيف والآليف فى علم الهندسة ، كان عالما بهذا الشأن ، متقنا له متقننا فيه قيا بغوامضه ومعانيه ، مشاركا فى علوم الأوائل ، أخذ عنه الناس واستفادوا ... »

وألف « محمد البغدادى » رسالة موضوعها : تقسيم أى مستقيم إلى أجزاء متناسبة مع أعداد مفروضة برسم مستقيم ، هى اثنتان وعشرون فرضية ؛ سبع فى المثلث ، وتسع فى المربع ، وست فى الخمس .

ولقد طبق العرب الهندسة على المنطق وألف « ابن الهيثم » كتابا فى ذلك يقول عنه : « ... كتابا جمعت فيه الأصول الهندسية والعديد من كتاب إقليدس وأبولونيوس ، ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها براهين نظمتهما من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالى إقليدس وأبولونيوس .. » وكذلك وضع « ابن الهيثم » كتابا طابق فيه بين الأبنية والحفور على الأشكال الهندسية ، وفى ذلك يقول : « مقالة فى إجازات الحفور والأبنية طابقت فيها جميع الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية حتى بلغت فى ذلك إلى أشكال قطوع المخروط الثلاثة : المكافئ والزائد والناقص ... » وللعرب مؤلفات كثيرة فى المساحات ، والحجوم ، وتحليل المسائل الهندسية ، واستخراج المسائل الحسابية بجمتى التحليل الهندسى والتقدير العددى وفى التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للمتعلين ، وفى موضوعات أخرى : كتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية ، ورسم المضلعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبرية ، وفى محيط الدائرة ، وغير ذلك مما يتعلق بالموضوعات التى تحتاج إلى استعمال الهندسة .

وبينوا كيفية إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ، وقد أوجدوا تلك النسبة إلى درجة كبيرة من التقريب كانت محل إعجاب العلماء . ولقد حسبها الكاشى فكانت ٣٠٨٩٨٧٣٢ ٥٨٩٣٥٣٦٥٩٢٦١٥٩١٤٣ ولم نستطع أن نتأكد من استعمال علامة الكسر العشرى (الفاصلة) ، ولكن لدى البحث تبين أنه وضعها على الشكل الآتى :

صحيح
١٤١٥٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ٣ وهذا الوضع يشير إلى أن المسلمين في زمن الكاشي كانوا يعرفون شيئا عن الكسر العشري ، وأنهم بذلك سبقوا الأوروبيين في استعمال النظام العشري .

وقد يستغرب القارىء إذا علم أن الأوروبيين لم يعرفوا الهندسة إلا عن طريق العرب . فالتد وجد أحد علماء الانجليز في أوائل هذا القرن (حوالى سنة ١٩١٠) مقالين هندسيين قديمين في مكتبة وستر: الأولى كتبها (جربرت) الذى صار بابا سنة ١٩١٩ باسم : البابا سلسفتر الثانى ، ولم يكن كتاب اقليدس فى الهندسة معروفا حينئذ إلا فى العربية ، والثانية يرجع تاريخها إلى أوائل القرن الثانى عشر للميلاد وكانت رابع اسمها (ادلارد أف باث Adelard of Bath) وكان قد تعلم العربية ودرس فى مدارس غرناطة وقرطبة وأشبيلية ، والمقالان باللاتينية من نسخة ترجمت عن ترجمة اقليدس العربية ، وبقيت هذه الترجمة تدرس فى جميع مدارس أوروبا إلى سنة ١٨٥٣ م . حينما كشف أصل هندسة اقليدس اليونانى .

٤

لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الان . فالهم يرجع الفضل الأكبر فى وضعه بشكل علمى منظم مستقل عن الفلك وفى الإضافات الأساسية الهامة التى جعلت الكثيرين يعتبرونه علما عربيا كما اعتبروا الهندسة علما يونانيا . ولا يخفى ما لهذا العلم (المثلثات) من أثر فى الاختراع والاستكشاف ، وفى تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والصناعية . استعمل العرب (الجيب) بدلا من وتر ضعف القوس الذى كان يستعمله اليونان . ولهذا أهمية كبرى فى تسهيل حلول الأعمال الرياضية ، وهم أول من أدخل المماس فى عداد النسب المثلثية . وقد قال البيرونى : « إن السبق فى استنباط هذا الشكل (شكل الظل أو ما نسميه بالمماس) لأبى الوفاء بلا تنازع من غيره . . . »
وبرهنوا على أن نسبة جيوب الأضلاع بعضها إلى بعض كنسبة جيوب الزوايا الموترة بتلك الأضلاع بعضها إلى بعض فى أى مثلث كروى ، واستعملوا

المماسات والقواطع ونظائرهما في قياس الزوايا والمثلثات . ويعترف العلامة (سوتر) بأن لهم الفضل الأكبر في إدخالها إلى حساب المثلثات ، وعملوا الجداول الرياضية للمماس وتمامه والقاطع وتمامه ، وأوجدوا طريقة لعمل الجداول الرياضية للجيب . ويدين (للعرب) الغريون بطريقة حساب جيب ٣٠ دقيقة حيث تتفق نتائجها فيها إلى ثمانية أرقام عشرية مع القيمة الحقيقية لذلك الجيب . واكتشفوا العلاقة بين الجيب والمماس والقاطع ونظائرهما ، وتوصلوا إلى معرفة القاعدة الأساسية لمساحة المثلثات الكروية ، كما اكتشفوا القانون الخامس من القوانين الستة التي تستعمل في حل المثلث الكروي القائم الزاوية ، وألف « ابن الأفلح » تسعة كتب في الفلك : يبحث أولها في المثلثات الكروية ، وكان له أثر بليغ على المثلثات وتقدمها ، واخترع العرب حساب الأقواس التي تسهل قوانين التقويم وترجح من استخراج الجذور المربعة . واطلع بعض علماء الأفرنج في القرن الخامس عشر لليلاد على مآثر العرب في المثلثات ونقلوها إلى لغاتهم . ولعل أول من أدخلها ريجيومو تانوس (De Triangntus) وقد ألف فيها وفي غيرها من العلوم الرياضية ، وكان أهمها كتاب المثلثات (Rehiomontanas) ، وهذا الكتاب ينقسم إلى خمسة فصول كبيرة : أربعة منها تبحث في المثلثات المستوية ، والخامس في المثلثات الكروية . ولئن ادعى بعضهم : أن كل محتويات هذا الكتاب هي من مستنبطاته ، فهذا غير صحيح ؛ لأن الأصول التي اتبعها (ريجيومو تانوس) في الفصل الخامس ، هي بعينها الأصول التي اتبعها العرب في الموضوع نفسه في القرن الرابع للهجرة . هذا ما توصل إليه العالم المحقق الرياضى : « صالح زكى » بعد دراسة مؤلفات ريجيومو تانوس ، وأبى الوفاء .

وما يزيدنا اعتقاداً بهذا كله : اعتراف (كاجورى) بأن هناك أموراً كثيرة ، وبحوثاً عديدة في علم المثلثات كانت منسوبة إلى ريجيومو تانوس . ثبت أنها من وضع المسلمين والعرب وأنهم سبقوه إليها ، وكذلك وجد غير كاجورى (أمثال سميث ، وسارطون ، وسيديو ، وسوتر) من اعترفوا بأن

بعضاً من النظريات والبحوث نسبت في أول الأمر إلى ريجيومونتانوس وغيره ، ثم ظهر بعد البحث والاستقصاء خلاف ذلك .

وظهر عام ١٩٣٦ م في مجلة " نيتشر (Nature) عدد ٣٤٥٣ ، مقال بقلم (إدجر سميث Edgar C. Smith) تناول فيه البحث عن نوابع الأدباء والعلماء الذين ولدوا في الأعوام ١٥٣٦ ، ١٦٣٦ ، ١٧٣٦ ، ١٨٣٦ بمناسبة حلول عام ١٩٣٦ . وقد جاء في هذا المقال : " بأن ريجيومونتانوس ألف في الرياضيات ، وأن كتاب المثلثات هو أول ثمرة من ثماره ومجهوداته في المثلثات على نوعها المستوية والكروية ، كما أنه أول كتاب بحث فيها بصورة منظمة علمية " وقد علقنا حينئذ على هذه الأقوال وقلنا إن ما ورد فيها غير صحيح وإن ريجيومونتانوس اعتمد على كتب العرب والمسلمين ، ونقل عنهم كثيراً من البحوث الرياضية سيما فيما يتعلق بالمثلثات (كما مر معنا) ، وأن هناك من علماء العرب من سبقه إلى وضع كتب في المثلثات (ككتاب شكل القطاع للطوسي) بشكل علم منظم .

٥

لم يعرف العرب قبل العصر العباسي شيئاً يذكر عن الفلك ، اللهم إلا فيما يتعلق برصد بعض الكواكب والنجوم الزاهرة ، وحركاتها وأحكامها بالنظر إلى الخسوف والكسوف ، وبملاقاتها بحوادث العالم من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم والمطر والظواهر الطبيعية . وكانوا يسمون هذا العلم الذي يبحث في مثل هذه الأمور : علم التنجيم . ومع أن الدين الإسلامي قد بين فساد الاعتقاد بالتنجيم وعلاقته بما يجري على الأرض ، إلا أن ذلك لم يمنع الخلفاء ولا سيما العباسيين في بادئ الأمر ، أن يعنوا به ، وأن يستشيروا المنجمين في كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية ، فإذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين ، فينظرون في حال الفلك واقرانات الكواكب ، ثم يسيرون على مقتضى ذلك ، وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، ويرافبون النجوم ويعملون بأحكامها قبل الشروع في أي عمل حتى الطعام

والزيارة . . . ، وما لا شك فيه أن علم الفلك تقدم تقدما كبيرا في العصر العباسي كغيره من فروع المعرفة ، وقد كانت بعض مسائله بما يطالب بمعرفة المسلم ؛ كأوقات الصلاة ، ومواقع بعض البلدان المقدسة ، ووقت ظهور هلال رمضان ، وغيره من الأشهر ، أضف إلى ذلك شغف الناس بعلم التنجيم . كل هذه ساعدت على الاهتمام بالفلك والتعمق فيه تعمقا أدى إلى الجمع بين مذاهب اليونان ، والكلدان ، والهنود ، والسريان ، والفرس ، وإلى إضافات هامة لولاها لما أصبح علم الفلك على ما هو عليه الآن .

قد يستغرب القارىء إذا علم أن أول كتاب في الفلك والنجوم ترجم عن اليونانية إلى العربية لم يكن في العهد العباسي ، بل كان في زمن الأمويين قبل اقتراض دولتهم في دمشق بسبع سنين . ويرجع الباحثون أن الكتاب هو ترجمة لكتاب عرض مفتاح النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم . والكتاب المذكور موضوع على تحاويل سنى العالم وما فيها من الأحكام النجومية . وأول من عنى بالفلك وقرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، أبو جعفر المنصور ، ؛ الخليفة العباسي الثاني ، وبلغ شغفه بالفلك درجة جماعته يصطحب معه دائما نوبخت الفارسي . ويقال إن هذا لما ضعف عن خدمة الخليفة أمره المنصور بإحضار ولده ليقوم مقامه ، فسير إليه ولده أبا سهل بن « نوبخت » . وكان في حاشية المنصور غير أبي سهل من المنجمين أمثال إبراهيم الفزارى ، وابنه محمد ، وعلي بن عيسى الأسطرلابي ، وغيرهم .

والمنصور هو الذى أمر أن ينقل كتاب في حركات النجوم مع تعاديل معمولة على كروجات محسوبة لنصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك من الكسوفين ومطالع البروج وغير ذلك ، وهذا الكتاب عرضه عليه رجل قدم سنة ١٥٦ هـ من الهند فى حساب السندهنتا ، وقد كلف المنصور محمد بن إبراهيم الفزارى بترجمته وبعمل كتاب فى العربية يتخذ العرب أصلا فى حركات الكواكب . وقد سماه المنجمون كتاب : « السند هند الكبير » ، الذى بقى معمولاً به إلى أيام المأمون ، وقد اختصره « الخوارزمى » ، ووضع منه زيجاً الذى اشتهر

في كل البلاد الإسلامية ، وعول فيه على أوساط السند هند وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذهب الفرس ، وميل الشمس فيه على مذهب بطليموس . واخترع فيه من أنواع التقريب أبواباً حسنة ، وقد استحسنته أهل ذلك الزمان وطاروا به في الآفاق . . . وفي القرن الرابع للهجرة حول مسألة ابن أحمد المجريطي الحساب الفارسي إلى الحساب العربي .

واقدر اذ اهتم الناس بعلم الفلك ، وزادت رغبة المنصور فيه ، فشجع المترجمين والعلماء وأغدق عليهم العطايا وأحاطهم بضروب من الرعاية والعناية . وفي مدة خلافته نقل ، أبو يحيى البطريق ، كتاب الأربع مقالات لبطليموس في صناعة أحكام النجوم ، ونقلت كتب أخرى هندسية وطبيعية أرسل المنصور في طلبها من ملك الروم . واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين أتوا بعده في نشر العلوم وتشجيع المشتغلين فيها ؛ فلقد ترجم المشتغلون بالفلك ما عثروا عليه من كتب ومخطوطات للأهم التي سبقتهم وصححوها كثيراً من أغلاطها وأضافوا إليها ، وفي زمن المهدي والرشد اشتهر في الأرصاد علماء كثيرون ؛ أمثال (ما شاء الله) الذي ألف في الاسطرلاب ودائرته النحاسية ، وأحمد بن محمد النهاوندي . وفي زمن المأمون ألف يحيى بن أبي منصور زيجاً فلكياً مع سند بن علي ، وهذا أيضاً عمل أرساداً مع علي بن عيسى وعلي بن البحري ، وفي زمنه أيضاً أصلحت غلطات المجسطي لبطليموس ، وألف موسى بن شاكر أزياجه المشهورة ، وكذلك عمل أحمد بن عبد الله بن حبش ثلاثة أزياج في حركات الكواكب ، واشتغل بنو موسى في حساب طول درجة من خط النهار بناء على أمر المأمون . وفي ذلك الزمن وبعده ظهر علماء كثيرون لا يتسع المجال لسرد أسمائهم جميعاً ، وهؤلاء ألفوا في الفلك وعملوا أرساداً وأزياجاً جليلة أدت إلى تقدم علم الفلك ، أمثال ؛ ثابت بن قرة ، والمهاني ، والبناني . الذي عده (لالاند) من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله ، والكندي ، والبوزجاني ، وابن يونس ، والصاغاني والكوهي ، وجابر بن الأفلح ، والمجريطي ، والبيروني ، والخازن ، وابن الهيثم والطوسي . وغيرهم . وقد وردت مآثر هؤلاء في كتاب : «تراث العرب العلي» .

والآن نأتى إلى مآثر العرب فى الفلك فنقول :
بعد أن نقل العرب المؤلفات الفلكية للأمم التى سبقتهم صححوا بعضها
ونقحوا البعض الآخر وزادوا عليها ، ولم يقفوا فى علم الفلك عند حد للنظريات
بل خرجوا إلى العمليات والرصد ؛ فهم أول من أوجد بطريقة علمية طول
درجة من خط نصف النهار ، وأول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة
وقالوا باستدارة الأرض وبدورانها على محورها ، وعملوا الأزياج الكثيرة
العظيمة النفع ، وهم الذين ضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها فى
أفلاك آخر . واختلف علماء الغرب فى نسبة اكتشاف بعض أنواع الخلل فى
حركة القمر إلى البوزجاني أو (تيخوبراهي) ؛ ولكن ظهر حديثاً أن
اكتشاف هذا الخلل يرجع إلى « أبى الوفاء » لا إلى غيرها ، وزعم الفرنجة أن
آلة الاسطرلاب هى من مخترعات تيخوبراهي المذكور مع أن هذه الآلة والريج
ذا الثقب كانا موجودين قبله فى مرصد المراغة الذى أنشأه العرب . وهم
(أى العرب) الذين حسبوا الحركة المتوسطة للشمس فى السنة الفارسية .
وحسب البتاني ميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجده ٢٣ درجة
و ٣٥ دقيقة . وظهر حديثاً أنه أصاب فى زصده إلى حد دقيقة واحدة ، ودقق
فى حساب طول السنة الشمسية ، وأخطأ فى حسابه بمقدار دقيقتين و ٢٢ ثانية .
والبتاني من الذين حققوا مواقع كثير من النجوم وقال بعض علماء العرب
بانتقال نقطة الرأس والذنب للأرض ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي
وكتبوا عن كلف الشمس وعرفوها قبل أوروبا . وانتقد أحدهم وهو أبو محمد
جابر بن الأفلح (المجسطي) فى كتابه المعروف بكتاب إصلاح المجسطي . وكان
جابر يسكن فى أشبيلية فى أواسط القرن السادس للهجرة ، وقد دعم انتقاده
عالم آخر أندلسي هو نور الدين أبو اسحق البطروجي الأشبيلي فى كتابه الهيئة ؛
الذى يشتمل على مذهب حركات الفلك الجديد ، ويقول الدكتور (سارطون)
إنه على الرغم من نقص هذه المذاهب الجديدة فإنها مفيدة جداً ومهمة جداً .
لأنها سهلت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى التى لم يكمل نموها قبل القرن
العاشر ، وأوحت بحوثهم الفلكية لكبار « أن يكتشف الحكم الأول من
أحكامه الثلاثة الشهيرة ، وهى اهليلجية فلك السيارات . . . »

ولهم جداول دقيقة لبعض النجوم الثوابت ، فقد وضع « الصوفي » مؤلفا فيها ، وعمل لها الخرائط المصورة جمع فيها أكثر من ألف نجم ورسمها كوكبات في صورة الأناسي والحيوان ، وأثبت البتاني النجوم الثوابت لسنة ٢٩٩ هـ ، ولهذه وغيرها من الجداول شأن عند علماء الفلك — في هذا العصر — إذ لا يستغنون عنها عند البحث في تاريخ بعض الكواكب ومواقعها وحركاتها :

ولقد وجدت في أحد الكتب الفلكية « يسائط علم الفلك للدكتور صروف » أن خمسين في المائة من أسماء النجوم الموجودة فيه هي من وضع العرب ومستعملة بلفظها العربي في اللغات الإفريقية ، وبلغت شدة ولوع العرب والمسلمين بهذا العلم درجة جعلت بعضهم « يصنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظرين فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود . . . » .

وأخيراً نقول إن العرب عندما تعمقوا في درس علم الهيئة « طهروه من أدران التنجيم والخزعبلات ، وأرجعوه إلى ما تركه علماء اليونان علماء رياضيات مبنيا على الرصد والحساب ، وعلى فروض تفرض لتعليل ما يرى من الحركات والظواهر الفلكية . . . » .

ولا شك أن العرب لم يصلوا بعلم الفلك إلى ما وصلوا إليه إلا بفضل المراصد ، وقد كانت هذه نادرة جدا قبل النهضة العلمية العباسية ، وقد يكون اليونان أول من رصد الكواكب بالآلات ، وقد يكون مرصد الإسكندرية الذي أنشئ في القرن الثالث قبل الميلاد هو أول مرصد كتب عنه . ويقال إن الأمويين ابتنوا مرصدا في دمشق . ولكن الثابت أن المأمون أول من أشار باستعمال الآلات في الرصد ، وقد ابتنى مرصدين على جبل قيسون في دمشق وفي الشامية في بغداد . وفي مدة خلافته وبعد وفاته أنشئت عدة مراصد في أنحاء مختلفة من البلاد الإسلامية ، فلقد ابتنى بنو موسى مرصدا في بغداد على طرف الجسر وفيه استخرجوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر ، وبني شرف الدولة أيضا مرصدا في بستان دار المملكة . ويقال إن

« الكوهى » رصد فيه الكواكب السبعة ، وأنشأ الفاطميون على جبل المقطم مرصدا عرف باسم المرصد الحاكى ، وكذلك أنشأ بنو الأعم مرصدا عرف باسمهم ، ولعل مرصد المراقبة الذى بناه « نصير الدين الطوسى » من أشهر المراصد وأكبرها ، واشتهر بآلاته الدقيقة وتقوم المشتغلين فيه ، وقد قال « الطوسى » عنهم فى زيج الأيلخانى : « إني جمعت لبناء المرصد جماعة من الحكماء منهم : المؤيد العرسى ، والفخر المراغى الذى كان بالموصل ، والفخر الخلاطى الذى كان بتفليس ، ونجم الدين بن دويران القزوينى ، وقد ابتدأنا فى بنائه سنة ٦٥٧ هـ . بمراغة . . . » واشتهرت أرصاد هذا المرصد بالدقة ، حتى لقد اعتمد عليها علماء أوروبا فى عصر النهضة وما بعده فى بحوثهم الفلكية .

ويوجد عدا هذه مراصد أخرى فى مختلف الأنحاء ؛ كمرصد ابن الشاطر بالشام ، ومرصد الدينورى بأصبهان ، ومرصد البيرونى ، ومرصد أولوغ بيك بسمرقند ، ومرصد البتاني بالشام ، ومراصد غيرها كثيرة — خصوصية وعمومية — فى مصر والاندلس وأصبهان .

وكان للرصد آلات ، وهى على أنواع ، وتختلف بحسب الغرض منها . وهناك أسماء بعضها : اللبنة ، والحلقة الاعتدالية ، وذات الأوتار ، وذات الحلق ؛ وهى خمس دوائر متخذة من نحاس (الأولى دائرة نصف النهار وهى مركوزة على الأرض ، ودائرة معدل النهار ، ودائرة منطقة البروج ، ودائرة العرض ، ودائرة الميل) ، وذات السميت والارتفاع ، والآلة الشاملة ، وذات الشعبتين ، وذات الجيب ، وذات المشتبهة بالنطاق ، والاسطوانات وأنواعه المتعددة ، وقد اعترف الأفرنج بأن العرب أتقنوا صنعة هذه الآلات ، وثبت أن الاسطرلاب ، ذات السميت ، والارتفاع ، والآلة الشاملة ، والرقاص ، وذات الأوتار ، والمشتبهة بالنطاق ، وكل هذه من مخترعات العرب عدا ما اخترعوه من البراكير ، والمساطر ، وعدا التحسينات التى أدخلوها على كثير من آلات الرصد المعروفة لليونان .

وفى هذه المراصد أجرى المسلمون أرصادا كثيرة ووضعوا الأزياج القيمة الدقيقة ، وعلى ذكر الأزياج نقول إن مفردا زيج وهو عند العرب « ... صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه

برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأى وقت فرض من قبل حسابان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة . ول هذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية ، وأصول متقررة في معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى بالآزياج

ومن أشهر الأزياج : زيج « ابراهيم الفزارى » ، وزيج « الخوارزمى » ، وزيج « البتاني » ، وأزياج « المأمون » ، و « ابن السمع » ، و « ابن الشاطر » ، و « أبى حماد الأندلسى » ، و « ابن يونس » ، و « أبى حنيفة الدينورى » ، و « أبى معشر البلخى » ، و « الأيلخانى » ، و « عبد الله المروزى البغدادى » ، و « الصغانى » ، والشامل « لأبى الوفاء » ، والشاهى « لنصير الدين الطوسى » ، و « شمس الدين » ، و « ملكشاهى » ، والمقتبس « لأبى العباس أحمد » ابن يوسف ابن الكجاد .

وبالجملة فإن للعرب فضلا كبيرا على الفلك :

(أولا) لأن العرب نقلوا الكتب الفلكية عن اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان وصححوا بعض أغلاطها وتوسعوا فيها . وهذا عمل جليل جدا — لا سيما — إذا عرفنا أن أصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها فى اللغة العربية ، وهذا طبعها ما جعل الأوروبيين يأخذون هذا العلم عن العرب ، فكانوا (أى العرب) بذلك أساتذة العالم فيه .

(ثانيا) فى إضافاتهم الهامة واكتشافاتهم الجليلة التى تقدمت بعلم الفلك شوطا بعيدا .

(ثالثا) فى جعلهم علم الفلك استقرايا وفى عدم وقوفهم فيه عند حد النظريات .

(رابعا) فى تطهير علم الفلك من أدران التنجيم .

ويمكن لمن يريد التوسع فى الاطلاع على ماثر العرب فى الفلك والرياضيات ، أن يرجع إلى كتابنا تراث العرب العلمى ؛ ففيه تفصيلات وافية مثقلة بالأرقام والمعادلات والأشكال .

البفصل الخامس

الجغرافيا عند العرب

١

للعرب فضل فى علم الجغرافيا وتقدمها ، فهم بعد أن نقلوا عن اليونان وغيرهم الكتب الجغرافية وتوسعوا فى مباحثها ، وزادوا عليها ما شاهدوه أثناء خوضهم البحار وارتياهم الاقطار . ولقد صححوا كثيرا من أغلاط بطليموس ، وامتازوا على الرومان بكونهم عرفوا الصين وتوغلوا فيها وفى إفريقيا أيضا . فدخلوا الصحراء إلى بلاد السودان .

ومنهم من ركب عدة من البحار كبحر الصين ، والروم وأصابه فيها من الأهوال ما لا يحصى كثرة

وحكى « الإدريسى » أنه فى القرن الرابع « . . . خرج جماعة من لشبونة كلهم أبناء عم وأنشأوا مركبا وتزودوا فيه ، ثم ركبوا بحر الظلمات واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب وليعرفوا إلى أين انتهاؤه

ويظهر أنهم وصلوا إلى أمريكا « . . . لأن نهاية بحر الظلمات هذا . . . وهو المحيط الأطلنطى

وكان المقدسى يرى فى علم الجغرافيا « علما لا بد منه للتاجر ، والمسافر ، والملك ، والكبراء ، والقضاة ، والفقهاء

والعرب بحكم فتوحاتهم ولعوامل تتصل بالتجارة وطلب العلم والحج ، وجهوا الكثير من عنايتهم لعلم الجغرافيا ، واتصلوا بالعالم الخارجى . وقد أثبتوا أنهم « . . . مرنون قابلون لمسيرة الحضارات المختلفة وأقلتها أنهم أذكاء ذوو حيوية وخيال فسيح وكانوا على غاية من النشاط وحسن

الرحلات كونوا علائق تجارية في أقصى الأرض ، فكونوا علائق بالصين وبعض البقاع الروسية وبعض مجاهل إفريقيا . ولم تمنعهم صعوبة المواصلات وسوء الاستعدادات من الرحلات إلى أقصى البلاد

لقد وضع العرب مؤلفات قيمة في الجغرافيا فأبدعوا فيها ، وقد زانوها بالخرائط وأوضحوها بالأشكال . وحسبهم غفرا أنهم ربطوا الجغرافيا بالفلك ، فسبقوا في هذا العلماء المحدثين . وهم كذلك أول من وضع أصول الرسم على سطح الكرة ، وأول من أوجد بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار . وسأتى على شرحها في صفحات تالية .

ولقد ظهر في العرب جغرافيون عالميون وضعوا من المؤلفات ما زاد في ثروة البشر العلمية زيادات أدت إلى تقدم الجغرافيا خطوات فاصلات . من هؤلاء « ياقوت » الذي وضع معجما جغرافيا فريدا في بابيه سماه (معجم البلدان) لا يزال المعتمد عند الباحثين ومرجعهم . وقد قال عنه سارطون : « . . . إن كتاب معجم البلدان هو معجم لعلم الجغرافيا وهو منجم غني جداً للمعرفة ، وليس له من نظير في سائر اللغات »

أما « أبو الفداء » أمير حماة ، فقد صنف كتابا في تقويم البلدان وبحث في مقدمته في الجغرافيا الرياضية والبحور والأنهار والجبال الشهيرة ، وأطال في وصف الأرض ونهج فيه بحسب مواقع البلدان من المناطق ، ودرجات الطول والعرض ذاكرا كل مملكة مستقلة في باب خاص . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية في القرن الثامن عشر للبلاد ، وظهر « الأدرسي » في القرن الثاني عشر للبلاد ، وكان من أنبغ علماء عصره . ألف كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) لروجر ملك صقلية ورتبة على الأقاليم السبعة ، وأورد فيه أوصاف البلاد والممالك تفصيلا . وعمل لروجر خارطة على كرة مسطحة من الفضة ورسم عليها الأقاليم والاقطار التي كانت معروفة في زمانه . ولقد استرعى « الأدرسي » انتباه علماء الإفرنج أكثر من غيره ، لأنه كان حلقة الاتصال بين جغرافية الإسلام وجغرافية الإفرنج : ويقول كتاب :

« تراث الإسلام » : « .. إن طلب الملك روجر ملك صقلية عمل كتاب جغرافيا ورسم خرائط من عالم مسلم لما يدل على أن تفوق المسلمين العلمى كان معترفا به في ذلك العهد » .

ومما يدل على فضل العرب ، أن الخرائط التي عملها الفريوني في عصر الأحياء مطابقة تماما للخارطة التي رسمها ابن الورد في القرن الرابع عشر للميلاد . وهناك مؤلفون غير من ذكرنا نبغوا في الجغرافيا وكتبوا فيها المطولات : أمثال المسعودي ، والبيروني ، والمقرئزي ، والقزويني ، وابن بطوطة ، والمقدسي ، وغيرهم .

٢

إن العرب أول من استخرج بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار ، فقد وضعوا طريقة مبتكرة لحسابها أدت إلى نتائج قريبة من الحقيقة ، ويعدها العلماء « من أجل آثار العرب في ميدان الفلكيات . . . » ، والطريقة وردت في الكتب العربية على صورتين :

الأولى : في الباب الثاني من كتاب (الزيج الكبير الحاكمي لابن يونس) وقد نقلها (نلينو) بحروفها عن النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة بمكتبة ليدن . وهي كما يلي :

« ... الكلام فيما بين الأماكن عن الذرع . ذكر (سند بن علي) في كلام وجدته له ، أن (المأمون) أمره هو و (خالد بن عبد الملك المروروذي) أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الأرض . قال : فسرنا لذلك جميعا وأمر (علي بن عيسى الاسطرلابي) و (علي بن البحتري) بمثل ذلك ، فسار إلى ناحية أخرى . قال (سند بن علي) : فسرت أنا و (خالد بن عبد الملك) إلى ما بين (واسط) و (تدمر) . وقسنا هنالك مقدار درجة من أعظم دائرة تمر بـ سطح كرة الأرض ، فكان سبعة وخمسين ميلا^(١) وقاس

(١) بحسب تدقيقات (نلينو) الميل العربي يساوي ١٩٧٣ر٢ من الأمتار .

(علي بن عيسى) و (علي بن البحترى) فوجدا مثل ذلك . وورد الكتابان من الناحيتين في وقت بقياسين مثقفين . . .

وذكر (أحمد بن عبد الله المعروف بجبش) في الكتاب الذى ذكر فيه أرصاد أصحاب الممتحن بدمشق : أن المأمون أمر بأن تقاس درجة من أعظم دائرة من دوائر بسيط كرة الأرض . قال : فساروا لذلك فى (برية سنجار) حتى اختلف ارتفاع النهار بين القياسين فى يوم واحد بدرجة . ثم قاسوا ما بين المسكانين . . . ميلا وربع ميل ، منها أربعة آلاف ذراع بالذراع السوداء التى اتخذها المألون . وأقول أنا وبالله التوفيق : إن هذا القياس ليس بمطلق ، بل يحتاج مع اختلاف ارتفاعى نصف النهار بدرجة إلى أن يكون القائسون جميعا فى سطح دائرة واحدة من دوائر نصف النهار . والسبيل إلى ذلك ، بعد أن نختار للقياس مكانا معتدلا ضاحيا ، أن نستخرج خط نصف النهار من المكان الذى يبتدى منه القياس ، ثم نتخذ جبلين دقيقين جيدين ، طول كل منهما نحو خمسين ذراعا ، ثم نمر أحدهما موازيا لخط نصف النهار الذى استخرجناه إلى أن ينتهى ، ثم نضع طرف الجبل فى وسطه ونمره راكبا عليه ، ثم نفعل ذلك دائما ليحفظ السميت ، وارتفاع نصف النهار يتغير دائما بين المكان الأول الذى استخرج فيه خط نصف النهار ، والمكان الثانى الذى انتهى إليه الذين يسرون ، حتى إذا كان بين ارتفاعى نصف النهار فى يوم واحد درجة بآتين صحيحتين ، تبين الدقيقة فى كل واحدة منهما قياس ما بين المسكانين . فما كان من الأذرع فهو ذراع درجة واحدة من أوسع دائرة تمر ببسيط كرة الأرض . وقد يمكن أن يحفظ السميت عوضا عن الجبلين بأشخاص ثلاثة ، يسير بعضها بعضا على سمت خط نصف النهار المستخرج ، وينقل أقربها من البصر متقدما ، ثم الذى يليه ، ثم الثالث دائما إن شاء الله تعالى . . .

أما الرواية الثانية : فهى التى وردت فى كتاب : (وفيات الأعيان لابن خلكان) عند ترجمته لموسى بن شاكر . ويعلق (نلليو) على هذه الصورة بقوله :

« . . . لا تخلو رواية ابن خلكان من شيء من الخلط والخطأ . . . »
ثم يوضح ذلك تفصيلا في كتاب (علم الفلك عند العرب في القرون الوسطى) .
ويعقب على ذلك بقوله :

« . . . والصحيح إنما هو ما يستخرج من (زيح ابن يونس) وكتب غيره ،
أن جماعة من الفلكيين قاسوا قوسا من خط نصف النهار في صحراوي : أي
البرية عن شمال (تدمر) وبرية (سنجار) ، ثم إن حاصل العملين اختلفا
فيما بين (٥٦٩) من الأميال ، و (٥٧) ميلا ، فاتخذ متوسطها (٥٦٢) من
الأميال تقريبا . . . » أي إن طول الدرجة عند فلكي المأمون ١١١٨١٥ مترا .
وعلى هذا فطول المحيط (٤١٢٤٨) من الكيلو مترات ، وهو كما لا يخفى
قريب من الحقيقة . . . دل على ما كان للعرب من الباع الطويل في الأرصاد
وأعمال المساحة . . . »

ويقول (نلينو) : « . . . أما قياس العرب فهو أول قياس حقيقي أجرى
كله مباشرة ، مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة ، والصعوبة ،
والمشقة ، واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل . فلا بد لنا من
عداد ذلك القياس من أعمال العرب العلمية المجيدة الماثورة . . . »

وقد وضع (البيروني) نظرية بسيطة لمعرفة مقدار محيط الأرض وردت
في آخر كتاب (الاسطرلاب) كما يلي : « . . . وفي معرفة ذلك الطريق قائم
في الوهم صحيح بالبرهان ، والوصول إلى عمله صعب لصغر الاسطرلاب وقلة
مقدار الشيء الذي يبنى عليه فيه : وهو أن تصعد جبلا مشرفا على بحر أو تربة
ملاء ترصد غروب الشمس فتجد فيه ما ذكرناه من الانحطاط ، ثم تعرف
مقدار عمود ذلك الجبل ونضرب في الجيب المستوي لتتام الانحطاط الموجود ،
وتقسم المجتمع على الجيب المنكوس لذلك الانحطاط نفسه ، ثم تضرب من
القسم في اثنين وعشرين أبداً ، وتقسم المبلغ على سبعة فيخرج مقدار إحاطة
الأرض بالمقدار الذي به قدرت عمود الجبل ، ولم يقع لنا بهذا الانحطاط
وكيفيته في المواضع العالية تجربة . وجرأنا على ذكر هذا الطريق ما حكاه
(أبو العباس النيريزي) عن (أرسطوطاليس) أن أطوال أعمدة الجبال خمسة

أميال ونصف ميل بالمقدار الذى به نصف قطر الأرض ثلاثة آلاف ومائتا ميل بالتقريب ، فإن الحساب يقضى لهذه المقدمة أن يوجد الانحطاط فى الجبل الذى عموده هذا القدر ثلاث درجات بالتقريب . وإلى التجربة يلتجأ فى مثل هذه الأشياء ، وعلى الامتحان فيها يعول . وما التوفيق إلا من الله العزيز الحكيم . . .

وبعد أن يبرهن (نلليزو) على ما جاء فى مقال البيرونى يورد معادلة خاصة وهى التى استعملها البيرونى . وقد أوردناها مع الشرح فى كتابنا : « تراث العرب العلمى » .

الفصل السادس

النزعة العلمية في التراث العربي

كان للعرب أساليب يسرون عليها في الكتابة ، وقد أصابها تطور وتحور ، فهي في صدر الإسلام غيرها في العصر العباسي حين أخذ العباسيون يناصرون الحركات العلمية ويعملون على ازدهارها . وكان للثقافة الإغريقية والهندية والثقافات الأخرى التي أخذ العرب عنها أثر كبير في الأساليب ، وكذلك كان للحديث وللأسس العلمية التي سار عليها (علماء الحديث) في تحرى الأحاديث النبوية أثر في إيجاد روح الدقة في الكتابة وأسلوبها . ولنا حاجة إلى القول إن أصول المنطق الذي اقتبسه العرب عن اليونان دخل في الأسلوب أيضا ، فسيطر إلى حد على الكثيرين من العلماء ، فكانوا يسرون في كتاباتهم على قواعده وقوانينه ، وقد غلب على كثير منها روح علمي صحيح ، وإخلاص للحق والحقيقة .

ومن الطبيعي أن تختلف الأساليب باختلاف العلماء والباحثين ، فمن الأدباء من كان يجمع في أسلوبه بين الأدب والعلم ، ومنهم من كان طابعه الدقة والوضوح . وسار آخرون في كتابة البحوث في مختلف الفروع على أسس علمية تقرب من الأسس الحديثة ، فقد حوت من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج ما هو محل تقدير العلماء المحدثين ، وسيتجلى لنا أن العرب عرفوا الطريقة العلمية الحديثة التي تعد من مبتكرات هذا العصر ، كما يتبين أن من العرب من سار عليها ومن سبق (يكون Bacon) في إدراكها ، بل من سما عليه ، إذ أدرك من عناصرها ما لم يدركه (يكون) من بعده . وكذلك سار بعض العلماء في البحوث الدينية على أساس علمي ، فوضعوا الرسائل في ذلك ، ووقفوا في عرضها عرضا رائعا هو في الواقع بداية للتأليف العلمي المنظم .

وقد امتاز العرب في الجمع بين فروع العلوم والآداب وفاقوا في هذا غيرهم .
فتجد بين علمائهم من وقف على روائع الآداب وغاص في دقائق العلم وجمع
بينهما . ومن يطلع على كتاب الخوارزمي في الجبر يجد أن المؤلف جمع بين
الجبر والآداب وجعلهما متممين أحدهما الآخر ، فالمادة الرياضية مفرغة
في أسلوب أخاذ لا رككة فيه ولا تعقيد ، ينم عن أدب رفيع وإحاطة بدقائق
اللغة . ونظرة في كتب البيروني تبين كيف يتعاقب الآداب والرياضيات بما فيها
الفلك والطبيعات ، وليس أدل على ما قلت من كتاب التفسير لأوائل صناعة
التنجيم للبيروني . فالأسلوب في هذا الكتاب سلس خالي من الالتواء يخرج
منه القارئ بثروتين : أدبية ، وعلمية . ويشعر بلذتين : لذة الأسلوب العلمي ،
ولذة المادة العلمية .

ومنهم من جمع في كتبه بين الآداب والنواحي الأخرى من المعرفة ؛
كالفلسفة ، والعلوم ، والتاريخ ، وغيرها . فالجاحظ مثلا : كان له فضل على
الآداب والفلسفة جميعا ، « ... ففي الآداب كان فضله أن أغزر معانيه وجعل له
موضوعا بعد أن كاد يكون شكلا بحتا . فقرأ الرسالة من رسائله فتجدها ناصعة
الأسلوب غزيرة المعنى ، لها موضوع ولها شكل . هذه رسالة في القيان ، وهذه
رسالة في المعلمين ، وهذه رسالة في الغناء ، حتى رسالته في الهجاء استطاع أن يجعل
لها موضوعا علميا ، بل لعلميا أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أن العقلية العلمية
والأدبية والفلسفية كانت تشغل الناس في عصر الجاحظ وفضله على
الفلسفة أنه صاغها صياغة أدبية قريبة من الأذهان ، فهو يمزج كلام أرسطو
بأشعار الجاهلين ، وقول الفلاسفة بأقوال الأدباء ، ويخرج من ذلك كله إلى
نتيجة تلذ القارئ وتغذي العقل »

وكذلك أبو حيان التوحيدي ، امتاز في الجمع بين الآداب والحكمة
وأصناف العلوم والمعارف ، وقد وفق في ذلك مع المحافظة على الحقيقة في
أصدق مظاهرها .

وأرسل إلى الدكتور (نيكول المستشرق التشيكي) قبل تسعة عشر عاما ؛
كتابا قديما في الجبر لابن بدر ، وقد عثر عليه في مدريد ، وبعد دراسته وجدت

فيه نظاما وتسلسلا في ترتيب البحوث وشروحا ضافية للبادئ ، وإبداعا في حلول المسائل ، وعرض خطوات حلها عرضا طريفا فيه متاع فكري ولذة عقلية .

ونظرة في كتاب « الفهرست لابن النديم » نجد أنه سار على أسلوب خاص اقتصادي ، لا إطالة فيه ودون لغو أو مقدمات ، وهو يقول في ذلك : « . . . والنفوس تشرب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى العرض المقصود دون التطويل في العبارات . . . » وهو يأتي إلى الفكرة فيعرضها دون مواربة أو تمهيد . ويندفع إلى صميم الموضوع في دقة وإيجاز وضبط وإحكام ، ويسيطر على ذلك كله روح علمي صحيح . وهذا ما يجعلنا نرى أن « ابن النديم » يتحرى الصدق في كتابه العظيم ويسير في أمانة النقل إلى أبعد الحدود . ومن يتصفح الكتاب ومقدمته يتبين له صحة ما ذهبنا إليه .

وكذلك امتاز أسلوب الفارابي بالإيجاز والعمق ، وقد اعترف له بذلك (كارادى فو) . والفارابي مبتكر لا مقلد . فقد أنتج عقله الخصب نظريات جديدة فيها ابتكار وفيها عمق . واعترف (مونك Munk) بأن العرب قد انتخبوا أرسطو وفضلوه على غيره ؛ لأن طريقته التجريبية كانت أقرب إلى نزعاتهم العلمية من مذهب أفلاطون الخيالي ، ولأن منطقهم كان سلاحا نافعا في المسائل الخلافية القائمة بين المدارس اللاهوتية المختلفة . وكان ابن سينا يسير في أسلوبه على أساس منطقي ؛ لأن المنطق على رأيه « . . . الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدق به ، والموصلة إلى الاعتقاد الحق بإعطاء أسبابه ونهج سبيله . . . » .

وفوق ذلك فأسلوبه علمي دقيق ، يتجلى هذا في تعريفه الحكمة وتقسيمها ، جاعلا المنطق آلة لها ، فعلى أصوله سار ، وعلى قواعده اعتمد في بحثه ودرسه .

إن انغماس ابن سينا في الحياة العامة وتعرضه لتقلباتها واندماجه في صميم مجتمعه ورحلاته المتعددة ، كل ذلك قد أثر في آرائه ونظرياته ، فجعل في فلسفته

مسحة من العملية ، وكانت أميل إلى الناحية العقلية منها إلى الناحية الروحية والتصوفية .

كان « ابن سينا » يقدس العقل ويرى فيه أعلى قوى النفس . والعقل يقاوم الوقوف ويعمل على الارتقاء ويقوى النفس ، ولهذا قال ابن سينا بسلطان العقل . وقد تغلب هذا السلطان على سلطان الروح حتى إنه يرى في العقل سبيلا إلى الوصول إلى الملكوت .

وخالف ابن سينا أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان في كثير من النظريات والآراء فلم يتقيد بها ، بل أخذ منها ما وافق مزاجه وانسجم مع تفكيره وزاد عليه . وقال إن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس . وهم ليسوا معصومين عن الزلل والخطأ . وهذا ما لم يجرؤ على التصريح به إلا النادر من الذين يملكون عقلا راجحا وبصيرة نافذة واستقلالا في التفكير . ولا شك في أن موقف ابن سينا هذا يدل على شجاعته ونزعة الاستقلال في الرأي ورغبته في التحرر العقلي ، فهو لا يتقيد بآراء من سبقه ، بل يبحث فيها ويدرسها ويعمل فيها العقل والمنطق والخبرات التي اكتسبها ، فإن أوصلته هذه كلها إلى تلك الآراء أخذ بها ، وإن أوصلته إلى غير ذلك نبذها وبين فسادها .

وجعل ابن سينا للتجربة كذلك مكانا عظيما في دراسته وتجرباته ولجأ إليها في طبعه ، وتوصل عن طريقها إلى ملاحظات دقيقة ، كما توفى إلى تشخيص بعض الأمراض وتقرير علاجها .

ولهذا لا عجب إذا رأيناه يحارب التنجيم وبعض نواحي الكيمياء بحجج العقل وحده ؛ يخالف معاصريه ومن تقدموه فيما يختص بتحويل الفلزات الخسيسة إلى الذهب والفضة ، ونفى إمكان إحداث هذا التحويل في جوهر الفلزات « ... لأن لكل منها تركيبا خاصا لا يمكن أن يتحول بطرق التحويل المعروفة ... » وإنما المستطاع تغيير ظاهري في شكل الفلز وصورته ، واحتاط ابن سينا فقال : « ... وقد يصل هذا التغيير حدا من الإتقان يظن معه أن الفلز قد تحول بالفعل وبجوهره إلى غيره ... » .

وتجلى سلطان العقل عند ابن سينا في رأيه في الخوارق ، ويذهب تعليله لها إلى أسباب وأمور تجزى على قانون طبيعي يتصل بالجسم والنفس والعقل ، كما يتجلى سلطان العقل في شرحه معنى « العناية الإلهية » فهو — بعد أن تأمل في نظام العالم — أدرك أن صانعه مدبر حكيم عالم بما عليه هذا الوجود من نظام الخير والكمال . وهذا في رأيه معنى العناية الإلهية . فالظواهر الطبيعية إنما تحدث حسب القوانين الطبيعية التي وضعها الصانع الحكيم وقيد الوجود بها . فالعناية الإلهية تعنى جريان القوانين الطبيعية في العالم على أدق ما يمكن وليس معناها الاهتمام بالأفراد والشعوب

والإنسان في رأى ابن سينا يقترب من الكمال إذا اتسعت معرفته بالوجود وأدرك حقائق العالم واستغرق في تفهمها ، ولا يتم ذلك إلا عن طريق الإرادة والعقل . وعلى الرغم من تقديس ابن سينا للعقل ومن إيمانه بسلطانه فإنه في مواضع كثيرة يؤكد نقص العقل الانساني ؛ وهذا النقص يجعله في حاجة إلى القوانين المنطقية ، ولهذا نرى أن ابن سينا قد اعتبر المنطق من الأبواب التي يدخل فيها الفلسفة ، كما أنه الموصل إلى الاعتقاد بالحق .

وكان ابن سينا يميل إلى التجدد والتحرر ، يدلنا على ذلك قوله : حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء . وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا وطال ابن سينا موضوع السعادة وأتى بآراء تدل على تفاؤله وإيمانه بأن الخير موجود في كل شيء . وهو لا يرى السعادة في اتباع كل لذة ، بل يراها في الخير والكمال . وكان يدعو إلى التجرد عن المادة وشواغلها للوصول إلى السعادة الحقيقية ، ولا يعنى هذا أنه كان يدعو إلى الجود والروحانية البحتة ، بل أنه كان يؤمن بالعقل والعلم . وكان لابن سينا مثل يهيم بها وقد سخر عقله ومواهبه للدعوة بها ، وكان يؤمن بالفكر ويقدره ، كما كان كثير الثقة بالفطرة الانسانية .

وفي علماء العرب من سار — فيما بعد — في أسلوبه على أساس التوفيق بين الشريعة والفلسفة كابن رشد ، وهو الذى كان يعتمد بالنظر العقلى . وقد غالى في هذا الاعتداد إلى درجة جعلته يجيز مخالفة الاجماع وفي كتابه (تهافت التهافت) نراه يبحث بقوة على معرفة الحق لصاحبه وشكره من أجله ، وعلى وجوب نبذ الهوى والتعصب بغير حق ، فذلك أجمل بالانسان وأدعى إلى الانصاف . وهو يحاول دائماً أن يفسر المعجزات والنبوة تفسيراً يطابق العقل والوحى . لقد اطلع (يكون) على مؤلفات ابن رشد ودرسها دراسة عميقة واستفاد منها فوائد جليلة كان لها أثر كبير في نتاجه واتجاهات فكره . وكان معجباً بابن رشد إعجاباً دفعه إلى الاعتراف بأن « . . . ابن رشد فيلسوف متين متعمق . صحح كثيراً من أغلاط الفكر وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها . وأدرك كثيراً مما لم يكن قبله معلوماً لأحد ، وأزال الغموض من كثير من الكتب التى يتناولها بحثه . . . »

واشتهر ابن رشد بالنقد . وكان أثره بالغاً عند اليهود والمسيحيين . فقد نقد شروح اسكندر فردوس وأغستينوس . وكذلك نقد ابن سينا وهاجمه ورد على الفارابى والغزالى ، وكان شديداً في نقده ورده قاسى اللهجة . ولكن القلم سما به في هذا إلى أعلى درجات الكمال الفكرى .

لقد اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها ، وكان من حسناتها أن حلت عقول أفكر الأوروى وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها ، وعلى ذلك « . . . لم يكن من المستغرب أن يعجب مفكرو القرون الوسطى بشروح ابن رشد وبإصابة آرائه . . . » ، وهكذا نشأ مذهب الرشدية للأخذ بالعقل عند البحث ، وعدم الاعتماد على الروايات الدينية .

كان ابن رشد مخلصاً للحق إلى أبعد الحدود ، يسعى إلى الحقيقة ويعمل جاداً على الوصول إليها والأخذ بها دون اعتبار القائل أو الدين . وكان يدعو إلى قبول الآراء الصحيحة سواء من مسلم أو غير مسلم . فقال في هذا الشأن في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال : « . . . يجب

علينا إذا ألقينا لمن تقدمنا في الأمم السالفة نظرا في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن نتظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم . فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه . وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم . وعلينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ... وسواء كان هذا التغيير مشاركا لنا في الملة أم غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة ... ، ويرى كثيرون من الفلاسفة وأعيان الفكر أن فلسفة ابن رشد تركت أكبر الأثر في أوروبا وأخرجتها من ظلمات التقليد إلى نور العقل والفكر . ولهذا نجدهم يضعونه مع أفلاطون وأرسطو وكانت في صف واحد في الفلسفة العقلية .

ويتبين من الآراء التي بثها في كتبه أنه كان بعيدا عن التصوف ، يتقيد بالعقل ولا يسير إلا على هداه . وكان من ذلك أن اصطدم بوجهة النظر الدينية في بعض المسائل ، فنشأ عداوة بينه وبين رجال الدين أدى إلى اضطهاده في أواخر أيام حياته .

* * *

ومن أساليب العرب ما يمتاز بطابع خاص هو الإخلاص للحق والحقيقة ، والدعوة إلى ذلك وإلى جعل البرهان دليلا شاهدا . ولقد تضمنت بعض الرسائل القديمة نصائح وإرشادات إلى الكتاب ليسيروا عليها حين الكتابة ، هي في الواقع : الأساس الذي يجب أن يسلكه أصحاب الأقلام في كل زمان .

ومن الطريف أن الدعوة إلى الإنصاف وإلى الحق والصدق والمعرفة كانت تدخل في مقدمات الكتب القديمة . جاء في أول كتاب الرسالة العذراء لإبراهيم ابن المدير ما يلي : « ... فتق الله بالحكمة ذهتك وشرح بها صدرك ، وأنطق بالحق لسانك وشرف به بيانك ... »

وابتداء الجاحظ ، كتابه الشهير الحيوان بما يلي : « ... جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ،

وحبب إليك التثبث ، وزين في عينيك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك البر واليقين ، وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل من الفلة . . .

وقال « ابن الهيثم » في مقدمة كتابه المناظر : بأن غرضه في جميع ما يستقر به ويتصفه (استعمال العدل لا اتباع الهوى) وأنه يتحرى في جميع ما يميزه وينتقده (طلب الحق لا الميل مع الآراء) حتى يظفر بالحقيقة ويصل إلى اليقين . وقد بين « ابن الهيثم » أن من الغايات التي توخاها في تصنيف الكتب والرسائل إفادة من يطلب الحق ويؤثره في حياته وبعد مماته .

وفوق ذلك يتجلى لنا من مصنفاته أنه كان متواضعا منصفاً ، دفعه إخلاصه للحق إلى الاعتراف بالفضل لذويه ، وتقدير العلماء السابقين حق التقدير . وقد ذكر البيهقي أن ابن الهيثم قال : « . . . إذا وجدت كلاما حسنا لغيرك فلا تنسبه إلى نفسك واكتف باستفادتك منه . . . »

وذهب بعض الكتاب إلى أكثر من هذا ، فجاءوا بالصفات التي يجب أن يتحلى بها والشروط التي عليه أن يتقيد بها . وقد وردت هذه بالتفصيل في كتاب (الرسالة العذراء) .

ومن العلماء الذين امتازوا بروح علمي صحيح ؛ البيروني ، وهو من أكبر الباحثين الذين تركوا أثر خالدة في العلوم والتاريخ ، ساح في الهند أربعين عاما بقصد البحث والدرس ، وخرج من ذلك بوقوفه على علوم الهند وفلسفتها ، وقد استطاع أن يسدى إلى اللغة العربية خدمة جليلة ، إذ أكسبها مرونة على التعبير عن دقائق التفكير الهندي .

كان البيروني باحثا مختصا للحقيقة والحق نزيها . وقد بين أن التعصب عند الكتاب هو الذي يحول دون تقريرهم للحق . يتجلى ذلك في مقدمة كتابه النفيس القيم (الآثار الباقية عن القرون الخالية) حيث يقول : « . . . وبعد فقد سألتني أحد الأدباء عن التواريخ التي تستعملها الأمم والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها وفروع التي هي شهورها ، والأسباب الداعية

لأهلها إلى ذلك . وعن الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال . . . ، إلى أن يقول : « . . . وأبتدى فأقول إن أقرب الأسباب إلى ما مثلت ، هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية ، لأن أكثرها أحوال عنها ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل إلى التوصل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمقولات ، والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك واعتبار ما هم فيه أسا ، يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في إثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق : والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتطافر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك . . . »

ويتبين من الآثار التي خلفها « البيروني » في مختلف ميادين العلوم ومن كتابه الشهير الآثار الباقية ، أنه كان باحثا دقيق الملاحظة ، وناقدا صائب النقد ، يعتمد على المشاهدة ، ولا يأخذ إلا بما يرافق العقل ، يكتب رسالته وكتبه مختصرة ومنقحة ، وبأسلوب مقنع ، وبراهين مادية .

وقد انتقد البيروني المنهج الذي اتبعه الهنود ، لأنه على رأيه غير علمي وحافل بالآوهام ، واستطاع بأسلوبه أن يبين — أحسن بيان — وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية والأفلاطونية والحكمة الهندية والكثير من مبادئ الصوفية . ويمكن القول إن البيروني يرى (أن العلم اليقيني لا يحصل إلا من إحساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقي) . وهذا هو الذي سيطر على طريقة البيروني . ومن هنا كان ينهج نهجا علميا تتجلى فيه دقة الملاحظة والفكر المنظم .

والبيروني يمثل رغبة عصره في نقد الأمور والجرأة في الرأي . ويقول المستشرق شخت : « . . . والحق أن شجاعة البيروني الفكرية وحبه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم وحبه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه ؛ كل هذه الخصال كانت عديمة النظير في القرون الوسطى ، فقد كان البيروني في الواقع عبقريا مبدعا ذا بصيرة شاملة نافذة . . . »

وللبيروني فوق ذلك كله رسالة سامية كانت تتجلى في ثنايا مؤلفاته وكتبه ومن سياحاته وسلوكه ، فهو يرى في وحدة الاتجاه العلمى في العالمين : الإسلامى ، والغربى ؛ اتحاد الشرق ، والغرب . وكأنه كان يدعو إلى إدراك وحدة الأصول الإنسانية والعلمية بين جميع الشعوب في عالم واحد . وهو يؤمن بإنسانية العلم والوحدة الشاملة التى يؤدى إليها العلم ؛ فيوحد بين العقول ، ويزيل التنافر بينها ، ويقرب بعضها من بعض ، ويدعو إلى التفاهم على أساس المنطق والحقيقة .

وما دنا في صدد الإخلاص للحق وتوخى الحقيقة والدقة العلمية ، لابد لنا من الإشارة هنا إلى الطرق التى اتبعها علماء الحديث فى الوصول إلى تمييز الحديث الموضوع من الحديث الصحيح . فقد وضع جماعة منهم طرقا وقواعد للوصول إلى الحقيقة فى الحديث « تتفق فى جوهرها واتجاهها والأنظمة التى كشفها علماء أوروبا فيما بعد فى بناء علم الميثودولوجية . . . »

وللقاضى « عياض » رسالة فى علم المصطلح : هى أنفس ما صنف فى مجموعها « وقد سماها القاضى إلى أعلى درجات العلم والتدقيق » ، ويعترف الدكتور « رستم » بفضلها ، فيقول : « . . . وعلى الرغم من مرور سبعة قرون عليها ، فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ فى أوروبا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منها فى بعض نواحيها . وأن ما جاء فيها من مظاهر الدقة فى التفكير والاستنتاج تحت عنوان ، تحرى الرواية والمجىء باللفظ ، يضاهى أدق ما ورد فى الموضوع نفسه فى أهم كتب الإفرنج فى ألمانيا ، وفرنسا ، وأمريكا ، وانكلترا . . . »

وقد ثبت أن المسلك الذى اتبعه العرب فى تنقية الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه ، قد أثر إلى حد فى أساليب العلماء ؛ إذ أبان لهم أهمية اتباع الطرق التى تؤدى إلى الحق ، كما أوضح لهم منهاجاً دقيقاً للسير بهوجه للوصول إلى الحقيقة وإلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال ، وكذلك كان للأساليب التى اتبعها علماء الحديث فضل كبير على التاريخ . وأصبحت القواعد التى ساروا

عليها في تحرى الحقيقة هي الممول عليها لدى المؤرخين المعاصرين ، ومحل تقديرهم وإعجابهم .

وسار المعتزلة في أسلوبهم على أساس العقل — وكان العقل مقياسهم — وهذا هو ما جرد كتاباتهم وآراءهم من الأساطير الخرافية . وفي أقوال بعض المتكلمين من المعتزلة نجد ما يدل على أنهم قد وضعوا الأسس التي بنى عليها — فيما بعد — (علم البحث والمناظرة) . روى الأصفهاني قال : « ... اجتمع متكلمان . فقال أحدهما : هل لك في المناظرة ؟ فقال : على شرائط ألا تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيري وأنا أكلك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوز لنفسك تأويل مثلها على مذهبي ، وعلى أن تؤثر التصادق ، وتنقاد للتمارف ، وعلى أن كلا منا يبغى مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته ... » أليس في هذه الأقوال الجامعة ما يتجلى الروح العلمي الصحيح الذي كان له أكبر الأثر في أسلوب الكثيرين من الفلاسفة والعلماء بما جعل هؤلاء يتوخون في كتاباتهم الحقيقة ، والوصول إلى الحق ، ويلجأون في سبيل ذلك إلى السير على أساس علمي دقيق .

لقد سار النظام — وهو ذو عقلية قوية سابقة لزمانها — كما يقول الأستاذ « أحمد أمين » — في كتاباته على الشك والتجربة . وهما الركنان اللذان سببا النهضة الحديثة في أوروبا ، فاعتبر الشك أساسا للبحث . وقد قال في هذا الشأن : « الشاك أقرب إليك من الجاحد . ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك . ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك . . . » . وعلى ذكر الشك ، نذكر قولاً لأبي هاشم البصري وهو : (الشك ضروري لكل معرفة) .

واستخدم النظام التجربة كما يستخدمها الآن الطبيعي والكيموي في مختبره . وجاء في كتاب الحيوان للجاحظ ، ذكر تجارب كثيرة للنظام في الحيوان وغير الحيوان لا يتسع المجال لعرضها . وقد عرضناها بشيء من التفصيل في

بعض مؤلفاتنا . وهذه التجارب هي أمثلة على البحث العلمى والتجربة الصحيحة القائمة على الدقة والمنطق .

ووضع النظام منهجا بديعا للدس ، فهو ينقد من يسير في تعلمه على طريقة حشو المعلومات في الذهن ، ولأنه ينبغي على طالب العلم أن يتخير من الكتب الجيد المتقى ، لأن العلم ليس في جمع الكتب وحفظ ما فيها وإنما هو بالتعقل . وجاء « الجاحظ » بعد « النظام » وسار على غراره في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الإيمان واليقين . قال الجاحظ : « ... تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ... » ، ويأتى بعد ذلك التفريق بين العوام والخواص ، لأنهم لا يتوقفون في التصديق ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد

قال بسلطان العقل ، لا يسلم بشيء إلا إذا استساغه العقل ، فالأدب عنده خاضع للنقد ، وكذلك فلسفة أرسطو ، وغيره من فلاسفة اليونان . حتى الحديث نقده ولم يقبل الأخذ به إلا على أساس العقل . وإذا اختلف الناس فالحكم للعقل لا لغيره . ومن يطلع على كتابه الشهير (الحيوان) يتبين له صحة ما ذهبنا إليه وأنه هاجم رجال الحديث ، لأنهم على رأيه جماعون لا يشغلون عقولهم . وقد قال عنهم : « ... ولو كانوا يروون الأمور مع علمها وبرهاناتها خفت المؤونة ، ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان »

وفي هذا الكتاب دقة الملاحظة والتمحيص ، فهو يلجأ إلى التجربة ليتحقق من صحة نظرية أو رأى من الآراء . يجرب بنفسه في الحيوان والنبات ، ويشك ويستمر في الشك ، بل ويدعو إليه حتى تثبت صحة النظريات والآراء . وكان يفضل التجربة على كل نقل ، ولا يأخذ بقول أحد حتى يتحقق ذلك بنفسه ، والأمثلة على ذلك عديدة في كتاب الحيوان . وكان يجرى في تفسيره للظواهر والطبائع حسب المعقول وطبائع الأشياء . وأبان صراحة بأن العقل الصحيح يجب أن يكون أساسا من أسس التشريع .

وظهر من علماء العرب من دعا إلى الدقة في العمل وإجراء التجارب والاحتياط في الاستنتاج، من هؤلاء « جابر بن حيان » من أعلام علماء العرب الذين أسدوا أجل الخدمات إلى الكيمياء والعلوم والطبيعة .

لقد دعا « جابر » إلى الاهتمام بالتجربة وحث على إجرائها مع دقة الملاحظة ، كما دعا إلى التأنى وترك العجلة وقال : « ... إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة وإن المعرفة لا تحصل إلا بها ... » وطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية أن لا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن يعرفوا السبب في إجراء العملية ، وأن يفهموا التعليمات جيدا : « لأن لكل صنعة أساليبها الفنية ، على حد قوله . وطالبهم بالصبر والمثابرة والتأنى باستنباط النتائج . وكان لجابر هذا ، فضل كبير على من أتى بعده من كيميائي العرب والمسلمين ، حتى إن بعض العلماء اعتبر الكتابة غير دقيقة إن لم تسبقها تجارب . وقال الجلودكي عن الطغرائي : « ... كان الطغرائي رجلا على جانب عظيم من الذكاء ولكنه لم يعمل إلا قليلا من التجارب ، وهذا أمر يجعل كتاباته غير دقيقة ... »

ومن علماء العرب الذين اشتهروا بالتدقيق — حين البحث في النبات — رشيد الدين بن الصوري . فقد كان يستصحب معه مصورا (حين البحث عن الحشائش في منابتها) ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها .

وننتقل الآن إلى الدستور الذي وضعه بعض علماء العرب للبحث العلمي والفلسفي ، وقد ورد في رسالة « إخوان الصفاء » : لقد وصف بعض العلماء المحدثين بأن هذا الدستور محكم ورائع ، ويرى الباحثون أنه وليد المنطق الذي اقتبسه العرب عن اليونان ، ويدللون على ذلك بالمقارنة بين مواده والمقولات العشر المسماة عند اليونان (قاطيغورياس) . فلقد شرح الأستاذ « مظهر » في مقال ظهر له في كتاب (نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية) أبواب دستور البحث العلمي ، ثم أعقب ذلك بشرح المقولات ، فثبت له : « أن أسلوب البحث

عند أسلافنا أصله يوناني ، أو بالحرى مستمد من أصل يوناني ، . ولا يخفى أن ليس في هذا ما يغير أو ينقص من قدر العرب العلمى ، فالإنسان دائماً وأبداً يأخذ ما عمله غيره ويزيد عليه إذا استطاع . وزيادات العرب في هذا الميدان أساسية وذات قيمة وأهمية .

ومن الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفاء التى تبحث فى الصنائع العلوية ، يتبين أن العرب اتبعوا دستوراً محكماً فى البحث العلمى ينحصر فى تسعة أحكام . وها هى ذى كما وردت فى الجزء الأول :

السؤال الأول : هل هو ؟ يبحث عن وجدان شىء أو عدمه ، والجواب نعم أولاً .

السؤال الثانى : ما هو ؟ يبحث عن حقيقة الشىء .

• الثالث : كم هو ؟ يبحث فى مقدار الشىء .

• الرابع : كيف هو ؟ يبحث عن صفة الشىء .

• الخامس : أى شىء هو ؟ يبحث عن واحد من الجملة أو عن بعض من الكل .

• السادس : أين هو ؟ يبحث عن مكان الشىء أو عن رتبته .

السؤال السابع : متى هو ؟ يبحث عن زمان كون الشىء .

• الثامن : لم هو ؟ يبحث عن الشىء المعلوم .

• التاسع : من هو ؟ يبحث فى التعريف للشىء .

وتدل هذه الأسئلة على الاتجاه العلمى الذى كان يسير عليه بعض علماء العرب فى بحوثهم وكتاباتهم ، وهو يحصر اتجاهات العقل « ... ولكن لا يقر المتجه الذى ينبغى أن يتجه فيه العقل إزاء كل بحث بعينه ... » .

ولا يقف الأمر عند هذه الحدود ، بل نجد أنه وجد فى العرب — وبين علمائهم — من كشف عناصر الطريقة العلمىة المعروفة الآن ، والتى تميز هذه الحضارة عن التى سبقتها . وقد جعلنا بحثنا يدور حول السؤال الآتى : هل وجد فى العرب من سار على الطريقة العلوية وسلك فى أصولها ؟

ما كنت أظن أن للعرب أثراً في كشف عناصرها والتمهيد إلى أصولها حتى
بحث في مآثر العرب على الفيزياء ، واطلعت على كتاب (الحسن بن الهيثم :
بحوثه وكشوفه البصرية للأستاذ مصطفى نظيف) .

ويشتمل هذا الكتاب النفيس القيم على بحوث علم الضوء الموجودة
في كتاب المناظر لابن الهيثم ، وفي مقالات أخرى . وقد أخذها الأستاذ مصطفى
نظيف وتبين النظر واتجاهات التفكير فيها ، وبعد أن درسها وخصها وأعمل
فيها التحليل والموازنة والمناقشة ، ثبت له أن ابن الهيثم قد توافرت فيه
(مميزات التفكير العلمي الصحيح) ، وهي تدل على نضج الفكر وعمق النظر
في عصر ابن الهيثم على النحو الذي وردت في بحوثه في الضوء .

وأرى قبل التدليل عليها أن ألفت النظر إلى أن علماء العرب ، لم يتوسعوا
في الطريقة ولم ينقلوها على النحو الذي توسع فيها واستغلها علماء أوروبا
وأmericا الآن ، كما أنهم لم يدركوا ما لهذا الأسلوب من شأن خطير ، كما أدركه
علماء هذا العصر . ولكن يمكن القول إن كتاب (المناظر) لابن الهيثم يدل
على أنه وجد في العرب من سار في بحوثه على الطريقة العلمية ، كما وجد بين
علمائهم من سبق (يكون Bacon) في إنشائها ، بل ومن زاد على طريقته التي
لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية .

أما العناصر الإسلامية في طريقة البحث العلمي الحديث فهي : الاستقراء
والقياس والاعتماد والمشاهدة ، أو التجربة والتمثيل .

ولقد أدرك « ابن الهيثم » الطريقة المثلى وقال بالأخذ بالاستقراء والقياس
والتمثيل ، وضرورة الاعتماد على المواقع الموجودة على المنوال المتبع في البحوث
العلمية الحديثة : ففي كتاب (المناظر) عند البحث مثلاً في كيفية الإبصار
واختلاف العلماء فيه يقول : « ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات
وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص
البصر في حال الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشبه من كيفية
الإحساس . ثم ترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد

المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه
ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، وتتحرى في سائر ما نميزه وننتقده
طلب الحق الذى به يثلج الصدر ، ونصل بالتدرج واللفظ إلى الغاية التى عندها
يقع اليقين ، وتظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف
وتنحسم به مواد الشبهات . . . وما نحن مع ذلك براء عما هو فى طبيعة الإنسان
من كدر البشرية . ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية . ومن الله
نستمد العون فى جميع الأمور

ومن أقواله هذه تنجلي لنا الخطة التى كان يسير عليها فى بحوثه ، وأن
غرضه فى جميع ما يستقريه ويتصفحه : (استعمال العدل لا اتباع الهوى) .
وبعد ذلك نراه رسم الروح العلمية الصحيحة ، وبين أن الأسلوب العلمى هو
فى الواقع مدرسة للخلق العالى ؛ فقواعده التجرد عن الهوى والإنصاف بين
الآراء ، فيكون قد سبق علماء هذا العصر فى كونه لمس المعانى وراء البحث
العلمى الحديث . وكان يرى فى الطريق المؤدى إلى الحق والحقيقة (ما يثابج
الصدر) — على حد تعبيره — وهذا ما يراه باحثو هذا العصر من رواد الحقيقة
العاملين على إظهار الحق . فإن وصلوا إلى ذلك فهذا غاية ما يبغيون ويؤمنون . . .
وابن الهيثم فى طريقته العلمية التى اتبعها فى بحوثه وكشفه الضوئية قد سبق
(بيكون Bacon) فى طريقته الاستقرائية . وفوق ذلك سما عليه ، وكان أوسع
منه أفقا وأعمق تفكيراً . وهو وإن لم يعن كما عنى (بيكون) بالفلسف
النظري وتأليف المؤلفات التى يعرض فيها الآراء النظرية فى طرق البحث
ويلزم العلماء بها إلزاماً ، فحسبه أنه اتبع الطريقة الصحيحة فى بحوثه وجرى
عليها عملاً وفعلاً . وأن الأمر جاء منه على بينة وروية ، وإمعان فكر
وحسن تقدير .

ويذهب الأستاذ مصطفى نظيف ، إلى أكثر من هذا فيقول : بل
وإن ابن الهيثم قد عمق تفكيره إلى ما هو أبعد غوراً مما يظن أول وهلة ،
فأدرك ما قال به من بعده (ماك) و (كارل بيرسون) . وغيرهما من فلاسفة

العلم المحدثين في القرن العشرين . أدرك الوضع الصحيح للنظرية العلمية ، وأدرك وظيفتها الحقة بالمعنى الحديث . ويمكن القول إنه من نصوص أقوال ابن الهيثم ، يتبين أن تفكيره اتجه إلى الوجهة التي يتجه إليها التفكير العلى الحديث « ... وأنه ليس من المغالاة أيضا القول إنه قد أدرك عن بيئة الطريقة الحديثة في البحث العلمى ، وأدرك الأوضاع الصحيحة لما نسميه الحقائق العلمية ... » .

وفعلا سلك ابن الهيثم في بحوثه الطريقة الحديثة في البحث . وقد وصل بسلوكه إلى الحقيقة التي ينشدها بالمعنى الذى رآه ، وهذا يتجلى بأجلى بيان وأبلغ صورة في الكتاب النفس « الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية » تأليف الأستاذ مصطفى نظيف .

ومن الحق أن أشير إشارة بسيطة إلى موضوعات كتاب (المناظر) ، فلقد استدل ابن الهيثم في جميع بحوثه في الضوء على القواعد والقوانين الأساسية بتجارب ، واستعان بإجراء التجارب بالمعنى الذى نعنيه الآن . وذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد أدرك قيمة التجربة في البحوث العلمية « فهو لا يعتمد على التجربة في إثبات القواعد أو القوانين الأساسية فحسب ، بل يعتمد عليها أيضا في إثبات النتائج التي تستنبط بالقياس بعد ذلك من تلك القواعد والقوانين » .

ومن مميزات « ابن الهيثم » أنه كان يشرح الجهاز ويبين وظيفة أجزائه المختلفة ، واستعمل أجهزة مبتكرة لشرح الانعكاس والانعطاف ، وتدل تجاربه وحساباته أنه استطاع أن يجمع بين قدرته الرياضية وكفايته العلمية الممتازة « ... يدل عليها صنع الأجهزة واستعمالها في الأغراض المختلفة ... » .

وكذلك يمتاز كتاب (المناظر) بعناية « ابن الهيثم » بالقياس . فهو بعد أن ثبت المبادئ الأولية بالتجربة ، يتخذ تلك المبادئ قضايا يستنبط منها بالقياس النتائج التي تفضى إليها ، ويشرح على هذا النمط كثيرا من الظواهر الهامة في الضوء .

ويتبين من بحوث الكتاب أيضا أن « ابن الهيثم » أدرك قيمة التمثيل في البحوث العلمية ، ولهذا استعان به في بعض المواضع ، وكان فيها موقفا

وفي بعضها كان مبتكرا وملهما . والذي نستخلصه من مآثر « ابن الهيثم »
ونتاجه الفكري ، أنه سلك في البحث سبيلا تتوافر فيه خصائص البحث
العلمي . وقد خرج الأستاذ « مصطفى نظيف » من دراسته بحوث « ابن الهيثم »
في الضوء بالقول الآتي : « ... ليكن ابن الهيثم قد استفاد بمعلومات من
تقدموه وبحوث من تقدموه ، فقد استفاد حتما طوعا أو كرها ، ولكنه
أعاد البحث عن كل هذه الأمور من جديد ، ونظر فيها جميعا نظرا جديدا
لم يسبقه إليه أحد من قبله ، واتجه في هذا النظر وجهة جديدة لم يولها أحد
من المتقدمين ، وأصلح الأخطاء ، وأتم النقص ، وابتكر المستحدث من
المباحث ، وأضاف الجديد من الكشوف : وسبق في غير قليل من ذلك
الآجيال والعصور ، واستوفى البحث اجمالا وتفصيلا ، وسلك في البحث
سبيلا تتوافر فيه خصائص البحث العلمي ، مع ما في هذه الطرق من قصور
ومع ما فيها من ميزات . واستطاع أن يؤلف من كل ذلك وحدة مترابطة
الاجزاء على قدر ما كان يمكن أن ترتبط به أجزاؤها في عصره . إن جدنا
فيها عيبا أو نقصا فذلك سنة الله في المباحث العلمية ، وهو فيها لم يبدع
ولم يبتكر فحسب ، بل هو أيضا أقام بها الأسس التي انبنى عليها صرح علم
الضوء من بعده . . . » .

الباب الثاني

يبحث في المقدمين في العلوم من علماء العرب

- | | |
|--------------------------|----------------------|
| ١٤ - البيروني . | ١ - جابر بن حيان . |
| ١٥ - ابن حزم الأندلسي . | ٢ - الخوارزمي . |
| ١٦ - الغزالي . | ٣ - الكندي . |
| ١٧ - ابن باجه . | ٤ - الجاحظ . |
| ١٨ - الشريف الإدريسي . | ٥ - ثابت بن قرة . |
| ١٩ - ابن طفيل . | ٦ - البتاني . |
| ٢٠ - ابن رشد . | ٧ - أبو بكر الرازي . |
| ٢١ - الخازن . | ٨ - الفارابي . |
| ٢٢ - ابن النفيس . | ٩ - البوزجاني . |
| ٢٣ - ابن البيطار . | ١٠ - ابن يونس . |
| ٢٤ - نصير الدين الطوسي . | ١١ - الزهراوي . |
| ٢٥ - ابن خلدون . | ١٢ - ابن سينا . |
| | ١٣ - ابن الهيثم . |

١ — جابر بن حيان^(١)

«... إن لجابر بن حيان في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق...»

(برتيلو)

لا يخفى أن المدنية الأوروبية تقوم على عدة أركان ، أهمها الركن الاقتصادي ، وهذا يقوم على ما أوجده العلم من صناعات واستحدثته من آلات وأدوات لتسهيل استغلال القوى والعناصر الطبيعية لصالح الإنسان ورفاهيته .

ولقد لعبت الكيمياء — ولا تزال تلعب — دورا هاما في هذا العصر ، فلولاها لما تقدمت الصناعة تقدمها الحاضر ، ولما سيطر الإنسان على بعض العناصر سيطرته الحالية .

وإذا ذكرنا الكيمياء والصناعات التي خرجت منها وقامت عليها ، توجه نظرنا إلى الذين وضعوا أساسها وعملوا على تقدمها وارتقاؤها من كهنة مصر ، إلى علماء اليونان ، إلى فلاسفة الهند ، إلى نوابغ العرب . ويهمنا ما أحدثه العرب في هذا الفرع من ابتكار واكتشاف ، فنجد أنهم تبنا هذا العلم وامتازوا على غيرهم برجوعهم فيه إلى التجربة والاختبار ، إذ بعد اطلاعهم على بحوث من سبقهم من الأمم أتوا بزيادات هامة جعلت بعض منصفى الغرب يعتبرون هذا العلم من نتاج القريحة العربية الخصبة ، ويرجع الفضل في أكثر هذه الابتكارات والإضافات إلى « جابر بن حيان » الذي قال عنه « برتيلو » : « لجابر بن حيان في الكيمياء ما لأرسطوطاليس في المنطق... » . ويعتبر (برتيلو) أيضا أن جميع الباحثين العرب في هذا العلم نقلوا عن جابر واعتمدوا على تأليفه وبحوثه .

ولقد اختلف الناس في أمر « جابر بن حيان » ، وليس بعجيب أن يختلف الناس في أمر العظماء من رجال الفكر والعلم ، فهم محط الأنظار وإليهم يتقرب الناس وعلى الانتماء إليهم يتنازعون .

(١) ولد في طوس سنة ٧٢٧ م وتوفى حوالى سنة ٨١٣ م - (٧ - العلوم هند العرب)

فالشيعة تقول : إن جابرا من كبارهم وأحد أبوابهم وإنه كان صاحب جعفر الصادق ، ومن الناس من يقول : إنه كان من جملة البرامكة ومنقطعا إليهم ، وقال قوم من الفلاسفة : إنه كان منهم ، كما زعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت إليه في عصره ، وأن أمره كان مكتوما ، . وزعموا كذلك أنه كان ينتقل في البلدان لا يستقر به بلد خوفا من السلطان على نفسه ، وقد يكون ذلك نتيجة لعلاقاته مع البرامكة كما تقول أكثر الروايات ، إذ كان مقربا إلى البلاط العباسي ، فلما دار الزمان على البرامكة أصابه بعض ما أصابهم من اضطهاد وضغط حيث بقي وقتا طويلا مخفيا ، مما حمله على الفرار إلى الكوفة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الاختلاف في أمر جابر ، بل نجد أن جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين — كما يقول صاحب الفهرست — ينكرون وجود جابر وأن لا أصل لرجل بهذا الاسم ولا حقيقة ؛ وأن الناس قد نسبوا إليه مؤلفات ورسائل ونحوه إياها ، ولقد علق صاحب الفهرست على هذا تعليقا طريفا ينتهي به إلى أن رجلا بهذا الاسم (جابر) كان موجودا وله حقيقة . وهذا ما يأخذ به أكثر المؤرخين من القدامى والمحدثين . قال ابن النديم في الفهرست : « . . . وأنا أقول : إن رجلا فاضلا يجلس ويتعب فيصنف كتابا يحتوي على ألفي ورقة يتعب قريحته وفكره بإخراجه ، ويتعب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره — إما موجودا أو معدوما — ضرب من الجهل ، وأن ذلك لا يستمر عليه أحد ، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم . وأي فائدة في هذا وأي عائدة ؟ والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر . ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة . . . وكتب في معان شتى من العلوم . . . وقد قيل : إن أصله من خراسان . . . » ولد في « طرسوس » أو « طوس » ، سنة مائة وعشرين هجرية ، وعاش إلى عصر المأمون ما يقرب من ثمانين سنة .

و اشتهر جابر باشتغاله في العلوم ولا سيما الكيمياء . وله فيها وفي المنطق والفلسفة تأليف كثيرة ومصنفات مشهورة ضاع معظمها ولم يبق منها غير

ثمانين كتابا ورسالة ، في المكتبات العامة والخاصة ، في الشرق والغرب ، وقد ترجم بعض منها إلى اللاتينية وكانت نبعاً للإفرنج ، استقوا منه واعتمدوا عليه في الموضوعات الطبيعية والطبية ؛ وكان لهذا النبع « أثر كبير في تكوين مدرسة كيموية ذات أثر فعال في الغرب » .

وقد يدهش القارىء من التراث الذى خلفه جابر في الكيمياء وغير الكيمياء ، فقد كان من أكثر العلماء إنتاجاً ، ونظرة إلى أسماء كتبه ورسائله في القهرست لابن النديم ، تبين المآثر الجليلة التى خلفها للأجيال التى أتت من بعده ، مما أحله مكاناً مرموقاً بين الخالدين من رجال العلم ، أصحاب المواهب .

لقد اعترف بفضل جابر باحثو الغرب فقال (ليكلرك) في كتابه (تاريخ الطب العربى) : « . . . إن جابراً من أكبر العلماء في القرون الوسطى وأعظم علماء عصره . . . » . ويعترف (سارطون) بفضل جابر فيقول : إنه كان شخصية فذة « ومن أعظم الذين برزوا في ميدان العلم في القرون الوسطى » .

كان جابر حجة في الكيمياء لا ينازعه في ذلك منازع « وإليه يعود الفضل في حمل عصبة من التلامذة المجتهدين على متابعة البحوث عدة قرون فهدوا بذلك لعصر العلم الحديث » .

واهتم كثيرون من علماء الغرب بجابر ونتاجه ، وكان موضوع عناية هولبارد (Holmyard) ، وبارتنجتون (Partington) ، واستابلتن (Strpleton) ، وغيرهم ، ومنهم من نقد بعض مؤلفات جابر وأثار حول حقيقتها الشكوك ؛ ومنهم من أمارط اللثام عن نواح متعددة كانت غامضة في حياته ومآثره .

كان « جابر » مشغولاً بالكيمياء وعالمها فيها بالمعنى الصحيح ، فقد درسها دراسة وافية ووقف على ما أنتجه الذين سبقوه وعلى ما بلغته المعرفة في هذا العلم في زمنه . وليست هذه المعرفة الشاملة هى التى جعلته عالماً فيها ، بل أن تغييره الأوضاع وجعل الكيمياء تقوم على التجربة والملاحظة والاستنتاج ، كل هذه العوامل جعلته خالداً في الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم الكيمياء .

لقد فحص « جابر » ما خلقه الأقدمون ، فخالف أرسطو في نظريته عن تكوين الفلزات ، ورأى أنها تساعد على تفسير بعض التجارب ، فعدل عن النظرية وجعلها أكثر ملاءمة للحقائق العلمية المعروفة إذ ذاك ؛ وقد شرح تعديله هذا في كتابه (الإيضاح) ، وخرج من هذا التعديل بنظرية جديدة عن تكوين الفلزات . وقد بقيت هذه النظرية معمولاً بها حتى القرن الثامن عشر لليلاد .

وابتكر « جابر » شيئاً جديداً في الكيمياء ، فأدخل ما سماه : علم الموازين ، والمقصود به معادلة ما في الأجساد (المعادن) من طبائع « ... » فجعل لكل من الطبائع ميزاناً ، ولكل جسد من الأجساد موازين خاصة بطبائعه ... ، ويرى بعض المعاصرين في هذا الرأي . وفيما ورد عنه من التفصيلات في كتب « جابر » وجاهة قيمة ، « ... » ونظيراً في بعض ما جاء في النظريات الحديثة عن تركيب العناصر وإمكان استحالة بعضها إلى بعض ... ، وكان « جابر » أول من استحضر الحامض الكبريتيك بتقطيره من الشبة وسماه زيت الزاج . ولست بحاجة إلى القول إن هذا عمل عظيم له أهميته الكبرى في تاريخ تقدم الكيمياء والصناعة ؛ وكيف لا تكون له أهميته ، وتقدم الحضارة يقاس بما تخرجه الأمم من هذا الحامض . واستحضر أيضاً حامض النيتريك ، كما أنه أول من كشف الصودا الكاوية ، وأول من استحضر ماء الذهب ، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض ، ولا تزال هذه الطريقة تستخدم إلى الآن في تقدير عيارات الذهب في السبائك الذهبية ، وغيرها . وهو — كذلك — أول من لاحظ ما يحدث من راسب « كلورور الفضة » ، عند إضافة محلول ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة . وينسب إليه استحضر مركبات أخرى غير التي مرت : ككربونات البوتاسيوم ، وكربونات الصوديوم ، واستعمل ثاني أكسيد المنغنيز في صنع لزجاج ، ودرس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها . وقد استعمل بعضها فيما بعد في تحضير الأكسجين . ولا يخفى أن جميع هذه المركبات ذات أهمية عظمى في عالم الصناعة ؛

فبعضها يستعمل في صنع المفرقات والأصبغة ، وبعضها الآخر في السجاد الصناعي والصابون والحرير الصناعي .

وبحث « جابر » في السموم ، وله فيها « كتاب السموم ودفع مضارها » . ولعله أروع ما كتب في الموضوع ، وهو من أندر المؤلفات ، ابتاعه قبل ثلاثين عاما البحاثة « أحمد باشا تيمور » ، وكتب عنه بشيء من التفضيل .

ولقد سار « جابر » في معالجة بحوث الكتاب على طريقة علمية لا تختلف في جوهرها عما هو جار عليه الآن ، فأتى فيه على أسرار وأقوال الفلاسفة اليونان في السموم وأفعالها ، كما ضمنه آراء جديدة وتقسيما لأنواع السموم وأدويتها وتأثيرها وأفعالها في أجسام الحيوانات ، مما لم يصل غيره إليه .

ولهذا الكتاب أهمية كبرى عند علماء تاريخ العلوم ، وذلك لما له من وثيق العلاقة بالطب والكيمياء ، وسأتى على شيء من أقسامه ومحتوياته . وهو ينتدى كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم : قال « أبو موسى جابر بن حيان الصوفى » : قد ارتسمت أطال الله بقاءك ما أمرت به وأحدثت من الشرح ما علمت أنك من الفهم بحسبه . وانتهيت إلى إرادتك وأتيت على حاجتك وأرجو أن تبلغ به رغبتك وتنال به بغيتك ، وتكون به راضيا ولأدبك كافيا ... قال بعضهم : إن السم جسم كوفى ذو طبائع غالبية مفسدة لمزاج أبدان الحيوان ... وقال آخر : إنه مزاج طبائع غالبية لدواب الحيوان بذاته . وقال بعضهم : بأنه مزاج قوة ، مزاج غالب مفسد ومصلح . فهذه آراء الناس في حده ؛ فأما عرضنا في هذا الكتاب فهو الإبانة عن أسماء أنواع السموم ، وكنه أفعالها ، وكيفية ما يسقى منها ، ومعرفة الجيد من الرديء ، ومنازل صورها ، والأعضاء المخصوصة المقابلة لجوهرية خواصها . وأذكر من ذلك السم الذى يكون نافذا بفعله في سائر البدن والمهلك بحملته »

وينقسم الكتاب إلى فصول خمسة :

الأول : فى أوضاع القوى الأربع وما لها مع الأدوية المسهلة ، والسموم القاتلة وحالة تغير الطبائع ، والكيموسات المركبة منها أجسام الحيوان .

الثاني : في أسماء السموم ومعرفة الجيد منها والردىء ، وكيفية ما يسقى من كل واحد منها وكيف يسقى ، ووجه إيصالها إلى الأبدان .

الثالث : في ذكر السموم العامة الفعلة في سائر الأبدان والتي تخص بعض أبدان الحيوان دون بعض ، والتي تخص بعض الأعضاء من أبدان الحيوان دون بعض .

الرابع : في علامات السموم المسقاة والحوادث العارضة منها في الأبدان والانتذار فيها بالخلاص ، والمبادرة إلى علاجه .

الخامس : في ذكر السموم المركبة وذكر الحوادث الحادثة منها .

السادس : في الاحتراس من السموم قبل أخذها ، فإذا أخذت لم تكدر تضر ، وذكر الأدوية النافعة من السموم إذا شربت من قبل بعد الاحتراس منها .

ويتبين من الكتاب أن « جابرا » قسم السموم إلى حيوانية ، ونباتية ، وحجرية ، وذكر من السموم الحيوانية : مرارة الأفاعى ، ومرارة النمر ، ولسان السلحفاة ، وذنب الأيل ، والأرنب البحرى ، والضفدع ، والمقارب . ومن السموم النباتية : قرون السنبلة ، والأفيون ، والشيلم ، والحنظل ، والشوكران ...

ومن السموم الحجرية : الزئبق ، والزرنيخ ، والزاج ، والطلق ، وبرادة الحديد ، وبرادة الذهب ...

وقد أيمهت في وصف كل من هذه السموم وأتى على عملها وأثرها في أجسام الحيوانات .

ويمتاز جابر على غيره من العلماء بكونه في مقدمة الذين عملوا التجارب على أساس علمي ؛ هو الأساس الذي نسير عليه الآن في المعامل والمختبرات . ولقد دعا « جابر » إلى الاهتمام بالتجربة وحث على إجرائها مع دقة الملاحظة ، كما دعا إلى التأني وترك العجلة . وقال : إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة ، وإن المعرفة لا تحصل إلا بها . وطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية ألا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم

أن يعرفوا السبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهموا التعليمات جيدا ، لأن لكل صنعة أساليبها الفنية ، على حد قوله . وطالبهم بالصبر والمثابرة والتأني باستنباط النتائج واقتفاء « أثر الطبيعة مما تريده من كل شيء طبيعي » . وفوق ذلك طالب المشتغل بالكيمياء أن يكون له أصدقاء مخلصون يركن إليهم ، يحملون مزاياه وصفاته من صبر ومثابرة وشدة ملاحظة وعدم الوقوف عند الظواهر .

ولهذا لا عجب إذا كان « جابر » قد وفق في كثير من العمليات ؛ كالتبخير ، والتقطير ، والتكليس ، والإذابة ، والتبلور ، والتصعيد ، وغيرها من العمليات الهامة في الكيمياء ، فوصفها وصفا هو في غاية من الدقة ، وبين الغرض من إجراء كل منها .

وضع « جابر » عددا كبيرا من المؤلفات والرسائل وردت في كتاب الفهرست لابن النديم ، ومن كتبه التي ترجمت إلى اللاتينية : كتاب الجمع ، وكتاب الاستهام ، وكتاب الاستيفاء ، وكتاب التكليس . ولقد تركت هذه الكتب الأربعة وغيرها أبان الأثر عند العلماء والفلاسفة ، حتى إن بعضهم رأى فيها من المعلومات ما هو أرقى وأبعد أثرا مما يمكن أن تتصوره صادرا عن شخص عاش في « القرن التاسع لليلاد » ، مما يدل على قيمة هذه الكتب ونفاستها من الناحية العلمية والكيموية .

هذا بعض ما قام به جابر في العلم . ولا شك أنه بهذه الإضافات والطريقة العلمية التي سار عليها في بحوثه وتجاربه ، قد أحدث أثرا بعيدا في تقدم العلوم وخاصة الكيمياء ، فأصبح بذلك أحد أعلام العرب ومن مفاخر الإنسانية ، إذ استطاع أن ينتج وأن يبدع في الإنتاج ، مما جعل علماء أوروبا يعترفون له بالفضل والسبق والنبوغ .

٢ — محمد بن موسى الخوارزمي^(١)

إن الخوارزمي وضع علم الجبر وعلمه وعلم الحساب للناس أجمعين .

ظهر « الخوارزمي » في عصر المأمون ، وكان ذا مقام كبير عنده ، فأحاطه بضروب من الرعاية والعناية وولاه منصب بيت الحكمة ، كما جعله على رأس بعثة علمية إلى (الأفغان) بقصد البحث والتنقيب .

أصله من (خوارزم) ، وأقام في بغداد حيث اشتهر وذاع صيته وانتشر اسمه بين الناس .

برز في الرياضيات والفلك ، وكان له أكبر الأثر في تقدمهما وارتقاها ، فهو أول من استعمل علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب وفي قالب منطقي علمي ، كما أنه أول من استعمل كلمة « الجبر » للعلم المعروف بهذا الاسم ، ومن هنا أخذ الإفرنج هذه الكلمة واستعملوها في لغاتهم (Algebra) . وكفاه غمرا أنه أول من ألف كتابا في الجبر في علم يعد من أعظم أوضاع العقل البشري لما يتطلبه من دقة وإحكام في القياس .

ولهذا الكتاب قيمة تاريخية وعلمية ؛ فعليه اعتمد علماء العرب في دراساتهم عن الجبر ، ومنه عرف الغربيون هذا العلم .

وكذلك لهذا الكتاب شأن عظيم في عالم الفكر والارتقاء الرياضي ، ولا عجب فهو الأساس الذي شيد عليه تقدم الجبر . ولا يخفى ما لهذا الفرع الجليل من أثر في الحضارة من ناحية الاكتشاف والاختراع اللذين يعتمدان إلى حد كبير على المعادلات والنظريات الرياضية .

ولقد كان من حسن حظ النهضة العلمية الحديثة أن قيض الله المرحوم الأستاذ الدكتور « علي مصطفى مشرفة » ، والدكتور « محمد مرسي أحمد » فنشرا كتاب « الجبر والمقابلة » الذي نحن بصددده ، عن مخطوط محفوظ باكسفورد

(١) ظهر في عصر المأمون وتوفي خوالى سنة ٨٥٠ م .

في مكتبة (بودلين) ، وهذا المخطوط كتب في القاهرة بعد موت الخوارزمي بنحو ٥٠٠ سنة ؛ وقد علقا عليه وأوضحا ما استغلق من بحوثه وموضوعاته . ولقد سبقنا الغربيون إلى نشر هذا الكتاب والتعليق عليه ، كما سبقونا إلى نشره بالعربية ، وكان ذلك عام ١٨٣١ م ، ولأول مرة ينشر الدكتوران الأصل العربي « لكتاب الجبر والمقابلة » مشروحا ومعلقا عليه باللغة العربية ، فأسديا بذلك خدمة جليلة للتراث العربي وللنهضة الفكرية العربية الحديثة .

في هذا الكتاب الفريد أشار الخوارزمي في المقدمة إلى الدوافع التي تدفع العلماء إلى وضع الكتب ؛ وكان فيما ذهب إليه يخالف العادة المتبعة عند كثير من المؤلفين في عصره وما تلاه من العصور ، فقد كان مجددا في الفكرة التي أوردتها ، وقد صاغها في عبارات بسيطة لا تكلف فيها ، دون سجع أو تنميق . قال في بيان الدوافع :

« . . . ولم يزل العلماء في الأزمنة الخالية والامم الماضية يكتبون الكتب عما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظرا لمن بعدهم واحتسابا للأجر بقدر الطاقة ، ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك ذخره ، ويبقى لهم من الصدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة ، ويحملو أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه . أما رجل سبق إلى مستخرجا قبله فورثه من بعده ؛ وأما رجل شرح عما أبقى الآوا مستغلقا ، فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه ، وأما في بعض الكتب خلافا فلم شعثه وأقام أزره وأحسن الظن بصاحبه عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه . . . » .

وكذلك أشار في المقدمة إلى أن الخليفة المأمون الذي طلب إليه الكتاب وهو الذي شجعه على ذلك ، كما بين أيضا شأن « الكتاب » والفوا التي يجنيها الناس في معاملاتهم التجارية ، وفي مسح الأراضي ومواريتهم ، ووصاياهم . ويقول في هذا كله : « . . . وقد شجعنا ما فضل الله به الإمام المأمون — أمير المؤمنين — مع الخلافة التي جاز له إرثها وأكرمه بلباسها

وحلاه بزيقتها من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم وبسط كفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهما وتسهيل ما كان مستوعرا ؛ على أنى ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا ، حاصرا للطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه في موارثهم ووصاياهم ، وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم ، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه ، مقدما لحسن النية راجيا لأن ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى وجليل آلائه وجميل بلائه عندهم منزلته ، وبالله توفيقى فى هذا وفى غيره ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم

ولسنا بحاجة إلى القول إن المجال لا يتسع فى هذا الكتاب لشرح فصول كتاب الخوارزمى والتعليق عليها . ويمكن الرجوع — لمن أراد — إلى كتابنا : « تراث العرب العلمى ، ؛ ففيه التفصيلات الوافية فى هذا الشأن ، ولكن لابد من الإشارة إلى الكتاب لما له من أهمية فى تاريخ تقدم الفكر الرياضى : قسم الخوارزمى الأعداد التى يحتاج إليها فى الجبر إلى ثلاثة أنواع : جذر أى (س) ومال أى (س^٢) ومقرّد ، وهو الخالى من س . وجعل المعادلات على ضروب ستة ، وقد أوضحها وبين حلولها . وهذه مشروحة وموضحة فى كتابنا : تراث العرب العلمى .

ومن هذه الأنواع والحلول ، يتبين أن العرب كانوا يعرفون حلول معادلات الدرجة الأولى ، والدرجة الثانية ؛ وهى نفس الطرق الموجودة فى كتب الجبر الحديثة ، ولم يجهلوا أن لهذه المعادلات (أى معادلات الدرجة الثانية) جذرين ، واستخرجوها إذا كانا موجبين ؛ وهذا من أهم الأعمال التى توصل إليها العرب فى علم الجبر ، وفاقوا بها غيرهم من الأمم التى سبقتهم .

وتنبه الخوارزمى إلى الحالة التى يكون فيها الجذر كمية تخيلية . جاء فى كتابه : « واعلم أنك إذا نصفت الأجذار وضربتها فى مثلها ، فكان يبلغ ذلك أقل من الدراهم التى مع المال فالمسألة مستحيلة ... » أى أنه حينما تكون

السكية التي تحت علامة الجذر سالبة ، وفي هذه يقال لها تخيلية — بحسب التعبير الرياضى الحديث — ولا يكون هناك حل للمعادلة . وأتى على طرق هندسة مبتكرة فى حل بعض المعادلات من الدرجة الثانية .

ثم يأتى بعد ذلك إلى « باب الضرب » ويبين كيفية ضرب الأشياء (وهى الجذور) بعضها فى بعض إذا كانت منفردة ، أو كان معها عدد ، أو كان يستثنى منها عدد ، أو كانت مستثناة من عدد . وكيف تجمع بعضها إلى بعض وكيف تنقص بعضها من بعض

ويعقب ذلك باب الجمع والنقصان حيث وضع عدة قوانين لجمع المقادير الجبرية وطرحها وضربها وقسمتها ، وكيفية إجراء العمليات الأربع على الكميات الصم ، وكيفية إدخال المقادير تحت علامة الجذر أو إخراجها منها .

ثم يأتى إلى باب « المسائل الست » . ويقول فى هذا الصدد :
« ... ثم اتبعت ذلك من المسائل بما يقرب من الفهم وتخف فيه المؤونة ، وتسهل فيه الدلالة ، إن شاء الله تعالى »

ثم يأتى بعد ذلك إلى باب « المسائل المختلفة » وفيه نجد مسائل مختلفة تؤدى إلى معادلات من الدرجة الثانية وكيفية حلها ، وهى على نمط بعض المسائل التى نبحثها فى كتب الجبر الحديثة التى تدرس فى المدارس الثانوية .

بعد هذه الأبواب يأتى باب المعاملات ، حيث يقول : « ... اعلم أن معاملات الناس كلها من البيع والشراء والصرف والإجارة وغير ذلك ، على وجهين بأربعة أعداد يلفظ بها السائل وهى : المسعر ، والسعر ، والثمن ، والمثمن . . . »

ويوضح معانى الكلمات ويورد مسائل تتناول البيع والإجارات وما يتعامل به الناس من الصرف والكيل والوزن . ويعقب المعاملات باب المساحة وفيه يوضح معنى الوحدة المستعملة فى المساحات ، كما يأتى على مساحات بعض السطوح المستقيمة الأضلاع والأجسام ، وكذلك مساحة الدائرة والقطعة ، ويشير إلى النسبة التقريبية وقيمتها . وأورد برهانا لنظرية فيثاغورس ، واقتصر على المثلث القائم الزاوية المتساوى الساقين واستعمل كلمة (سهم) لتدل على

العمود النازل من منتصف القوس على الوتر، ووجد من قطر الدائرة والسهم طول الوتر، كما وجد حجوم بعض الأجسام؛ كالهرم الثلاثي، والهرم الرباعي، والمخروط.

وأخيرا يأتي إلى كتاب الوصايا، ويتطرق إلى مسائل عملية تتعلق بالوصايا، وتقسيم التركات، وتوزيع الموارث، وحساب الدور.

ولكتاب الجبر هذا الذي ألمحنا إلى محتويات فصوله، شأن تاريخي كبير. إذ كل ما ألفه العلماء والرياضيون فيما بعد كان مبنيا عليه، فقد بقي عدة قرون مصدرا اعتمد عليه علماء العرب في مختلف الأقطار في بحوثهم الرياضية، كما أنه كان النبع الذي استقى منه فحول علماء أوروبا في القرون الوسطى. وقد نقله إلى اللاتينية (روبر أوف شستر Robert of Chester) وكانت ترجمته أساسا لدراسات كبار العلماء أمثال: (ليونارد أوف بيزا Leonard of Pisa) الذي اعترف بأنه مدين للعرب بمعلوماته الرياضية و (كردان Cardan) و (تارتا كليا Tartaglia) و (لوقا پاسيولي Luca Pasioli) و (فراري Feriari) وغيرهم.

ولا يخفى أنه على بحوث هؤلاء تقدمت الرياضيات وتوسعت موضوعات الجبر العالي. وقد نشر الكتاب، (فردريك روزن F. Rosen) كما نشر ترجمته في لندن عام ١٨٣١. وفي سنة ١٩١٥ نشر (كاربنسكي Karpinsky) ترجمة للكتاب المذكور عن ترجمة «شستر» إلى اللاتينية. ولهذا الكتاب شروح كثيرة ظهرت في العصور التي تلت الخوارزمي لكبار رياضيي العرب وعلمائهم، فقد اعتمدوا عليه وأخذوا عنه كثيرا. ومنهم من استعمل نفس المعادلات التي وردت فيه في مؤلفاتهم ورسائلهم.

إن من أكبر المآثر، بل من أكبر النعم التي جاد بها العرب على العالم، نقلهم الحساب الهندي وتهذيبهم الأرقام الهندية المنتشرة في العالم، ويعود الفضل في تناول الأرقام إلى الخوارزمي وغيره من رياضيي العرب، فلولا مؤلفاتهم في الحساب لما عرف الناس الأرقام وقدرها وفوائدها ومزاياها.

ونرى إتماما لموضوع الأرقام ، ولما لها من أهمية في تاريخ الحضارة ، أن نأتى على نبذة موجزة عن تاريخ الترقيم واستعمال الصفر :

إن النظام الذى نتبعه الآن في الترقيم مبنى على أساس القيم الوصفية ، وبوساطته يمكن ترقيم جميع الأعداد وإجراء الأعمال الحسابية بسهولة كبيرة . ولقد بقيت الأمم في القرون الخالية كالمصريين ، والبابانيين ، وغيرهم محرومة من هذا النظام ، وكانوا يجدون صعوبة في إجراء الأعمال الحسابية ، حتى إن عمليتي الضرب والقسمة كانتا تقتضيان جهدا كبيرا ووقتا طويلا . ولو قدر لأحد علماء اليونان الرياضيين أن يبعث فقد يعجب من كل شيء ، ولكن عجبه سيكون على أشده حين يرى أن أكثر سكان الأقطار في أوروبا وأميركا يتقنون عمليتي الضرب والقسمة ، ويجرونهما بسرعة وبدون عناء .

ولما نهض العرب نهضتهم العلمية أيام العباسيين اقتبسوا من الهنود الأرقام الهندية ، وقد قدروا النظام الترقيمي عند الهنود ، ففضلوه على حساب الجمل الذى كانوا يستعملونه من قبل . ومن الغريب أن في بلاد الهند أشكالا متنوعة ومختلفة الأرقام . ولكن العرب بعد أن اطلعوا على أكثر هذه الأشكال كونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما باسم : « الأرقام الهندية » ، وعرفت الثانية باسم : « الأرقام الغبارية » ؛ ففي بغداد والجانب الشرقى من العالم الإسلامى عم استعمال الأولى : أى الأرقام الهندية ، وهى لا تزال شائعة ومستعملة في بلادنا . وشاع استعمال الثانية : أى الأرقام الغبارية في القسم الغربى ، في الأندلس وإفريقية والمغرب الأقصى ، وهذه الأرقام هى المستعملة الآن في أوروبا وهى المعروفة باسم : الأرقام العربية (Arabie Numeraes) ، ولم يتمكن الأوروبيون من استعمال هذه الأرقام في الأعمال الحسابية إلا بعد انقضاء : قرون عديدة من اطلاعهم عليها ؛ أى أنه لم يعم استعمالها في أوروبا والعالم إلا بعد انتهاء القرن السادس عشر للميلاد .

ولم يفتن أحد قبل الهنود لاستعمال « الصفر » ، في المنازل الخالية الأرقام . وقد أطلقوا عليها لفظة « سونيا » ومعناها : « فراغ » ، واستعملوا النقطة (.)

كعلامة للصفر . وقد أخذها العرب عنهم واستعملوها في معاملاتهم ، ويقال : إن الهنود لم يلبثوا أن عدلوا عن استعمال النقطة وأخذوا يكتبون الصفر بصورة دائرة .

ونرجع الآن إلى « الخوارزمي » فنقول : إنه وضع كتابا في الحساب كان الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة ؛ وقد نقله « ادلارد أوف باث » إلى اللاتينية تحت عنوان (Algarimi de Numero Indarwm) وهذا الكتاب هو أول كتاب دخل أوروبا . وقد بقي زمنا طويلا مرجع العلماء والتجار والحاسبين ، والمصدر الذي عليه يعتمدون في بحوثهم الحسابية . وقد يعجب القارى إذا علم أن الحساب بقي عدة قرون معروفة باسم : (الغروتمى) نسبة إلى الخوارزمي ، ومن هذا الكتاب وغيره من الكتب العربية التي دخلت أوروبا — فيما بعد — عرفت أوروبا الأرقام العربية (الهندية) .

وأبداع « الخوارزمي » في الفلك ، وأتى على بحوث مبتكرة فيه وفي المثلثات « فلقد اصطنع زيجما (أى جداول فلكية) السند هند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السند هند وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس ، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس . . . وليس المهم أنه أبداع في الفلك وتوفى في الأزياج ، بل المهم أن زيجه هذا كان له الأثر الكبير في الأزياج الأخرى التي عملها العرب فيما بعد ، إذ استعانوا به واعتمدوا عليه وأخذوا عنه . ويقول ابن الأدمى : « فاستحسنه أهل ذلك الزمان وطاروا به في الآفاق . وما زال نافعا عند أهل العناية بالتعديل إلى زماننا هذا . . . وهو من المجددين لجغرافية بطليموس ، وتجديده هذا على رأى نلليتنو : « لا يعتبر مجرد تقليد للآراء الإغريقية ، بل هو بحث مستقل في علم الجغرافية لا يقل أهمية عن بحث أى كاتب أوروبى من مؤلفي ذلك العصر . . . »

وللخوارزمي مؤلفات أخرى منها : كتاب زيج الخوارزمي ، وكتاب في تقويم البلدان شرح فيه آراء بطليموس ، وكتاب التاريخ ، وكتاب جمع بين الحساب

والهندسة والموسيقى والفلك . ويقول (سارطون) : إنه يشتمل على خلاصة دراساته لا على ابتكاراته ، وله أيضا كتاب العمل بالاسطرلاب .

وعلى كل حال ، فالخوارزمي من أكبر علماء العرب ومن العلماء العالميين الذين تركوا مآثر جليلة في العلوم الرياضية والفلكية . فهو واضع علم الجبر في شكل مستقل منطقي ، وهو المبتكر لكثير من بحوث الجبر التي تدرس الآن في المدارس الثانوية والعالية ، وإليه يرجع الفضل في تعريف الناس بالأرقام الهندية ، وفي وضع بحوث الحساب بشكل عالمي لم يسبق إليه ، بحيث يصح القول إن « الخوارزمي » : « وضع علم الجبر وعلم الحساب للناس أجمعين . »

خلق في سماء الرياضيات ، وكان نجما متألقا فيها ، اهتدى بنوره علماء العرب وعلماء أوروبا ، وكلهم مدين له ، بل المدنية الحديثة مدينة له بما أضاف من كنوز جديدة إلى كنوز المعرفة الثمينة .

٣ - الكندي^(١)

«... الكندي من الاثنى عشر عبقرى الذين هم من الطراز الأول في الذكاء...»
(كاردانو)

الكندى من الاثنى عشر عبقرى الذين هم من الطراز الأول في الذكاء على رأى العالم الشهير « كاردانو » : وهو من أشهر فلاسفة الإسلام ومن الذين لهم فضل كبير على الفلسفة والرياضيات والفلك . وقد عرف في الشرق والغرب بمؤسس الفلسفة الإسلامية .

قال عنه ابن النديم : « إنه فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم بأسرها ، وفيلسوف العرب . كان عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق والنجوم وتأليف اللحن وطبائع الأعداد... » ، واعترف باكون (Bacon) بفضلته فقال : « إن الكندي ، والحسن بن الهيثم ، في الصف الأول مع بطليموس » . وهو أول من حاز لقب فيلسوف الإسلام . اشتغل في الهندسة وألف فيها . وقد جعل الشهرزورى الوصف الأول للكندى كونه مهندساً ، واعترف بذلك البيهقى أيضاً فقال : « كان الكندي مهندساً خائضاً غمرات العلم... » وكان العلماء في القرن التاسع وما بعده يرجعون إلى نظرياته ومؤلفاته عند القيام بأعمال بنائية كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة والفرات .

رأى الكندي بثاقب نظره أن الاشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب مضيعة للوقت والمال ، في عصر كان يرى فيه الكثيرون غير ذلك ، وذهب إلى أكثر من ذلك . فقال : إن الاشتغال في الكيمياء بقصد الحصول على الذهب يذهب بالعقل والجهود ؛ ووضع رسالة سماها : « رسالة بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم » ، ومن الغريب أن بعضاً من رجال الفكر في عصره والعصور التي تلتها قد هاجموا وطعنوا في رأيه الذى ضمنه هذه

(١) ولد في مطلع القرن التاسع الميلادى حوالى سنة ٢٨٠١م . وتوفي في بغداد في أواخر سنة ٢٨٦٧م .

الرسالة . وكذلك كان الكندي لا يؤمن بأثر الكواكب في أحوال الناس ، ولا يقول بما يقول به المنجمون من التنبؤات القائمة على حركات الأجرام . ولكن هذا لا يعنى أنه لم يشتغل في الفلك ؛ فقد وجه إليه اهتمامه من ناحيته العلمية وقطع شوطاً في النجوم وأرصادها ، وله في ذلك مؤلفات ورسائل . وقد اعتبره بعض المؤرخين واحداً من ثمانية هم أئمة العلوم الفلكية في العصور الوسطى . وقد يكون هذا الرأي الذى قال به من عدم تأثير الكواكب في الإنسان هو صورة من نظرياته التى توصل إليها بما يتعلق بالنفس الإنسانية وعالم الأفلاك .

ومن دراسة لرسائله في « العلة الغريبة للكون والفساد ، يتجلى أنه كان بعيداً عن التنجيم ، لا يؤمن بأن للكواكب صفات معينة من النحس والسعد ، أو من العناية بأمر معينة وهو حين يبحث في العوامل الكونية وفي « نظرية الفعل ، وأوضاع الأجرام السماوية يبدع ويكون « العالم ، بمعنى الكلمة الدقيق . فقد لاحظ أوضاع الكواكب ، وخاصة الشمس والقمر ، بالنسبة للأرض وما لها من تأثير طبيعى وما ينشأ عنها من ظاهرات . . . يمكن تقديرها من حيث الكم والكيف والزمان والمكان ، وأتى بأراء خطيرة وجريئة في هذه البحوث ، وفي نشأة الحياة على ظهر الأرض مما دفع الكثيرين من العلماء إلى الاعتراف بأن الكندي مفكر عميق من الطراز الحديث .

وأخرج الكندي رسائل في البصريات والمرئيات . وله فيها مؤلف لعله من أروع ما كتب ، وهو يلى كتاب الحسن بن الهيثم مادة قيمة . وقد انتشر هذا الكتاب في الشرق والغرب ، وكان له تأثير كبير على العقل الأوربى كما تأثر به باكون ووايتلو .

وله في ذلك رسالة بسبب زرقة السماء ، وتقول دائرة المعارف الإسلامية : إن هذه الرسالة قد ترجمت إلى اللاتينية ، وهى تبين أن اللون الأزرق لا يختص بالسماء ، بل هو مزيج من سواد السماء والأضواء الأخرى الناتجة عن ذرات الغبار وبخار الماء الموجود في الجو . ويمتدح « دى يور ، أيضاً

رسائل أخرى صغيرة وضعها الكندي في « المد والجزر » ويقول بصدها :
« وعلى الرغم من الأخطاء التي تحويها هذه الرسالة إلا أن نظرياتها قد وضعت
على أساس من التجربة والاختبار . . »

واشتغل الكندي في الفلسفة ؛ وله فيها تصانيف وهؤلغات جعلته من
المقدمين . ويعتبرها المؤرخون نقطة تحول في تاريخ العرب العلمى والفلسفى ،
إذ كانت فى عهده وقفا على غير المسلمين العرب .

ويعترف الأقدمون بأثره فى الفلسفة وفضله عليها ، فنجد ابن « أبى أصيبعة »
يقول : « وترجم الكندي من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ،
ولخص المستصعب ، وبسط العويص » ، وهذا يدل على أنه قد فهم الفلسفة
اليونانية ، وعلى أن فهمه وصل درجة أخرجتها من اليونانية إلى العربية . وكان
الهدف من دراسته الفلسفة أن يجمع بينها وبين الشرع ، وقد تجلى هذا فى أكثر
مصنفاته . وقال البيهقى : « وقد جمع فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع
وأصول المعقولات » ، وقد وجه الفلسفة الإسلامية وجهة الجمع بين
أفلاطون وأرسطو .

والكندى إمام أول مذهب فلسفى إسلامى فى بغداد ، كما يقول (ماسينيون) .
وقد أثرت الفلسفة فى اتجاهات تفكيره ، فكان ينهج منهاجاً فلسفياً يقوم على
العناية بسلامة المعنى من الوجهة المنطقية واستقامته فى نظر العقل .

وله منهاج خاص به يقوم أولاً على تحديد المفهومات بألفاظها الدالة عليها
تحديداً دقيقاً بحيث يتحرر المعنى . : وهو لا يستعمل ألفاظاً لا معنى لها ،
وذلك لأن « ما لا معنى له فلا مطلوب فيه » . والفلسفة إنما تعتمد على ما كان
فيه مطلوب — فليس من شأن الفلسفة استعمال ما لا مطلوب فيه . . » وكذلك
يقوم منهاج الكندي على ذكر المقدمات ، ثم يعمل على إثباتها على منهاج
رياضى استدلالى « قطعاً لمكابرة من ينكر القضايا البينة بنفسها ، وسداً
لباب اللجاج من جانب أهل العناد . . » ومن يطلع على بعض رسائل الكندي
يجد أن الطريقة الاستنباطية تغلب عليها وأن « منهاجه منطق رياضى يدهش
الإنسان فى إتقانه فى ذلك العصر البعيد . . »

وهو يلجأ في طريقة البحث إلى عرض رأى من تقدمه على أقصر السبل وأسهلها سلوكا وإكمال بيان ما لم يستقصوا القول فيه « اعتقادا منه أن الحق الكامل لم يصل إليه أحد وأنه يتكامل بالتدرج بفضل تضامن أجيال المفكرين » . ولا تخلو رسائل الكندى من أفكار تشبه ما عند المعتزلة بحسب طريقتهم في التعبير ، غير أن الكندى — كما يقول الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة — « يطبقها على نظام الكون في جملة وتفصيله ، وأن تفكيره يتحرك في التيار المعتزلى الكبير في عصره دون أن يفقد طابعه الفلسفى القوى وشخصيته المميزة وروح الخاصة ... » .

والكندى واسع الاطلاع ، اشتهر بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية ، وهو لم يقف عند الاطلاع والتبحر ، بل أنتج وكان منتجا إلى أبعد الحدود ، تدلنا على ذلك مصنفاته العديدة التى وردت فى الفهرست ، وقد جعلها ابن النديم على سبعة عشر نوعا . ولقد وضع الكندى ٢٢ كتابا فى الفلسفة ، و ١٩ كتابا فى النجوم ، و ١٦ كتابا فى الفلك ، و ١٧ كتابا فى الجدل ، و ١١ كتابا فى الحساب ، و ٢٣ كتابا فى الهندسة ، و ٢٢ كتابا فى الطب ، و ١٢ كتابا فى الطبيعيات ، و ٨ كتب فى الكريات ، و ٧ كتب فى الموسيقى ، و ٥ كتب فى مقدمة المعرفة ، و ٩ كتب فى المنطق ، و ١٠ فى الإحكاميات ، و ١٤ فى الإحداثيات ، و ٨ فى الإبعاديات .

وكذلك له رسائل فى إلهيات أرسطو ، وفى معرفة قوى الأدوية المركبة ، وفى المد والجزر ، وفى علة اللون اللازوردى الذى يرى فى الجو ، وفى بعض الآلات الفلكية ، ومقالات فى تحاويل السنين ، وعلم المعادن ، وأنواع الجواهر والأشباه ، وأنواع الحديد والسيوف وجيدها .

ومن هنا يتجلى خصب قريحته ، وعلى أنه كان واحد عصره فى معرفة العلوم بأسرها ، وهى « تدل على إحاطته بكل أنواع المعارف التى كانت لعهد على اختلافها إحاطة تدل على سعة مداركه وقوة عقله وعظم جهوده » ، كما يشهد ما عرف منها وما تنوقل من مقتطفاتها بما للكندى من استقلال فى البحث

ونظر ممتاز . وقد هالت هذه المصنفات الأقدمين ، فاعترفوا بها . قال صاحب
الفهرست . « إنه فاضل دهره وواحد » . وقال « ابن أبي أصيبعة » ، في طبقات
الاطباء : « وإن له مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جدا في جميع العلوم » .
وكذلك كانت محل إعجاب « ابن نباتة » ، فقال بشأنها : « وانتقل يعقوب إلى
بغداد واشتغل بعلم الأدب ثم بعلوم الفلسفة جميعها ، فأتقنها وحل مشكلات
كتب الأوائل ، وحذا حذو أرسطوطاليس وصنف الكتب الجليلة الجمّة » .
ويرى بعضهم أن مؤلفاته من أهم العوامل التي دفعت الراغبين في التحصيل إلى
التلذذ عليه ، والأخذ عنه . كما رأى فيها أنها زانت دولة الخلافة في زمن
المعتصم . فقال ابن نباتة : « وكانت دولة المعتصم تتجمل بالكندى وبمصنفاته
وهي كثيرة جدا » . وجماع القول في مصنفات الكندى ورسائله أنها تدل على
شمول عام لميادين المعرفة ، وعلى أنواع من الاهتمام بكل الاتجاهات والتيارات
الفكرية في عصره لا تنهيا إلا للعقول الكبيرة .

وللكندى أثر كبير في العقليات تناوله الأوربيون من بعض مؤلفاته التي
طبعت في أوروبا منذ أول عهد العالم بالطباعة . وقد وضع نظرية في العقل
أوضح فيها آراء الذين سبقوه من الفلاسفة اليونان بآراء له ، فجاءت نظرية
جديدة ، ظلت تنبؤا مكانا عظيما عند فلاسفة الإسلام الذين أتوا بعد الكندى ،
من غير أن ينالها تغيير يذكر . ويرى بعض الباحثين أنها من المميزات التي
تتميز بها الفلسفة الإسلامية في كل عصورها ، فهي تدل على اهتمام العرب
والمسلمين بالعقل إلى جانب رغبتهم في التوسع في البحوث العلمية الواقعية .

وللكندى رسالة في أنه لا تنال الفلسفة إلا بالرياضيات ، أي أن الإنسان
لا يكون فيلسوفا إلا إذا درس الرياضيات . ويظهر أن فكرة اللجوء إلى
الرياضيات وجعلها جسرا للفلسفة قد أثرت في بعض تأليفه . ووضع تأليفا
في الإيقاع الموسيقي قبل أن تعرف أوروبا الإيقاع بعدة قرون . وطبق
الحروف والأعداد على الطب لا سيما في نظرياته المتعلقة بالأدوية المركبة .

ويقول دى بور : « والواقع أن الكندى بنى فعل هذه الأدوية كما بنى فعل
الموسيقى على التناسب الهندسى ، والامر في الأدوية أمر تناسب في الكيفيات

المحسوسة ، وهي : الحار ، والبارد ، والرطب ، واليابس . ، إلى أن يقول :
« ويظهر أن الكندي عول على الحواس — ولا سيما حاسة الذوق — في الحكم
على هذا الأمر ، حتى لقد نستطيع أن نرى فلسفته شيئا من فكرة التناسب بين
الإحساسات . . . » وهذا الرأي من مبتكرات الكندي ، ولم يسبق إليه
على الرغم من كونه خيالا رياضيا . وكانت هذه النظرية محل تقدير عظيم عند
« كاردانو » أحد فلاسفة القرن السادس عشر للميلاد جعلته يقول : « إن
الكندي من الإثني عشر عبقرى الذين هم من الطراز الأول في الذكاء » .

والكندي مخلص للحقيقة ، يقدر الحق ، ويرى في معرفة الحق كمال
الإنسان وتمامة ، ويتجلى ذلك في رسالة الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة
الأولى . فقد جاء في هذه الرسالة أن أعلى الصناعات الإنسانية وأشرفها مرتبة
صناعة الفلسفة . ولماذا ؟ لأن حدها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ،
ولأن عرض الفيلسوف في علمه إصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق .

ويعرف الكندي للحق قدره ويقول في هذا الشأن : « وينبغي أن لا نستحي
من الحق واقتناء الحق من أين يأتي ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأهم
المباينة لنا ، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق . ، ليس ينبغي بخس الحق
ولا التصغير بقائله ولا بالآتي به ولا أحد بخس بالحق بل كل يشرفه الحق » .
ويرى الكندي أن معرفة الحق ثمرة لتضامن الأجيال الإنسانية ، فكل جيل
يضيف إلى التراث الإنساني ثمار أفكاره ، ويمهد السبيل لمن يحمي بعده ويدعو
إلى مواصلة البحث عن الحق ، والمثابرة في طلبه وشكر من يشغل نفسه
وفكره في ذلك ؛ وهو يعتبر طالب الحق شركاء ، وأن بينهم نسبا ورابطة قوية
هي رابطة البحث عن الحق والاهتمام به . وقد دفعه اهتمامه بالحق وطالبه
إلى الشعور بمسئوليته ، وأن عليه أن يساهم في بناء الحقيقة ويدعو إلى الحذب
على طالبها والتفاني في إسعافه ، وبذلك يدفع بالجهود الفلسفية إلى الأمام .

وقد جاء يؤيد ما ذهبنا إليه قوله في رسالته في الفلسفة الأولى ما يلي :
« ... ومن أوجب الحق أن لا نذم من كان أحد أسباب متافعا الصغار الهزلية ،

فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجديدة ، فإنهم وإن قصرُوا عن بعض الحق فقد كانوا لنا أنساباً وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم التي صارت لنا سبلاً وآلات مؤدية إلى علم كثير مما قصرُوا عن نيل حقيقته ، ولا سيما إذا هو بين عندنا وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير أهل لساننا . إنه لم ينل الحق — بما يستأهل الحق — أحد من الناس بجهد طلبه ، ولا أحاط به جميعهم ، بل كل واحد منهم ، إما لم ينل منه شيئاً وإما نال شيئاً يسيراً بالإضافة إلى ما يستأهل الحق . فإذا جمع يسير ما نال كل واحد من القائلين الحق منهم اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل . فينبغي أن يعظم شكرنا للآتين يسير الحق . فضلاً عما أتى بكثير من الحق ، إذ أشركونا في غمار فكرهم وسهلوا لنا المطالب الحقيقة الخفية بما أفادونا من المقدسات المسهلة لنا سبل الحق ، فإنهم لو لم يكونوا ، لم يجتمع لنا من شدة البحث في مددنا كلها هذه الأوائل الحقيقة التي بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية . فإن ذلك إنما اجتمع في الأعصار المتقدمة ، عصراً بعد عصر ، إلى زماننا هذا ، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب في ذلك . . .

والكندی في حياته كان منصرفاً إلى جد الحياة ، عاكفاً على الحكمة ، ينظر فيما التماسا لكمال نفسه . وفوق ذلك كان ذا روح علمي صحيح أبعد عنه الغرور وجعله يرى الإنسان العاقل مهما يبلغ من العلم فهو لا يزال مقصراً ، عليه أن يبقى عاملاً على مواصلة البحث والتحصيل . وقد قال في هذا الشأن : « العاقل من يظن أن فوق عليه علماً ، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة . والجاهل يظن أنه قد تنهى فتممته النفوس لذلك » .

٤ - الجاحظ^(١)

يقول أبو الفضل ابن العميد الوزير :
« ... إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ... »

« الجاحظ ، وليد النظام ، ظهر في القرن التاسع لليلاد ، وكان معتزلياً وفيلسوفاً واسع الاطلاع على لغة العرب وآدابهم وأشعارهم وأخبارهم ، درس المؤلفات اليونانية وغيرها ، وتبلذ على أكابر علماء الكلام والفقاء واللغويين . خالط الناس على اختلاف طبقاتهم . وعانى الفقر حيناً وتمتع بالغنى والجاه أحياناً . اتصل بالحكام والأمراء والخلفاء فأكرموا فضله ونبوغه وأحلوه المكان اللائق بأدبه وعلمه . عاصر الخليفة المهدي ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمستعين ، والمعتز ، ومات في خلافة المهدي بالله .

شاهد الأحداث التي وقعت في عهود هؤلاء ، وقد كان كثير الأسفار ، يدرك أن في السفر تغييراً يحدد قواه ونشاطه ، ورياضة لها أثرها في صقل عقله وتوقد ذهنه . فقد سافر الجاحظ (إلى الشام ، وانطاكية) وتغلغل في صحارى جزيرة العرب ، وفي البرارى والقفار ، فتعلم من هذا كله الشيء الكثير مما أكسبه معرفة بطباع الناس وأخلاقهم وسلوكهم . وقد ساعده على كسب هذه المعرفة استعداد واسع ، للأخذ والاقتباس والعطاء حتى يمكن القول : « إن كتبه أغزر مصدر لدارسى الحياة الاجتماعية في عصره ... »

لقد لاقى « الجاحظ » من عنيت الناس وحسدهم ولومهم ما نغص عليه الحياة ، ولكن لم يحل ذلك دون تقدير الناس وذوى السلطان لفضله وعلمه ونبوغه ؛ فذاق عز السلطان كما ذاق ذله ، وتقلب في نعيم الجاه كما تعرض لمتاعبه وخشونته . وليس عجيباً أن يصاب الجاحظ بما أصيب به ، فهو عبقرى ؛ والعبقرية في كثير من الأحيان نقمة على صاحبها ونعمة للآخرين .

(١) ولد في البصرة حوالى سنة ٧٧٥ م وتوفى فيها سنة ٨٦٨ م .

أخذ « الجاحظ » عن اليونان ، والهند ، والفرس ، وتأثرت ثقافته بما أخذ واقتبس عن هذه الأمم . « فالجاحظ نزاع إلى التجديد وهو لا يرى بأساً بأن يدخل العربية عنصر من عناصر آداب الأمم المعروفة في عصره المشهورة بالعلم والحكمة والأخلاق والآداب .. » كما يقول الأستاذ « شفيق جبرى » في كتابه النفيس « الجاحظ » .

ولقد جاء في كتاب « الحيوان » للجاحظ ما يؤيد أخذه ونقله ، قال :
« ... وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقض شيئاً ... » وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرية إلى قرية ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها ... »

والثابت أن « الجاحظ » لم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر ..

كتب « الجاحظ » في موضوعات مختلفة متعددة ، وأجاد في ذلك وفي عرضها بأسلوب لا يحارى . وقد قال المسعودى في مروجه عن أسلوبه : « .. ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه ... » وقد نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ .. وكان إذا تخوف ملل القارىء وسأم السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة .. » ويقول الأستاذ « أحمد أمين » : إن « الجاحظ » مزج في كتبه التي وقعت بين أيدينا العلم بالأدب ، ولم يقتصر على ذكر البراهين النظرية بل استعان بالتاريخ والشعر وبما يعرف من أحداث ، وما جرب هو نفسه من تجارب .. » ومزج ما تعلم بما قرأ ، بما سمع ، بما شاهد ، بما جرب ... » وقد وضع هذا كله في « أسلوب سمح فضفاض » يزيد طلاوته تقديره للنادرة الحلوة والفكاهة العذبة . والجاحظ أعظم رجل أخرجته مدرسة النظام على رأى « دى بور » . وهو فيلسوف طبعى ؛ سار على غرار النظام في منهج البحث وتحرير العقل ، وفي الشك والتجربة قبل الإيمان واليقين . واستطاع بأسلوبه

العذب السهل أن يجلو نقاطا غامضة في بعض البحوث العقلية والفلسفية وفي موضوعات الاعتزال : « وقد وسع ضيقها وقربها إلى كل ذهن يفهم ، فاتسعت دائرة المعارف ووصلت به إلى أذهان لم تكن تسيع أقوال الفلاسفة والمتكلمين ، وأقنع عقول قوم لم يكن يقنعهم القول الموجز والتعبير المجمل . . . »

و « الجاحظ » مخلص للحق محب للمعرفة شغوف بالصدق والإنصاف . يتجلى ذلك في مقدمة كتاب « الحيوان » حيث قال : « . . . جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الخيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا وبين الصدق سببا . وجب إليك التثبیت ، وزين في عينيك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق . . . »

وكان رائده الحق وضالته الحقيقة ، ينشد الوصول إليها عن طريق التثبت والتجربة والعقل والبرهان . . .

كان الجاحظ يؤمن بأن العلم « مشاع » ليس ملكا لامة دون أخرى ، وأنه إنما وضع ليستفيد جميع الناس على تعدد أهوائهم واختلاف نحلهم . جاء في مقدمة كتاب « الحيوان » ما يلي : « .. وهذا « كتاب » تستوى فيه رغبة الأمام وتتشابه فيه العرب والعجم ؛ لأنه وإن كان عربيا أعرايا وإسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة . . . »

لقد أوضح « الجاحظ » في هذه الكلمات القليلة « الأصول » التي سار عليها في كتابه « الحيوان » في تحرى الحقيقة والاستعانة بالعقل والحواس في سبيل الوصول إلى معرفتها . وهذا يعنى اللجوء إلى التجربة والمعاينة والتحقيق ليثبت من صحة النظرية أو الرأي ، وليكون الحكم أقرب إلى الصحة والحقيقة .

وأدرك « الجاحظ » ما في الإنسان من مزايا تدفعه إلى التقدم ، جاء في كتاب « الحيوان » قوله : « . . . وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر بما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا . . . »

ومن هنا يتجلى إدراك « الجاحظ » لما أدركه بعض الفلاسفة في هذا العصر ، فقد سبقهم في ملاحظتهم الدقيقة عن الإنسان ومزاياه التي أدت إلى التقدم والارتقاء . فالإنسان يأخذ ما عمله غيره ويضيف إليه ، وكيفية الأخذ ومقدار الزيادة مرهونان بعوامل عديدة لا شأن لنا بها الآن . وهذه المزية الكامنة في الإنسان هي التي تميزه عن الحيوان . فالإنسان منذ الأزل يعتمد على غيره ، ويجد العبرة فيمن سبقوه ، ثم يحاول الإتيان بشيء جديد . وعلى هذا فالاعتماد والابتكار هما من العوامل اللازمة لتقدم الإنسان . بل لا تقوم حضارة ولا تزدهر مدنية إلا على أسس من الاعتماد والابتكار . فلقد اعتمد المصريون على البابليين والكلدانيين والفينيقيين ، واعتمد الإغريق على المصريين ، كما اعتمد الرومان والهنود على من سبقهم من الإغريق وغيرهم . وأخذ العرب عن هؤلاء ، واقتبست أوروبا عن العرب وعن الذين سبقوهم ، وهكذا فالجهود الفكرية ملك عام يمكن لمن يريد أن يعتمد عليها ويقتبس منها ، وأن يخرج بالعبر التي تؤدي إلى الحركة والتقدم .

و « للجاحظ » آراء قيمة في العقل والإرادة تدارسها العلماء والفلاسفة في عصره والعصور التي تلت . فالإنسان عند الجاحظ قادر على أن يعرف الخالق بعقله ، وعلى أن يدرك الحاجة إلى الوحي الذي ينزل على الأنبياء . وهو يرى أن لا فضل للإنسان إلا بالإرادة ، وأن الأفعال تصدر عنه بالطبع ، وأن كل عليه اضطرارى يأتيه من الله . بل إن المعارف ليست من فعل الإنسان لأنها « . . متولدة إما عن اتجاه الحواس أو من اتجاه النظر ، ولذلك قال : إن الإنسان في تحصيل معارفه ليس له إلا توجيه الإرادة ، وما يحدث بعد ذلك فاضطرار وطبيعة . . » ويقول الجاحظ في هذا الشأن : « . . إن المعارف كلها ضرورية ، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعباد كسب سوى الإرادة ، ويحصل أفعاله منه طباعا . . » وقال أيضا : بالقدر خيره وشره من العبد وبسلطان العقل ، لا يسلم بصحة شيء إلا إذا استساعه العقل ، فالأدب عنده خاضع للنقد . وكذلك فلسفة أرسطو فقد انتقدها وعاب على أرسطو أمورا كثيرة تتعلق بالأصول التي كان يتبعها في تحقیقاته . فهو (أى الجاحظ)

يرى أن أرسطو لم يثبت بعض الأمور بالعيان والسمع والامتحان والتجربة .
وقد أتى في كتاب « الحيوان » ، على بعض أقوال أرسطو في الحيوان فقندها
وأظهر نواحي الضعف فيها ، وبين كيف أن أرسطو لو لجأ إلى التجربة
لتحقيقها لما قال بها ولما أتى على ذكرها .

وكذلك أنكر « الجاحظ » ، على آخرين من فلاسفة اليونان أشياء جاءوا
بها ، وقد ردها ولم يتقيد بها ، لأن العقل لا يستسيغها ولا يقبلها ، ودعا
إلى نبذها .

وكان الجاحظ مطبوعاً على البحث عن أصل كل شيء وعن علته ، دون أن
يقتصر على الانقياد والتقليد . وقد ورد في كتابه « الحيوان » ، في مواضع كثيرة
ما يدل على أنه كان يرد الرأي إلى العقل ، ولا يأخذ بأى شيء حتى يحكم عقله
ويجعله المرجع الأخير ، فإن أجاز « العقل » ، ذلك الرأي أو الشيء أجاز
وأخذ به ، وإن لم يحزه أهمله ورماه .

وكان يستعين بالعقل إلى أبعد الحدود ، ولا يعتمد على الحواس إلا على
أساس معونة العقل . قال في هذا الشأن : « ... فلا تذهب إلى ماتريك العين ،
واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم
باطن للعقل ، والعقل هو الحجة ... » فالأدلة والبرهان هي دليله وطريقته
في البحث .

وكان « الجاحظ » لا يجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ويخرجه
البرهان من باب الإنكار . ويقول « الأستاذ شفيق جبرى » ، في هذا الصدد
ما يلي : فالأدلة والبراهين من أعمال العقل ، وهذه الطريقة إنما هي طريقة
(ديكارت) ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لا تصدق
إلا ما كان واضحاً ، صدق ما كان واضحاً . فالوضوح إنما هو أصل الأمر
في اليقين . فما ينبغي لقوة من القوى الظاهرة أن يكون لها سلطان على حرية
تفكيرنا . وما القوى الظاهرة إلا السلطة والأوهام والمصلحة والأحزاب ...
فما أشبه قول (ديكارت) لا تصدق إلا ما كان واضحاً بقول الجاحظ :
لا أجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ... » .

وكذلك لم يسلم الحديث النبوى من نقده ، فقد أدخله فى دائرة العقل ولم يقبل الأخذ به إلا على أساس العقل . وإذا اختلف الناس فيه (فى الحديث) فالحكم للعقل لا لغيره . وفى رأيه أن إتباع الآراء دون تمحيص وروية ، عجز . وقال بضرورة إرجاعها إلى العقل وإخضاعها له . ومن يطلع على كتاب الحيوان ، يتبين له صحة ما ذهبنا إليه من تقيده بالعقل والأخذ بما يجيزه العقل ، ومن مهاجمته رجال الحديث لأنهم — على رأيه — جماعون لا يشغلون عقولهم . وقد قال عنهم فى الكتاب المذكور : « ... ولو كانوا يروون الأمور مع علمها وبرهاناتها خفت المؤونة . ولكن أكثر الروايات مجردة ؛ وقد اقتصرنا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان ... » . وفى هذا الكتاب الجامع تتجلى دقة الملاحظة والتمحيص عند « الجاحظ » ؛ فهو يلجأ إلى التجربة ليتحقق من صحة نظرية من النظريات أو رأى من الآراء ، فقد جرب فى الحيوان والنبات ، وفى كل تجربة كان يسير على نهج خاص ، ففى بعضها « ... كان يقطع طائفة من الأعضاء ، وفى بعضها كان يلقى على الحيوان ضرباً من السم ، وحيناً كان يرمى بتجربته إلى معرفة بيض الحيوان والاستقصاء فى صفاته ، وكان حيناً يقدم على ذبح الحيوان وتفطيش جوفه وقائضه . ومرة كان يدفن الحيوان فى بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان . وكان فى أوقات يبيع بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفى أوقات كان يجمع أضداد الحيوان فى إناء من قوارير ليعرف تقائلها . وكان يلجأ فى بعض الأحيان إلى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم تأثيرها فى الحيوان .

ولم يقف الجاحظ عند التجارب بنفسه واتباع منهاج خاص لكل منها ، بل كان فى كثير من الأحيان يشك فى النتائج التى يتوصل إليها ويستمر فى الشك وتكرار التجربة ، بل يدعو إلى ذلك كله حتى تثبت صحة النظريات والآراء وتتجلى له الحقيقة ويتعرف على مواضع اليقين والحالات الموجبة لها . وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلماً . فلو لم يكن ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه .

ولست أعنى مما ذهبت إليه أن تجارب الجاحظ وتحرياته وتحقيقاته علمية بالمعنى الحديث وغير ناقصة ، وأنه كان يسير فيها كما يسير علماء القرن العشرين . فالجاحظ من علماء القرن التاسع للميلاد ، وليس من الحق أن نقيس نتاجه وراثته وتجاربه بالمقياس الذى نستعمله فى هذا العصر ، ولكن يمكن القول إن فى « الجاحظ » صفات العالم ، فهو من رواد الحقيقة . ويحاول الوصول إليها عن طريق التجربة وغير التجربة ، وبمعونة المادة ومعونة العقل ، وأنه كان — كذلك — دقيق الملاحظة ، يعتمد على الحس ويتنزه عن الغرض فيما يجرب أو يمحس .

وعلى هذا فليس عجيباً على (الجاحظ) — وهذه طرائقه فى التحقيق ومنهجه فى البحث — أن يهزأ بالخرافات والآراء الشائعة غير المعقولة ؛ فكان لا يأخذ بأقوال الناس ، بل كان يحكم العقل فيما يقولون ويروون من قصص وأخبار عن الحيوانات وغيرها . ويمجى فى تفسيره للظواهر والطبائع حسب المعقول وطبائع الأشياء . وأبان صراحة بأن العقل الصحيح يجب أن يكون أساساً من أسس التشريع ، وعلى هذا فالعقل عند « الجاحظ » هو المرجع ، وهو الحكم فى التفسير والاختلاف بالأحاديث النبوية . . .

وترك « الجاحظ » ثروة علمية وأدبية أودعها فى كتب عدة ، وقد وصل بعضها إلى أيدينا وهى : الحيوان ، والبيان والتبيين ، والبخلاء وغيرها من كتب الأدب .

أما مؤلفاته فى الاعتزال فلم يصل الناس شئ منها ، ولعل أبلغ وصف لتراث الجاحظ ما قاله « أبو الفضل بن العميد » الوزير : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً . . . » .

٥ - ثابت بن قرة^(١)

من الذين مهدوا لإيجاد حساب التكامل والتفاضل

يدهش المؤرخون من حياة بعض العلماء ومن نتائجهم الضخم الحافل بالمبتكرات والنظريات ، ويحيط هذه الدهشة إعجاب ؛ اذ يرون هؤلاء المنتجين يدرسون العلم للعلم وقد عكفوا عليه رغبة منهم في الاستزادة وفي كشف الحقيقة والوقوف عليها . وكان هذا نفر من العلماء يرى في البحث والاستقصاء لذة هي أسمى أنواع اللذات وهتاعا للعقل هو أفضل أنواع المتاع ، فتتج عن ذلك تقدم في فروع العلوم المختلفة أدى إلى ارتقاء المدنية وازدهارها .

ولقد كان في العرب نفر غير قليل رغبوا في العلم ودرسوه حبا في العلم ، وعرفوا حقيقة اللذة العقلية ، فراحوا يطلبونها عن طريق الاستقصاء والبحث والاخلاص للحق والحقيقة والكشف عن القوانين التي تسود الكون والأنظمة التي يسير العالم بموجبها .

ومن هؤلاء « ثابت » ؛ فقد كان من الذين تعددت نواحي عبقريتهم ، فنبغ في الطب ، والرياضيات ، والفلك ، والفلسفة ، ووضع في هذه كلها وغيرها مؤلفات جليلة ، ودرس العلم للعلم ، وشعر باللذة العقلية ، فراح يطلبها في الرياضيات والفلك ، فقطع فيها شوطا بعيدا ، وأضاف إليها ومهد إلى إيجاد أهم فرع من فروع الرياضيات ؛ هو التكامل والتفاضل (Salculus)

ولد « ثابت » في (حران سنة ٢٢١ هـ وتوفي في بغداد سنة ٢٨٨ هـ) . وكان في مبدأ أمره صيرفيا بحران ، ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل فمر فيها وبرع .. ويقال : إنه حدث بينه وبين أهل مذهبه (الصابئة) أشياء أنكروها عليه في المذهب فحرم عليه رئيسهم دخول الهيكل ، فخرج من (حران) وذهب إلى (كفر توما) حيث اتفق أن التقي بمحمد بن موسى الخوارزمي لدى رجوعه

(١) ولد في حران سنة ٨٣٥ م وتوفي في بغداد سنة ٩٠٠ م .

من بلاد الروم ، فأعجب هذا بفصاحة ثابت وذكائه ، فاستصاحبه معه إلى بغداد ووصله بالخليفة المعتضد ، فأدخله في جملة المنجمين .

كان ثابت محل احترام الخليفة المعتضد ورعايته . وقد أحاطه بعطفه وتقديره لعلبه وأغدق عليه العطايا والهبات وأقطعته « الضياع الجليلة » . وبما يدل على إجلاله لثابت واعترافه بالفضل ؛ أنه بينما كان يمشى ثابت مع المعتضد في الفردوس ؛ وهو بستان في دار الخليفة ، وقد اتكأ على يد ثابت ، إذ نثر الخليفة يده من يد ثابت بشدة ، فزرع ثابت ، فإن الخليفة كان مهيبا جدا ؛ فلما نثر يده من يد ثابت قال له : يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب أن يكون ، فإن العلماء يعلون ولا يعلون

و « ثابت » من ألمع علماء القرن التاسع لليلاد ، من الذين تركوا آثارا جمة في بعض العلوم ، وكان يحسن السريانية والعبرية واليونانية ، جيد النقل عنها . ويعده (سارطون) من أعظم المترجمين وأعظم من عرف في مدرسة (حران) في العالم العربي .

ويمتاز ثابت بناحيتين :

الأولى : نقله كثيرا من التآليف إلى العربية ، فقد نقل من علوم الأقدمين مؤلفات عديدة في الطب ، والمنطق ، والرياضيات ، والفلك ، وأصلح الترجمة العربية للجسطى ، وجعل متنه سهل التناول . واختصره اختصارا لم يوفق إليه غيره . وقد قصد من هذا المختصر تعميم الجسطى وتسهيل قراءته ، ولا يخفى ما أحدث تعميمه من أثر في نشر المعرفة وترغيب العلماء في الرياضيات والفلك .

أما الناحية الثانية : فهي إضافاته إلى الرياضيات . وسأشير إليها لما لها من أثر في تقدمها :

وضع ثابت دعوى « منالوس » في شكلها الحاضر ، واشتغل في الهندسة التحليلية وأجاد فيها إجادة عظيمة . وله ابتكارات سبق فيها « ديكارت » . وقد

وضع كتابا بين فيه علاقة الجبر بالهندسة ، والهندسة بالجبر ، وكيفية الجمع بينهما وحل بعض المعادلات التكميلية بطرق هندسية استعان بها بعض علماء الغرب في بحوثهم الرياضية في القرن السادس عشر للميلاد : ككاردان (Cardan) وغيره من كبار الرياضيين .

قد لا يصدق بعض الذين يعنون في العلوم الرياضية أن « ثابتا » من الذين مهدوا لإيجاد التكامل والتفاضل . ولا يخفى ما لهذا العلم من شأن في الاختراع والاكتشاف . فلولا هذا العلم ولولا التسهيلات التي أوجدها في حلول كثير من المسائل العويصة والعمليات الملتوية لما كان في الإمكان الاستفادة من بعض القوانين الطبيعية واستغلالها لخير الإنسان . جاء في كتاب تاريخ الرياضيات لسميث ما يلي : « ... كما هي العادة في أحوال كهذه يتعسر أن نحدد بتأكيد إلى من يرجع الفضل في العصور الحديثة في عمل أول شيء جدير بالاعتبار في حساب التكامل والتفاضل . ولكن في استطاعتنا أن نقول : إن ستيفن (Stevin) يستحق أن يحل محلا هاما من الاعتبار . أما ما أثره فتظهر في تناول موضوع إيجاد مركز الثقل لأشكال هندسية مختلفة اهتدى بنورها عدة كتاب اتوا بعده . ويوجد آخرون ، حتى في القرون الوسطى ، قد حلوا مسائل في إيجاد الحجم والمساحات بطرق يتيين منها تأثير نظرية إفساء الفرق (Theory of Exhaustion) اليونانية . وهذه الطريقة تم نوعا ما على طريقة التكامل المتبعة الآن . ومن هؤلاء يجدر أن نذكر ثابت بن قرة ، الذي وجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره ... » .

وأظن أن أساتذة الرياضيات يوافقوني على أن العقل الذي استطاع أن يجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره ، لهو عقل جبار مبدع يدل على خصب العقلية العربية وعلى أنها منتجة إلى أبعد حدود الإنتاج .

و « ثابت » مقالة في الأعداد المتحابة ، وهو استنباط عربي يدل على قوة الابتكار التي امتاز بها ثابت . ونفهم من هذه المقالة أن ثابتا كان مطلعا على

نظرية فيثاغورس ، في الأعداد . وأنه استطاع أن يجد قاعدة عامة لإيجاد الأعداد المتحابة ، وقد سبق وأوضحناها في كتابنا : « تراث العرب العلى » . و « ثابت » أول شرقى بعد الصينيين بحث في المربعات السحرية وخصائصها . و « ثابت » أرصاد حسان تولاهما في بغداد وأجملها في كتاب « بين فيه مذاهبه في سنة الشمس وما أدركه بالرصد في مواضع أوجها ومقدار سنيها وكية حركاتها وصورة تعديلها . . . » فقد استخرج حركة الشمس ، وحسب طول السنة النجمية ، فكانت أكثر من الحقيقة بنصف ثانية ، وحسب ميل دائرة البروج وقال بحركتين : مستقيمة ، ومتقبرة لنقطتي الاعتدال .

واشتهر « ثابت » في الطب ، وله فيه مؤلفات قيمة . ولم يكن في زمنه من يماثله في هذه الصناعة . وإن المجال لا يتسع لذكر جميع مؤلفاته لكثرتها ، ويمكن لمن يرغب في الاطلاع عليها أن يرجع إلى قائمتها في كتاب طبقات الأطباء ، حيث يتجلى له فضل « ثابت » على العلوم ، ويدرك الأثر الذي أحدثه في تقدمها . ومن المؤسف حقا أن لا يصادف الباحث إلا القليل من كتبه ورسائله ، وأن يكون القسم الأعظم قد ضاع أثناء الحروب والانتقالات . ومن هذه ما هو في غاية الخطورة من الوجهتين الرياضية والطبية . ولو عثرنا على بعض منها ؛ لانجلى بعض النقاط الغامضة في تاريخ الرياضيات . فلقد ظهر من رسالته في النسبة المؤلفة أنه استعمل « الجيب » ، والخاصة الموجودة في المثلثات والمسماة بدعوى الجيوب ، وكذلك لولا بعض القطع التي وصلت إلينا من كتاب له في الجبر ؛ لما عرفنا أنه بحث في المعادلات التكعيبية .

هذا يحمل من مآثر ثابت في الفلك والرياضيات يقين منه الأثر الكبير الذي خلفه في ميدان العلم ، كما تتجلى فيه العبقرية المنتجة التي تقدمت بالعلوم خطوات واسعة ومهدت لإيجاد فروع هامة من الرياضيات ؛ لولاها لما تقدم الاختراع والاكتشاف تقدمهما المشهود .

٦ - البتاني^(١)

«... من العشرين فلكيا المشهورين في العالم كله...»

(٧٧٧)

«البتاني» من عباقرة العالم الذين وضعوا نظريات هامة وأضافوا بحوثا مبتكرة في الفلك والجبر، ونظرة إلى مؤلفاته والأزياج التي عملها تبين خصب القريحة وترسم صورة عن عقليته الجبارة. كان البتاني من أبرز علماء القرن العاشر من الذين أسدوا أجل الخدمات إلى العلوم، اشتهر برصد الكواكب والأجرام السماوية. وعلى الرغم من عدم وجود آلات دقيقة كالتي نستعملها الآن، فقد تمكن من إجراء أرصاد لا تزال محل دهشة العلماء ومحط إعجابهم. لقد عده (كاجوري) و (هاليه) من أقدر علماء الرصد، وسماه بعض الباحثين «بطلبيوس العرب». وقال عنه (سارطون): إنه من أعظم علماء عصره وأنبع علماء العرب في الفلك والرياضيات. وبلغ إعجاب «لاند» العالم الفرنسي الشهير ببحوث البتاني وما أثره، درجة جعلته يقول: «إن البتاني من العشرين فلكيا المشهورين في العالم كله...».

رأى «البتاني» أن شروط التقدم في علم الفلك: التبصر في نظرياته وتقديرها والمثابرة على الأرصاد والعمل على إتقانها، ذلك: «لأن الحركات السماوية لا يحاط بها معرفة مستقصاة حقيقة إلا بتهادى العصور والتدقيق في الرصد...» وقد جاء في زيجته: «... وإن الذي يكون فيها من تقصير الإنسان في طبيعته عن بلوغ حقائق الأشياء في الأفعال كما يبلغها في القوة يكون يسيرا غير محسوس عند الاجتهاد والتحرز لا سيما في المدد الطوال، وقد يعين الطبع وتسعد الهمة، وصدق النظر وإعمال الفكر والصبر على الأشياء وإن عسر إدراكها. وقد يعوق عن كثير من ذلك قلة الصبر ومحبة الفخر والخطوة عند ملوك الناس بإدراك ما لا يمكن إدراكه على الحقيقة في سرعة، أو إدراك ما ليس من طبيعته أن يدركه الناس...».

(١) ولد في بتان، من نواحي حران، حوالي سنة ٨٥٠م وتوفي في العراق سنة ٩٢٩م.

وهو أول من عمل الجداول الرياضية لنظير المماس . ومن المحتمل أنه عرف قانون تناسب الجيوب . ويقال : إنه كان يعرف معادلات المثلثات الكرية الأساسية ، وأنه أعطى حولا رائعة بوساطة المسقط التقريبي لمسائل في حساب المثلثات الكرى . وقد عرف هذه الحلول « ريجيومونتانوس » وسار على منهاجها . وقد تمكن من اكتشاف معادلة مهمة تستعمل في حساب المثلثات الكرية أتينا عليها تفصيلا في كتابنا : « تراث العرب العلى » . وهذه المعادلة هي من جملة الإضافات الهامة التى أضافها العرب إلى علم المثلثات .

وفوق ذلك فقد استعمل « البتاني » الجيوب بدلا من أوتار مضاعف الأقواس . وهذا مهم جدا في الرياضيات . وإن الملمين بالمثلثات ليدركون أهمية إدخال الجيب . ويرون فيه ابتكارا ساعد على تسهيل المثلثات ، كما يعتبرونه تغييرا ذا شأن في العلوم الرياضية . وعرف « البتاني » القانون الأساسى لاستخراج مساحة المثلثات الكرية ، وأوجد اصطلاح جيب تماما ، كما استخدم الخطوط المماسية للأقواس وأدخلها في حساب الأرباع الشمسية وسماها الظل الممدود ، وهو المعروف بخط المماس .

وهناك بعض عمليات أو نظريات حلها (أو عبر عنها) اليونان هندسيا ، وتمكن « البتاني » من حلها والتعبير عنها جبريا . وكان « البتاني » في هذا مبتكرا ، وقد أتى بشيء جديد لم يعرفه القدماء .

ومن هنا يتبين أن البتاني من الذين ساهموا في وضع أساس المثلثات الحديثة ومن الذين عملوا على توسيع نطاقها . ولا شك أن إيجاده قيم الزوايا بطرق جبرية يدل على خصب قريحته ، وعلى هضمه لبحوث الهندسة والجبر والمثلثات هضمًا نشأ عنه الإبداع والابتكار .

درس « البتاني » تأليف بطليموس . وبعد أن وقف على دقائقها انتقد بعض النظريات فيها واستطاع أن يصلح بعضها الآخر . وكان يسير في ذلك على التجربة وتحكيم العقل والمنطق ، وقد بين حركة نقطة الذنب للأرض ، وأصلح قيمة الاعتدالين الصيفي والشتوي ، وقيمة ميل فلك البروج على فلك معدل

النهار ، وقد حسب القيمة فوجدها ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة ، وظهر حديثاً أنه أصاب في رصده إلى حد دقيقة واحدة : ودقق في حساب طول السنة الشمسية وأخطأ في حسابه بمقدار دقيقتين و ٢٢ ثانية ، وكذلك كان من الذين حققوا مواقع كثيرة من النجوم ، وقد صحح بعض حركات القمر والكواكب السيارة ، وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي ، وقد أقام الدليل عن تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية ، واستنتج من ذلك أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً على مر الأجيال ... ، وأثبت (على عكس ما ذهب إليه بطليموس) تغير القطر الزاوي الظاهري للشمس ، واحتمال حدوث الكسوف الخلقى . ويعترف « نلينو » بأنه استنبط نظرية جديدة ، تشف عن شيء كثير من الخدق وسعة الخيلة لبيان الأحوال التي يرى فيها القمر عند ولادته ... » .

وله أرصاد جلية للكسوف والخسوف اعتمد عليها (دثورن Dunthorne سنة ١٧٤٩) في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمن . ووضع البتاني كتباً عديدة في الفلك ، والجغرافيا ، وتعديل الكواكب . ولعل زيجه المعروف باسم « الزيج الصابي » من أهم مؤلفاته ، ويعد من أصح الأزياج ، وفيه أثبت جداول تتعلق بحركات الأجرام التي هي من اكتشافاته الخاصة ، كما أثبت الكواكب الثابتة لسنة ٢٤٩ هـ . ويقول (نلينو) « ... وفي هذا الزيج أرصاد البتاني ، وقد كان لها أثر كبير في علم الفلك وفي علم المثلثات الكرى ، وبقيت مرجعاً للفلكيين في أوروبا خلال القرون الوسطى . وأول عصر النهضة ... ، ويقال : إن هذا الزيج أصح من أزياج بطليموس ، ويعترف (بول Ball) بأن الزيج الصابي من أنفس الكتب ، وقال : إنه توفّق في بحثه عن حركة الشمس توفيقاً عجيباً . وقد ترجمه إلى اللاتينية (Plato of Tivoc) في القرن الثاني عشر للميلاد) باسم : علم النجوم . وطبع في (سنة ١٥٣٧ م في نورمبرغ) . ويقول (نلينو : إن الفونس العاشر صاحب « قشتالة » أمر بأن يترجم هذا الزيج من العربية إلى الإسبانية رأساً . وطبعت الترجمة عدة طبعات مصححة مع تعليقات على بعض بحوثها سنة ١٦٤٦ م . وقد اعتمد البتاني في زيجه على

الأرصاء التي أجراها بنفسه في (الرقة ، وأنطاكية) وعلى كتاب
« زيج الممتحن » .

ووضع البتاني للزيح الصابي مقدمة تعطي بيانا ضافيا عن الكتاب وعن
الخطة التي سار عليها في بحوثه وفصوله . وإنك إذ تقرأ هذه المقدمة تشعر
كأنك تقرأ مقدمة لكتاب حديث من وضع أحد كبار علماء هذا العصر .

ويعتبر البتاني — في هذه المقدمة — أن علم الفلك من العلوم السامية
المفيدة ، إذ يمكن بواسطته أن يقف الإنسان على أشياء هو في حاجة إليها وإلى
معرفة واستغلالها لما يعود عليه بالنفع ، وكذلك نجد — في المقدمة — بيانا
للطريقة التي يسير عليها في الكتاب ، وكيف أنه راجع كثيرا من الكتب
والأزياج وصحح بعضها ، وكيف أنه أوضح ما استعجم وفتح ما استغلق . وفي
الحقيقة أنه كان موقفا في زيجه هذا توفيقا حمل علماء الفلك في أوروبا على
الاعتراف بقيمته العلمية وأهميته التاريخية .

٧ - أبو بكر الرازي^(١)

« لقد خصصت جامعة برنستون في أمريكا أضخم ناحية في أجمل أبنيتها لماثر علم من أعلام الحضارة الخالدين : الرازي ... »

الرازي حجة الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر للميلاد ، ويعده معاصروه طيب المسلمين غير مدافع .

ظهر في منتصف القرن التاسع للميلاد ، واشتهر في الطب والكيمياء والجمع بينهما . وهو في نظر المؤرخين من أعظم أطباء القرون الوسطى كما يعتبره غير واحد أنه أبو الطب العربي .

قال عنه صاحب الفهرست : « ... كان الرازي أوجد دهره وفريد عصره . وقد جمع المعرفة بعلوم القدماء سيما الطب ... » ، وسماه ابن أبي أصيبعة بحالينوس العرب .

ولقد عرف الخليفة العباسي عضد الدولة مقامه ورأى أن يستغل مواهبه ونبوغه ، فاستشاره عند بناء الـبيمارستان العضدى ، في بغداد ، في الموضع الذى يجب أن يبنى فيه ، وقد اتبع الرازي في تعيين المكان طريقة مبتكرة يتحدث بها الأطباء وهى محل إعجابهم وتقديرهم ؛ فوضع قطعاً من اللحم فى أنحاء مختلفة من بغداد ولاحظ سرعة سير التعفن ، وبذلك تحقق من المكان الصحى المناسب لبناء المستشفى . وأراد عضد الدولة أن يكون فى هذا المستشفى جماعة من أفاضل الأطباء وأعوانهم ، فأمر أن يحضروا له قائمة بأسماء الأطباء المشهورين ، فكانوا يزيدون على المئة ، فاختر منهم خمسين بحسب ما وصل إلى عليه من مهارتهم وبراعتهم فى صناعة الطب ، فكان الرازي منهم . ثم إنه اقتصر من هؤلاء أيضاً على عشرة كان الرازي منهم . ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان الرازي أحدهم ، ثم إنه ميز فيما بينهم فبان له أن الرازي أفضلهم ،

(١) ولد فى الرى (من أعمال فارس) جنوبي طهران سنة ٨٥٤ م ، وتوفى فى بغداد

فجعله مديرا للبيمارستان العسدى . وكذلك اعترف بفضل الغريون وعلماء أميركا وجامعاتها . وما يدل على تقديرهم للطب العربى ورجاله اهتمام جامعة برنستون الأمريكية بالحضارة الإسلامية ، فقد خصصت أنخم ناحية فى أجمل أبنيتها لماثر علم من أعلام الحضارة الخالدين — الرازى — كما أنشأت دارا لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات وإخراجها ونقلها إلى الانجليزية ليتمكن العالم من الوقوف على آثار التراث الإسلامى فى تقدم الطب وازدهار العمران .

كان الرازى منتجا إلى أبعد حدود الإنتاج ؛ فقد وضع من المؤلفات مايزيد على المائتين والعشرين ، ضاع معظمها أثناء الانقلابات السياسية فى الدول العربية ولم يبق منها إلا القليل فى بعض مكتبات أوروبا .

ألف الرازى كتباً قيمة جدا فى الطب ، وقد أحدث بعضها أثرا كبيرا فى تقدمه وفى طرق المداواة ، وقد امتازت بما تجمعه من علوم اليونان والهنود . إلى آرائه وبحوثه المبكرة وملاحظات تدل على النضج والنبوغ ، كما تمتاز بالأمانة العلمية ؛ إذ نسب كل شىء نقله إلى قائله وأرجعه إلى مصدره .

لقد سلك الرازى فى تجاربه — كما يتجلى من كتبه — مسلكا علميا خالصا ، وهذا مما جعل لبحوثه فى الكيمياء قيمة دفعت بعض الباحثين إلى القول : « إن الرازى مؤسس الكيمياء الحديثة فى الشرق والغرب معا » .

وأبو بكر الرازى يجد العقل ومدحه . وقد أورد فصلا خاصا بذلك فى كتابه « الطب الروحانى » ؛ فهو يعتبر العقل أعظم نعم الله وأنفع الأشياء وأجداها ، وبه أدركنا ما حولنا واستطاع الإنسان بالعقل أن يسخر الطبيعة لمصلحته ومنفعته ، والعقل هو الذى ميز الإنسان بالعقل أن يسخر الطبيعة لمصلحته ومنفعته ، والعقل هو الذى ميز الإنسان على الحيوان . وقد رفع الرازى شأن العقل وأدرك محله وخطره وجلاله ؛ فطالب « بأن لا يجعله وهو الحاكم محكوما عليه ، ولا وهو الزمام مزموما ، ولا وهو المتبوع تابعا ، بل يرجع فى الأمور إليه ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه فنمضيها على إيمضائه ونوقفها على إيقافه . ولا نسلط عليه الهوى الذى هو آفته ومكدره والخائنه

على سنته ومحجته وقصده واستقامته . . . بل نروضه ونذله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه

وضع « الرازي » كتابا نفيسا ؛ هو كتاب : « سر الأسرار » ضمنه المنهاج الذى يسير عليه فى إجراء تجاربه ، فكان يبتدىء بوصف المواد التى يشتغل بها ، ثم يصف الأدوات والآلات التى يستعملها ، وبعد ذلك يصف الطريقة التى يتبعها فى تحضير المركبات .

وصف « الرازي » فى كتابه هذا وغيره ، ما يزيد على عشرين جهازا — منها الزجاجى ، ومنها المعدنى — وصفا حاله فيه التوفيق على غرار ما نراه الآن فى الكتب الحديثة التى تتعلق بالمختبرات والتجارب . وفوق ذلك كان يشرح كيفية تركيب الأجهزة المعقدة ويدعم شروحه بالتعليمات التفصيلية الواضحة . ولسنا بحاجة إلى القول إن هذا التنظيم الذى يتبعه « الرازي » هو تنظيم يقوم على أساس علمى يقرب من التنظيم الذى يسير عليه علماء هذا العصر فى المختبرات . و « الرازي » من أوائل الذين طبقوا معلوماتهم فى الكيمياء على الطب ، ومن الذين ينسبون الشفاء إلى إثارة تفاعيل كيموى فى جسم المريض . ويتجلى فضل « الرازي » فى الكيمياء بصورة واضحة فى تقسيمه المواد الكيموية المعروفة فى زمانه إلى أربعة أقسام أساسية وهى : المواد المعدنية ، والمواد النباتية ، والمواد الحيوانية ، والمواد المشتقة ، ثم قسم المعدنية لكثرتها واختلاف خواصها إلى ست طوائف . ولا يخفى ما فى هذا التقسيم من بحث وتجربة ، وهو يدل على « إلمام تام بخواص هذه المواد وتفاعلاتها بعضها مع بعض »

واستحضر « الرازي » بعض الحوامض ، ولا تزال الطرق التى اتبعها فى ذلك مستعملة حتى الآن . وهو (أى الرازي) أول من أتى على ذكر حامض الكبريتيك وقد سماه « زيت الزاج أو الزاج الأخضر » ونقله عن كتبه « أنبير الكبير » وسماه كبريت الفلاسفة . واستحضر « الرازي » بعض الحوامض ، ولا تزال الطرق التى اتبعها فى ذلك متبعة حتى الآن . واستخرج الكحول

باستقطار مواد نشوية وسكرية مخمرة ، وكان يستعمله في الصيدليات لاستخراج الادوية والعلاجات حينما كان يدرس ويطيّب في مدارس بغداد والري ، وأول من نقله عن كتب العرب (أرنودوفيلنيف) وقد أشاع استعماله في القرن الثالث عشر . أما (ريمون لول) فقد شرح أوصاف الكحول وخصائصه . وبعد ذلك جاء (لافوازييه) وعرفه التعريف المناسب والصحيح . واشتغل « الرازي » في حساب الكثافات النوعية للسوائل « واستعمل لذلك ميزانا خاصا سماه الميزان الطبيعي » .

وجاء « الرازي » بفكرة جديدة تعارض الفلسفة القديمة الموروثة وهي : « أن الجسم يحوى في ذاته مبدأ الحركة » . وهي تشبه ما ذهب إليه (لينتز) في القرن السابع عشر . ويعلق (دى بور) على هذا فيقول : « ... ولو أن رأى « الرازي » هذا وجد من يؤمن به ويتم بناءه ؛ لكان نظرية مثمرة في العلم الطبيعي »

و « الرازي » يعظم دراسة الطب وما يتصل بها من دراسات . ولعل هذا من عوامل اهتمامه بالكيمياء . وهو يمتاز عن الأطباء الذين عاصروه والذين أتوا بعده في كونه لمس أثر النواحي النفسية في العلاج والتطبيب ، فهو يرى : « ... أن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس ، وذلك لأن للنفس الشأن الأول فيما بينها وبين البدن من صلة ، فنجد أنه أوجب على طيب الجسم أن يكون طيبا للروح . فن أقواله التي وردت في كتبه : « ... على الطيب أن يوحى مريضه الصحة ويرجيه بها ، وإن لم يثق بذلك ، فزاج الجسم تابع لأخلاق النفس »

و « للرازي » مؤلفات قيمة في الطب . ولعل كتاب « الحاوي » من أعظمها وأجلها . وهو يتكون من قسمين : يبحث الأول في الأقرباءين ، والثاني في ملاحظة سريرية تتعلق بدراسة سير المرض مع العلاج المستعمل وتطور حالة المريض ونتيجة العلاج . وقد عدد (ماكس مايرهوف) للرازي ٣٣ ملاحظة سريرية في أكثرها متاع وطراقة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ، واعتمد عليه كبار علماء أوروبا ، وأخذوا عنه الشيء الكثير ، وبقي

مرجعهم في مدارسهم وجامعاتهم إلى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد . وله كتب أخرى جلية دفعت بالطب خطوات إلى الأمام . منها كتاب المنصوري الذي يحتوي على وصف دقيق لتشريح أعضاء الجسم كلها ، وهو أول كتاب عربي وصل إلينا في هذا البحث . ترجم إلى اللاتينية وكان له أهمية في أوروبا وبقي معمولا به عند الأطباء وفي الجامعات حتى القرن السابع عشر للميلاد . وله أيضا كتاب في الأمراض التي تعترى جسم الإنسان وكيفية معالجتها بالأدوية المختلفة والأغذية المتنوعة ، وقد أجاد فيه إجابة أثارت أطباء الشرق والغرب ، وبقي هذا الكتاب عدة قرون دستورا يرجع إليه علماء أوروبا في الموضوعات والبحوث الطبية .

وله كتاب الأسرار في الكيمياء ترجمه « كرىمونا » في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ، وكان الكتاب المعول عليه والمعتمد في مدارس أوروبا مدة طويلة . وقد رجع إليه (باكون) واستشهد بمحتوياته .

وكذلك « للرازي » كتاب نفيس في الحصبة والجدرى ، وهو من روائع الطب الإسلامي عرض فيه للمرة الأولى تفاصيل هذه الأمراض وأعراضها والتفرقة بينها ، وقد أدخل فيه ملاحظات وآراء لم يسبق إليها ، وقد ترجمه الأوروبيون إلى اللاتينية وغيرها من اللغات ، وله كتب عديدة وردت في كتاب « طبقات الأطباء » لا يتسع المجال لذكرها ، ولكن من الطريف أن أحدها كتاب موضوعه « كتاب من لا يحضره الطبيب » ويعرف بطب الفقراء . وقد شرح فيه كيفية معالجة المرض في غياب الطبيب والأدوية الموجودة في كل مكان . واعترف الغربيون بآثره وابتكاراته في أمراض النساء والولادة والمسائل الرمدية ، وكذلك له جهود في الأمراض التناسلية وجراحة العيون ، وفوق ذلك قال بالعدوى الوراثية .

واختتم الكلام عن الرازي بالقول الشائع المعروف :

« كان الطب معدوما ، فأحياه جالينوس ، وكان الطب متفرقا ، فجمعه

الرازي »

والرازي في الواقع لم يقف عند الجمع ، بل أضاف إضافات مهمة دفعت بالبحوث الطبية والكيموية خطوات إلى الأمام .

٨ - الفارابي^(١)

الفارابي من المقدمين في تاريخ تقدم الفكر . . .

كان منتجا إلى أبعد حدود الإنتاج ؛ أخرج إلى الناس من المؤلفات والرسائل ما يزيد على المئة ، أتى فيها على الفلسفة بعلمها وعلى النجوم والمناظر والمنطق والعدد والهندسة . وقد سار في عرض أكثرها على أسلوب ممتاز ، بالقصد في اللفظ والعمق في المعنى مع دقة في التعبير وقوة في التماسك وحسن الانسجام والنظام في التأليف وربط المواضيع ربطا محكما منطقيا .

ومن المؤسف حقا أن تضع أكثر مؤلفاته أثناء الانقلابات والفتن ، وقد سلم منها القليل . ومن هذا القليل ترجم الأوروبيون ما وقع في أيديهم ، ومنهم من نقل محتويات بعض الرسائل وادعاها لنفسه ، ثم ظهر أنه مأخوذ عن الفارابي .

وأثنى (روجر باركن) على « الفارابي » وعلى بعض مؤلفاته ، وذكره بين المقدمين في تاريخ تقدم الفكر كأقليدس ، وبطليموس ، وسانت أوغستين . ويمكن القول : إن مؤلفات الفارابي « مهدت السبيل لظهور ابن سينا وابن رشد . وكانت نبراسا لحكام الشرق والغرب ، وسراجا وهاجا يستضيئون بنوره ويسرون على هداه » .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد أن « الفارابي » أكبر الأثر في التفكير الأوروبي ، ولا يزال رجال الفلسفة والعلم في أوروبا وأمريكا يهتمون به إلى اليوم . واشتهر بالمنطق واهتم بشرح آراء المعلم الأول أرسطو طاليس وبيان فلسفته ، وتقريب فهمه إلى معاصريه مما جعل له عند العرب مكانة لا تداني ، حتى إنهم لقبوه بالمعلم الثاني . ويقول (Weberweg) : « إن تسمية « الفارابي » بالمعلم الثاني بعد أرسطو المعلم الأول ، قد جعل الفيلسوفين على قدم واحدة من المساواة » .

(١) ولد في فاراب ، من بلاد الترك ، فيما وراء النهر ، حوالي سنة ٨٧٢ م .

وتوفي في دمشق سنة ٩٥٠ م .

ومن المؤرخين من سماه فيلسوف الإسلام بالحقيقة ؛ وقال «ابن القفطى» :
إن «الفارابى» فيلسوف المسلمين غير مدافع . أما «ابن خلكان» فقد ذكر
أنه أكبر فلاسفة المسلمين وأنه لم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه . واطلع
المستشرقون والمؤرخون فى أوروبا وأمريكا على فلسفة الفارابى ودرسوها
وتأثروا بها ، وخرجوا بالقول : إن «الفارابى» مؤسس الفلسفة العربية ؛
ومنهم من يرى أنه زعيم أكبر فرقة فلسفية فى عصره والمقدم فيها وهو المرجع
وعليه الاعتماد .

وقال (دى فو) : «إن الفارابى شخصية قوية وغريبة حقا ، وهو عندى
أعظم جاذبية وأكثر طرافة من ابن سينا ، لأن روحه كانت أوفر تدققا
وجيشانا ، ونفسه أشد تأججا وحاسة ، لفكره وثبات كوثبات الفنان ، وله
منطق مرهف بارع متفاوت ، ولأسلوبه مزجية الإيجاز والعمق » . ويظهر أن
(ماسينيون) قد تأثر أكثر من غيره بفلسفة «الفارابى» وقدرها حق قدرها .
فصرح بأن «الفارابى» أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للملوم القديمة ، وهو
الفيلسوف فيها لا غير ، وهو مدرك محقق .

وكان «للفارابى» أثر بليغ فى الإسلام وفلاسفة القرون الوسطى من
مسيحيين ويهود ، ويدلنا على ذلك آثاره التى نجدتها فى مصنفات هؤلاء ، التى
تناولت آراء الفارابى ونظرياته بالعناية والاهتمام بها شرحا وتعليقا . ومذهب
«الفارابى» فى الفلسفة هو مذهب الأفلاطونية الحديثة ، مطبوعا بطابع
الإسلام ، ذلك المذهب الذى بدأ بترتيبه الكندى من قبله وأكمله ابن سينا
من بعده .

وقد اشتهر بتفسيره لكتب أرسطو لا سيما فيما يتعلق بالمنطق . وهو يعد
فى هذا المضمار من أعظم المفسرين . ولكن فضله لا يقف عند التفسير ولا عند
التمهيد للنهضة الفلسفية فى الإسلام ، بل بما له من «أنظار مبتدعة وبحوث فى
الحكمة العملية والعلمية عميقة سامية لم يتها بعد الباحثين كل الوسائل لتفصيلها
تفصيلا وافيا» .

ويرى كثيرون أن اهتمام «الفارابي» بالمنطق هذا الاهتمام العظيم ، قد أثر في التفكير عند العرب ، وتقدم به خطوات . فقد اعتبره آلة للفلسفة وأداة يمكن بواسطتها الوصول إلى التفكير الصحيح . وقد قال في هذا الشأن ما يلي :

« وأقول : لما كانت الفلسفة إنما تحصل بجودة التمييز ، وكانت جودة التمييز إنما تحصل بقوة الذهن على إدراك الصواب ، وكانت قوة الذهن حاصلة لنا قبل جميع هذه . وقوة الذهن إنما تحصل متى كانت لنا قوة بها نقف على الحق أنه حق يقين فنعتقده ، وبها نقف على الباطل أنه باطل يقين فتجنبه ، ونقف على الباطل الشبيه بالحق فلا نغلط فيه ، ونقف على ما هو حق في ذاته وقد أشبه بالباطل فلا نغلط فيه ولا نخدع . والصناعة التي بها نستفيد هذه القوة تسمى صناعة المنطق . »

وقد انتهى «الفارابي» إلى تعريف المنطق بالمعنى التالي : « المنطق هو العلم الذي نعلم به الطرق التي توصلنا إلى تصور الأشياء وإلى تصديق تصورها على حقيقتها ... » . وفي نظر الفارابي : أن المنطق قانون للتعبير بلغة العقل الإنساني عند جميع الأمم . فنسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو إلى اللسان والألفاظ ؛ فكل ما يعطينا علم النحو من القوانين في الألفاظ ، فإن علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات .. وعلم النحو إنما يعطى تخصص ألفاظ أمة ما ، وعلم المنطق يعطى قوانين مشتركة تعم ألفاظ الأمم كلها . . . »

ولقد أنصف «ابن صاعد» في كتابه «طبقات الأمم» الفارابي ، فاعترف بأنه بز في صناعة المنطق جميع أهل الإسلام وأربى عليهم في التحقق بها « فشرح غامضها وكشف سرها وقرب تنازلها وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعليم ، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس وإفراد وجوه الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها وكيف تعرف صور القياس في كل مادة منها ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة . »

وتعرض الفارابي لنظرية المعرفة وقد أودع بعض عناصرها متفرقة في كتبه ورسائله ؛ فمن عناصر نظرية المعرفة الصحيحة عند الفارابي — كما جاء في كتاب الدكتور فروخ عن الفارابي وابن سينا — : « المبانية أى اختلاف شيء عن شيء آخر في ناحية تشعر بها الحواس كالاختلاف في الحجم والمنس واللون والطعم والرائحة ، ومنها المعرفة ببادئ الرأي ، أى إن معرفة هذه الأشياء (معقولة في نفوسنا) وقد استقرت منذ زمن الطفولة الأولى . ومنها التخيل ، أى قياس ما لا نعرف على ما نعرف » .

وكان الفارابي يؤمن بالمنطق وبفوائده وأثره البالغ على الحياة العقلية وكيف أنه يمكن بالمنطق معرفة الآراء صحيحةا وفاسدها سواء أكانت منا أم من غيرنا ، وإدراك الزلل أو الصواب . وقد قال « الفارابي » ، في هذا الشأن : « فإننا إن جهلنا المنطق ، لم نقف من حيث نتيقن على صواب من أصاب منهم كيف أصاب ، ومن أى جهة أصاب ، وكيف صارت حجته توجب صحة رأيه ، ولا على غلط من غلط منهم أو كيف غلط ، ومن أى جهة غلط . أو غلط ، وكيف صارت حجته لا توجب صحة رأيه . فيعرض لنا عند ذلك إما أن نتخير في الآراء كلها حتى لا ندرى أيها صحيح وأيها فاسد ، وإما أن نزن أن جميعها على تضادها حق ، أو نزن أنه ليس في شيء منها حق ، وإما أن نسرع في تصحيح بعضها وتزييف بعضها ، ونزدم تصحيح وتزييف ما نزيفه من حيث لا ندرى من أى وجه هو كذلك . . . » .

وله كتاب جدير بالذكر هو كتاب : « آراء أهل المدينة الفاضلة » وضع فيه مذهبه الفلسفي كله مما يتعلق بآرائه في الإلهيات والنفس الإنسانية وقواها المتعددة المختلفة وفي الأخلاق والسياسة ؛ ويقول الأستاذ « العقاد » ، في صدد هذا الكتاب : « ويمتاز الفارابي من بين فلاسفة الإسلام بأنه عاجل البحث في السياسة من الناحية الفلسفية الخالصة . فالتفكير السياسي في نظام الدولة وتصوير المثل الأعلى للحكم ووضع الموازين الخلقية والمقاييس السياسية وتحديد الغاية من الحاكم والمحكوم ، ونقد المجتمع الذي يؤدي إلى الشرور والمقاسد ، كل هذه من الوسائل التي انفرد « الفارابي » بالبحث فيها والتي تدل على قوة

الشخصية واستقلال الرأي...» إلى أن يقول : « والمدينة الفاضلة اسم أطلقه الفارابي على المثل الأعلى للحكم ويريد به المدينة التي تحقق لأعضائها السعادة القصوى في الدارين... »

وفي الواقع أن « مدينة الفارابي » هذه ليست كما يتصور بعض المؤرخين صورة مصغرة لجمهورية أفلاطون ، اليوناني ، على الرغم من بعض المشاركات والتشابه بينهما في الأصول . ولكن هناك اختلافا كبيرا في الفروع والتفاصيل . فلقد استعان الفارابي بفلسفة اليونان وجمهورية أفلاطون ، واستعان بالإسلام وأحكامه وأضاف إلى هذا كله تجاربه وخبراته ، فكانت مدينته الفاضلة مدينة جديدة أحسن فيها الاختيار والاقتباس ، وأحسن فيها المزج والاستنباط ، ولونها بالألوان الأفلاطونية والإسلامية ، وعمل على امتزاجها وأحكم هذا الامتزاج ، فظهرت فيها قواعد سامية وأصول علمية يجدر بكل أمة السير عليها والاقتراب منها . من هذه القواعد والأصول ما يتصل بالآمة وأنها جسم واحد لا يستقيم أمره إلا بالتضامن والتعاون وتوزيع الأعمال وتنسيقها على أساس الاستعدادات والمواهب والقابليات ، وأن الدولة لا تتقدم ولا تسير نحو السعادة قدما إذا لم يكن على رأسها الحكماء والفلاسفة المعروفون بكمال العقل وقوة الإدراك وقوة الخيال ، وخصال أخرى سردها الفارابي على الوجه التالي : « أن يكون الرئيس تام الأعضاء سليم البدن جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له ، جيد الحفظ لما يفهمه ، ولما يراه يسمعه ، ولما يدركه ، جيد الفطنة ذكيا ؛ وإذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له ، محبا للتعليم والاستفادة ، منقادا له ، سهل القبول ، لا يؤلمه تعب التعليم ، ولا يؤذيه الكد الذي ينال منه ، غير شره على المأكول والمشروب ، محبا للصدق وأهله ، مبغضا للكذب وذويه ، كبير النفس ، محبا للكرامة محتقرا للمال ، ولسائر أعراض الدنيا ، محبا للعدل ، وأهله ، ومبغضا للجور والظلم عدلا غير صعب القيادة ، لا لجوجا ولا جموحا إذا دعى للعدل ، بل صعب القيادة إذا دعى إلى الجور وإلى القبح ، قوى العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل ، جسورا مقداما ، غير خائف ولا ضعيف النفس . »

وبحث الفارابي في تأليفه عن بعض روابط الاجتماع ، وقد ذكرها دون أن يناقش قيمتها . ويقول الدكتور « جميل صليبا » ، في كتابه (من أفلاطون إلى ابن سينا) ما يلي : « . . . » وما هو جدير بالإعجاب ، أن الفارابي يذكر في جملة ما ذكره عن هذه الروابط أمورا تذكرنا بـ (جان جاك روسو JJ Rousseau) في نظرية « العقد الاجتماعي Je Contract Social » ، وتذكرنا أيضا بغيره من علماء الاجتماع المتأخرين ، : فما قاله : « وقوم رأوا أن الارتباط هو بالإيمان والتحالف والتعاهد على كل ما يعطيه كل إنسان من نفسه ولا ينافر الباقين ولا يخاذلهم ، وهذا التحالف والتعاهد شبيه بتعاقد الأفراد الذي تكلم عنه (روسو) في كتاب « العقد الاجتماعي » . إلا أن « الفارابي » يذكر ذلك من غير أن يناقشه ويفنده . ومن هذه الروابط أيضا : « التشابه بالخلق والشم الطبيعية والاشتراك في اللسان واللغة ، والاشتراك في المنزل ، ثم الاشتراك في المساكن والمدن ، ثم الاشتراك في الصقع ، وأعلى هذه الروابط كلها رابطة العدالة » .

و « الفارابي » فوق ذلك أول من غنى بإحصاء العلوم : يتجلى ذلك في كتابه : « إحصاء العلوم » الذي نشره الدكتور « عثمان أمين » . ويرى (مونك) و (فارمر) أن هذا الكتاب يدل على أن « الفارابي » هو أول من وضع النواة لدوائر المعارف في العالم . وقد أيد هذا القول الأستاذ « مصطفى عبد الرزاق » فقال : « فليس مجانباً للحق قول من يرى أن « الفارابي » هو أول من وضع دائرة معارف ؛ ولسنا نعرف من قبل الفارابي من قصد إلى تدوين جملة المعارف الإنسانية في زمنه موطأة بجملة ، يسهل تناولها على المتأديبين . . . »

وكان هذا الكتاب محل عناية المؤلفين والعلماء في الغرب ، وقد ترك أبلغ الأثر في نظريات تصنيف العلوم في القرون الوسطى .

و « الفارابي » مخلص للحقيقة يحب لها ويدعو إلى محبتها والإخلاص لها ولو خالفت مذهب أرسطو ، فقد جاء في كتابه : « ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » في الفصل الذي يبحث في (معرفة الحال التي يجب أن يكون عليها

الرجل الذى يؤخذ عنه علم أرسطو ؛ فهى أن يكون فى نفسه قد تقدم وأصلح
الآخلاق من نفسه الشهوانية كيما تكون شهوته للحق فقط لا للذة ، وأصلح
مع ذلك قوة النفس الناطقة كيما يكون ذا إرادة صحيحة .. وأما قياس أرسطو
فينبغى أن لا تكون محبته له ، فى حد يحركه ذلك أن يختاره على الحق ... ،
ولقد دفعت محبة الفارابى للحق وإخلاصه للحقيقة إلى أن يقول بإبطال
صناعة التنجيم ، يخالف الكثيرين من علماء عصره والذين أتوا قبله
وبعده . وقد أبطل هذه الصناعة بحجج عقلية مشبعة بروح التهكم ،
ووضع فى ذلك رسالة سماها : « النكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام
النجوم » ، فبين فى هذه الرسالة فساد علم أحكام النجوم الذى يعزو كل ممكن
وكل خارق إلى فعل الكواكب وقراناتها ، لأن الممكن متغير لا يمكن معرفته
معرفة يقينية ... ، وفى رسالة أخرى بين « الفارابى » : أنه من الخطأ الكبير
ما يزعمه الزاعمون من أن بعض الكواكب تجلب السعادة وأن بعضها تجلب
النهس ، وانتهى الفارابى من هذا كله — كما يقول دى بور — « بأن هناك
معرفة برهانية يقينية إلى إكمال درجات اليقين نجدها فى علم النجوم التعليمى .
أما دراسة خصائص الافلاك وفعلها فى الأرض فلا نظفر منها إلا بمعرفة
ظنية ؛ ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم لا تستحق منا إلا الشك والارتياب . »
ويذكر الفارابى كذلك السبيل التى يسلكها من أراد الفلسفة ، ويبين أن
السبيل هى القصد إلى الأعمال وبلوغ الغاية : « فالقصد إلى الأعمال يكون
بالعلم ، وذلك أن تمام العلم بالعمل ، وأما بلوغ الغاية فى العمل فيكون أولا
بإصلاح الإنسان نفسه ، ثم إصلاح غيره ممن فى منزله أو فى مدينته . ومن هنا
يتجلى أن الفارابى كان يؤمن بالكفاح وحياة العمل ويدعو إلى عدم الانطواء
والانعكاف ، وأن الإنسان يجب أن لا يقف عند العلم والتحصيل .
فهو يقول : إن للفيلسوف فى هذا الكون رسالة تتجاوز العلم والتحصيل
وهو الذى « يحصل الفضائل النظرية أولا ثم الفضائل العملية ببصيرة
يقينية .. » وهو هنا قد أخذ عن اليونان رأى بأن الفلسفة هى علم كل يرسوم
لناصورة شاملة للكون فى مجموعه ، وزاد على هذا رأى قوله : إن الفيلسوف

هو الذى يحصل على هذا العلم الكلى ولا يقف عند هذه الحدود ، بل يتعداها إلى العمل ويكون له قوة على استعماله ، وتحقيق هذه الرسالة يخرج الفيلسوف إلى حياة العمل والكفاح والاختلاط بالناس ، حتى يتمكن الفيلسوف من القيام بما عليه من تبعات وواجبات هى إصلاح الفرد والجماعة . وفى نظره ؛ أن الفيلسوف الذى يقف عند العلوم النظرية ولا يتعداها إلى الجانب العملى هو فيلسوف زور وباطل لا صلة بينه وبين الحياة . فالحياة علم وعمل ، ولا بد للفيلسوف من أن يمتاز فى عمله كما يمتاز فى علمه ، ولهذا لا عجب إذا رأيناه يجعل أهمية كبرى لعلم الأخلاق وعلم السياسة . ولكن العجيب أن سيرته لم تشر على المتوال الذى رسمه لرسالة الفيلسوف ، فلم يكن من أهل الكفاح ولم يدخل حياة العمل ؛ وهو هادى عاكف على الفلسفة كثير التأمل يبتعد عن الناس ويقنع بما يقوم بأوده .

٩ - أبو الوفاء البوزجاني^(١)

من أعظم العلماء الذين لهم الفضل الكبير في تقدم العلوم الرياضية البوزجاني من علماء القرن العاشر لليلاد ، ومن أعظم علماء الرياضة عند العرب ، الذين كان لهم الفضل الكبير في تقدم العلوم الرياضية والفلكية . برع في الهندسة ، وله فيها استخرجات لم يسبق إليها . وقد اعترف ببرايعته وفضله المحققون في تاريخ العلوم ، وكذلك له في الفلك والمثلثات قدم ، يتجلى ذلك من المؤلفات والرسائل التي وضعها ، وامتاز على غيره بشروحه لمؤلفات إقليدس ، وديوفنطس ، والخوارزمي ، شروحا جللت غامضا وأوضحت ما كان مستغلقا فيها وسهلت مسالكها .

كتب في الجبر وزاد في بحوث الخوارزمي زيادات تعتبر أساسا لعلاقة الهندسة بالجبر . وقد حل هندسيا معادلات من الدرجة الرابعة . فاستطاع أن يجد حلولاً تتعلق بالقطع المكافئ . ولا يخفى أن هذه الحلول وغيرها مهدت السبيل لعلماء الغرب أن يتقدموا بالهندسة التحليلية خطوات واسعة فأدت إلى التكامل والتفاضل (Calculus) ؛ وهو أروع ما وصل إليه العقل البشري وعليه قام كثير من الاختراعات والاكتشافات .

واطلع (دى فو) و (سميث) و (سارطون) وغيرهم ، على بحوث البوزجاني في المثلثات ، فأقروا له بالفضل والسبق ، واعترفوا بأنه أول من وضع النسبة المثلثية (ظل) ، وأول من استعملها في حلول المسائل الرياضية ، وهذا عمل جليل لا يقدره إلا الذين يعنون بالرياضيات ولا يدرك أهميته إلا المختصون . وقد جعل البوزجاني في الخالدين لأنه بوضعه (ظل) في عداد النسب المثلثية ، إنما وضع أحد الأعمدة التي تقوم عليها المثلثات ، وكذلك أدخل البوزجاني القاطع والقاطع تمام ، ووضع الجداول اللامس ، وقد أوجد

(١) ولد في بوزجان سنة ٩٤٠ م ، وتوفي في بغداد سنة ٩٩٨ م .

طريقة جديدة لحساب جداول الجيب التي امتازت بدقتها ، حتى إن جيب زاوية ٣٠ دقيقة كان صحيحا إلى ثمانية أرقام عشرية .

ووضع بعض المعادلات التي تتعلق بجيب زاويتين ، وكشف بعض العلاقات بين الجيب والمماس والقاطع ونظائرهما ، واستعاض عن المثلث القائم الزاوية من الرباعى التام ، بنظرية (منالافوس) ، مستعينا بما يسمى قاعدة المقادير الأربعة ونظرية الظل ، واستخرج من هذا كله قانونا جديدا . ويقول (دى فو) : « ويحتمل في أنه المثلث الكرى ذى الزاوية غير القائمة أوجد أولا نظرية الجيب ، وكان لجميع هذه المعادلات أثر كبير في تقدم المثلثات كما كانت فتحة جديدا في عالم لرياضيات .

ولقد استوقفت بعض النظريات نظر (كوبرنيكس) ولكن (زائشكس) كشفها في صورة أكثر التواء وتعقيدا من الصورة التي استعملها « أبو الوفاء » . واعترف العلامة « الطوسى » بفضل « البوزجاني » في المثلثات ، فأشار إلى ذلك في كتابه المشهور بشكل القطاع . وظهرت عبقرية « البوزجاني » في نواح أخرى كان لها الأثر الأكبر في فن الرسم ، فوضع رسالة لم يتمكن من معرفة اسمها ، وقد ترجمها الغربيون بعنوان (Geometrical Construction) وفي هذه الرسالة طرق خاصة ومبتكرة لكيفية « الرسم » واستعمال الآلات اللازمة لذلك . وفيها أيضاً طرق لإنشاء الأجسام المنتظمة كثير السطوح حول الكرة . ولا شك أن هذه الطرق — كما يقول أكبر علماء الغرب — دفعت بأصول الرسم خطوات إلى الأمام . ويعترف (وبكه) بأن لطرق العمل التي اتبعها « البوزجاني » والتي تعتمد إلى حد ما على الأساليب الهندية ، أهمية كبرى .

وسمحت بحوث « البوزجاني » بعض الغربيين ، فراحوا يدعون محتويات كتبه لأنفسهم ؛ فلقد ادعى (ريجيومونتانوس) بعض النظريات والموضوعات الرياضية التي في مؤلفات « البوزجاني » لنفسه ، وأدخلها في كتابه (المثلثات) واختلف العلماء في نسبة الخلل الثالث في حركة العمر ، وجرى حول هذا الموضوع نقاش في أكاديمية العلوم الفرنسية في القرن التاسع عشر الميلاد . وادعى بعضهم أن معرفة الخلل ترجع إلى (تيخوبراهى) الفلكى الدانماركى

الشهير . وقد بقي المؤرخون تجاه الاختلاف مدة في حيرة إلى أن ثبت لدى باحثي هذا العصر — بعد التحريات الدقيقة — أن الخلل الثالث هو من اكتشاف «البوزجاني» ، وأن (تيخوبراهي) ادعاه لنفسه أو نسب إليه . ولهذا الاكتشاف أهمية كبرى تاريخية وعلمية ؛ لأنه أدى إلى اتساع نطاق الفلك والميكانيكا .

ويمتاز أبو الوفاء على غيره من علماء العرب ومؤلفيهم في وضع مؤلفات الخاصة والمختلف الطبقات ؛ فن رسائله وكتبه ما يبحث في الرياضيات والفلك ، وقد حوت تفصيلات لا يفهمها إلا المتخصصون الذين يعنون بهذه العلوم الدقيقة . ومن كتبه ورسائله ما وضعه لغير الرياضيين ، يستفيد منها العمال وأصحاب الصناعات والتجار ؛ لقد وضع «البوزجاني» كتابا في الحساب أدخل فيه ما يحتاج إليه العمال ، كما ضمنه فصولا في المساحات وأعمال الخراج والقياسات ومعاملات التجار . وكان لهذا قيمة كبرى ، فقد بقي مدة أساسا لمعاملات كثير من المالين في عصر «البوزجاني» ، والعصور التي تلتها .

وكذلك لأبي الوفاء كتاب فيما يحتاج إليه الصناع من أعمال الهندسة ، وقد وضعه بأمر من بهاء الدولة ليتداوله أرباب الصناعة وجعله خلوا من البراهين الرياضية ، حتى يكون مستساغا بسيطا .

ولأبي الوفاء شروح لمؤلفات ديوفنطس ، والخوارزمي ، استفاد منها الذين أتوا بعده واستناروا بها . وقد أعادتهم على فهم جبر الخوارزمي . وفي الفلك وضع مؤلفات هي في غاية الأهمية ؛ ككتاب الكامل ، وهو ثلاث مقالات : الأولى في الأمور التي ينبغي أن تعلم قبل حركات الكواكب ، والثانية في حركات الكواكب ، والثالثة في الأمور التي تعرض لحركات الكواكب ، وله كذلك كتاب : الزيج الشامل ، والمجسطي ، وغيرهما .

وخلاصة القول : إن «البوزجاني» من ألمع علماء العرب الذين كان لبحوثهم ومؤلفاتهم الأثر الكبير في تقدم العلوم — ولا سيما — الفلك والمثلثات وأصول الرسم ، وفوق ذلك كان من الذين مهدوا لإيجاد الهندسة التحليلية بوضعه حلولاً هندسية لبعض المعادلات والأعمال الجبرية العالية .

١٠ - ابن يونس^(١)

لقد سبق « ابن يونس » غاليلو إلى اختراع الخطار : « الرقاص » ،

يعتقد الكثيرون أن الخطار : « الرقاص » أو بندول الساعة ، من مخترعات العالم الإيطالي الشهير « غاليلو » ، وأن هذا العالم أول من استطاع أن يستعمله ويستفيد منه . وهؤلاء الكثيرون قد يستغربون إذا قيل لهم إن هذا غير صحيح ، وإن الفضل في اختراعه إلى عالم عربي مسلم ، عاش في مصر ونشأ على ضفاف النيل ، وقد سبق غيره في استعماله في الساعات الدقاقة ، وبذلك يكون « غاليلو » مسبوقاً في هذا الاختراع بستة قرون ، وما كان لنا أن نجرؤ فننسب هذا الاختراع للجيل إلى العرب ، لولا اعترافات المنصفين من علماء الإفرنج ، ففي كتاب تاريخ العرب للعالم الفرنسي الشهير (سيديو) تجد نصاً صريحاً بأسبقية العرب إلى اختراع الخطار « الرقاص » : « ... وكذا ابن يونس المقتنى في سيره أبا الوفاء ألف في رصد غاته بجبل المقطم الزيج الحاكي ، واخترع الربع ذا الثقب ، وبندول الساعة الدقاقة ... » وكذلك يقول تايلر (Taylor) ، وسدجويك (Taylorsed) : إن العرب استعملوا « الرقاص » لقياس الزمن .

ومن هنا يتبين أن العرب سبقوا (غاليلو) إلى اختراع الرقاص وفي استعماله في الساعات الدقاقة . أنا لا أقول إن العرب وضعوا القوانين التي تسيطر على البندول ، ولا أقول إنهم وضعوا ذلك في قالب رياضي على الشكل الذي نعرفه ، ولكني أقول إنهم سبقوا « غاليلو » في اختراع الرقاص واستعماله وفي استخراج علاقته بالزمن . وفوق ذلك كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص (قانون مدة اللذبذبة) . ويقول (سمك) في كتابه تاريخ الرياضيات ، ما يلي : « ... ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو ، إلا أن كمال الدين بن يونس^(٢) لاحظته

(١) ولد في مصر . وتوفي فيها حوالي سنة ١٠٠٩ م

(٢) كمال الدين بن يونس هو غير ابن يونس صاحب الترجمة . ولد في الموصل سنة ١١٥٦

وتوفي سنة ١٢٤٢ م . تلقى العلم في بغداد في المدرسة النظامية واشتهر باشتغاله في العلوم الفلكية والرياضية (داجع كتاب تراث العرب العلمي ...)

وسبقه إلى معرفة شيء عنه ، وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد . . . ، ويظهر مما مر أن العرب عرفوا شيئاً عن القوانين التي تسيطر عليه ، وجاء بعدهم « غاليلو » وبعد تجارب عديدة استطاع أن يستنبط قوانينه ؛ إذ وجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة الشاقل ، ووضع ذلك بشكل رياضي بديع وسع دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه .

و « ابن يونس » هو : أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصديقي المصري . كان من مشاهير الرياضيين والفلكيين الذين ظهروا بعد البتاني وأبي الوفاء البوزجاني . وبعده (سارطون) من لحول علماء القرن الحادى عشر لليلاد . وقد يكون أعظم فلكي ظهر في مصر . ولد فيها ، وتوفي فيها سنة ١٠٠٩ م . وهو سليل بيت اشتهر بالعلم ، فأبوه عبد الرحمن بن يونس كان محدث مصر ومؤرخها وأحد العلماء المشهورين فيها . وجده يونس ابن عبد الأعلى صاحب الإمام الشافعي ومن المتخصصين بعلم النجوم . وقد عرف الخلفاء الفاطميون قدر ابن يونس وقدروا علمه ونبوغته ، فأجزلوا له العطاء وشجعوه على متابعة بحوثه في الهيئة والرياضيات ، وبنوا له مرصداً على جبل المقطم قرب القسطنطينية ، وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والأدوات . وأمره العزيز الفاطمي أبو الحاكم أن يصنع زيجاً ، فبدأ به في أواخر القرن العاشر لليلاد وأتمه في عهد الحاكم ولد العزيز ، وسماه (الزيج الحاكمي) . ويقول عنه ابن خلكان : « . . . وهو زيج كبير رأيت في أربعة مجلدات . ولم أر في الأزياج على كثرتها أطول منه . . . » وهو يشتمل على مقدمة و ٨١ فصلاً . ذكر موضوع كل منها في المقدمة . ويعترف (سيديو) بقيمة هذا الزيج فيقول : « . . . إن هذا الزيج كان يقوم مقام المجسطي والرسائل التي ألفها علماء بغداد سابقاً . . . » ويقول (سوتر) في دائرة المعارف الإسلامية : « . . . ومن المؤسف حقاً أنه لم يصل إلينا كاملاً . وقد نشر (كوسان (Gaussin) وترجم بعض فصول هذا الزيج التي تحتوى على أرصاد الفلكيين القدماء ، وأرصاد ابن يونس نفسه عن الكسوف والخسوف

واقتران الكواكب . . . ، وكان قصده من هذا الزيج أن يتحقق من أرصاد الذين تقدموه وأقوالهم في الثوابت الفلكية ، وأن يكمل ما فاتهم وأن يضع ذلك في مجلد كبير جامع . يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب والتفسير . . . ، ويعترف « سوتر » بأن « ابن يونس » أفاد من ذلك فائدة قيمة . و « ابن يونس » هو الذى رصد كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة حوالى سنة ٩٧٨ م وأثبت منهما تزايد حركة القمر ، وحسب ميل دائرة البروج لجاء حسابه أقرب ما عرف إلى أن أتقنت آلات الرصد الحديثة . وجاء في زيجه فصل موضوعه : « الإشعاع في النجوم بحسب الراى العام » وفصول أخرى عليها مسحة من المباحث الفلكية الحديثة ، كما سرد فيه الطريقة التى اتبعها فلكيو المأمون في قياس محيط الأرض أتيتا عليها في كتابنا : تراث العرب العلمى ، في فصل الفلك عند العرب . و « ابن يونس » هو الذى أصلح زيج « يحيى بن أبى منصور » . وعلى هذا الإصلاح كان تعويل أهل مصر في تقويم الكواكب في القرن الخامس الهجرى . وكذلك جمع « ابن يونس » في مقدمة زيجه « كل الآيات المتعلقة بأموال السماء ورتبها ترتيبا جميلا بحسب مواضعها . . . » فقد كان يرى أن أفضل الطرق إلى معرفة الله هو التفكير في خلق السموات والأرض ومعجائب المخلوقات وما أودعه فيها من حكمه ، وبذلك يشرف الناظر على عظيم قدرة الله عز وجل ، وتتجلى له عظمته ، وسعة حكمه ، وجليل قدرته .

وبرع « ابن يونس » في المثلثات وأجاد فيها . وبحوثه فيها فاقت بحوث كثيرين من العلماء ، وكانت معتبرة جدا عند الرياضيين ولها قيمتها الكبيرة في تقدم علم المثلثات ، وقد حل أعمالا صعبة في المثلثات الكروية ، واستعان في حلها بالمسقط العمودى للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقى ومستوى الزوال . وهو أول من استطاع أن يتوصل إلى إيجاد قانون كان له قيمة كبرى عند علماء الفلك قبل اكتشاف اللوغاريتمات ؛ إذ يمكن بوساطته تحويل عمليات الضرب إلى عمليات جمع ، وفي هذا بعض التسهيل لحلول كثير

من المسائل الطويلة المعقدة . وقد أتينا على هذا القانون بشيء من التفصيل في كتابنا : تراث العرب العلى .

وكذلك وجد ابن يونس القيمة التقريبية إلى جيب (١°) وفي زمنه استعملت الخطوط المماسية في مساحة المثلثات . ويقول (سيدو) « . . . ولبت ابن « يونس » يستعمل في سنة ٩٧٩ م إلى سنة ١٠٠٧ م أظلالا ، أى خطوطا مماسة ، وأظلال تمام حسب بها جداول عنده تعرف بالجداول الستينية ، واخترع حساب الآقواس التى تسهل قوانين التقويم وترىج من كثرة استخراج الجذور المربعة . . . » ، وهو الذى اخترع الربع ذا الثقب وبندول الساعة كما أسلفنا القول .

وفوق ذلك كان ينظم الشعر . فمن قوله فى الغزل :

أحمل نشر الطيب عند هبوبه	رسالة مشتاق لوجه حبيب
بنفسى من تحيا النفوس بقربه	ومن طابت الدنيا به وبطيبه
لعمرى قد عطلت كأسى بعده	وغيتها عنى لطول مغيبه
وجدد وجدى طائف منه بالكرى	سرى موهنا فى خفية من رقيه

١١ - أبو القاسم الزهراوى^(١)

« لقد بقى كتاب الزهراوى فى الجراحة ، المعتمد
عند جراحى أوروبا قرونا عديدة . . . »

وضع كتابا فى الجراحة أسماه (التصريف لمن عجز عن التأليف) وضمنه
بحوثا فى الطب الداخلى وفى الأقرباذين والكيميا والجراحة .
وبقى هذا الكتاب المعتمد عند جراحى أوروبا ودليلهم وكتاب التدريس
فى جامعاتهم حتى نهاية القرن السابع عشر للميلاد .

فى هذا الكتاب أشار الزهراوى « . . . إلى أهمية الكى ، وقد توسع
فى استعماله فى فتح الخراجات واستئصال السرطان ، وفضله على استعمال
المشرط ، مخالفا بذلك تعاليم اليونان . . . » ويقول الدكتور « أمين خير الله »
فى كتابه الطب العربى : « . . . ونحن اليوم نعتقد بأن استعمال الكى خير الوسائل
الجراحية لفتح الخراجات . . . » وقد نصح الزهراوى بضرورة حصول
التصاقات بين الكبد والبريتون قبل فتح خراج الكبد حتى لا يتسرب الصديد
إلى البطن ويميت المريض . . . »

وفى كتاب التصريف : أشار الزهراوى إلى أهمية درس التشريح ونصح
باستعمال التشريح عند درس الجراحة ، ويخرج الدكتور « خير الله » بعد مطالعة
هذا الكتاب بالقول : « . . . ومن يطالع كتابه لا يتمالك عن الاعتقاد بأنه
قد شرح الجثث هو نفسه ، لأن وصفه الدقيق لإجراء العمليات المختلفة
لا يمكن أن يكون نتيجة نظريات فقط . . . »

ويحتوى كتاب التصريف على ثلاثين فصلا رتبها فى ثلاثة أقسام :

تناول فى القسم الأول : الطب الداخلى .

وتناول فى القسم الثانى : الأقرباذين والكيميا .

وتناول فى القسم الثالث : الجراحة ..

(١) ظهر فى الزهراء بحوار قرطبة ، فى النصف الثانى من القرن العاشر للميلاد ، وتوفى

وقد شرح « الزهراوى » فى هذا القسم ، العمليات وبين آلاتها ، وامتناه برسومه للآلات الجراحية وآلات خاخ الأسنان المستعملة فى زمانه ، ... فقد كانت هذه الرسوم وحيدة فى بابها وتسير بوضوح — رغم خشوتها — إلى الآلات التى كانت تستعمل فى العمليات المختلفة ..

وقد جمع الدكتور « أحمد عيسى » فى كتاب خاص ما كان يعرفه العرب من الآلات والأدوات الطبية ، وضمنه جميع الآلات والعدد التى وردت فى كتاب التصريف من ذكر مسمياتها ومواضع استعمالها ونقل صورها ويتجلى من هذا الكتاب أن « الزهراوى » أول من فرق بين الجراحة وغيرها من المواضيع الطبية ... وجعل أساسها قائما على درس التشريح ...

ولقد كان كتاب التصريف هذا منهلا نهل منه الأوروبيون قرونا عديدة ؛ فقد ترجمه (جيرار كريمونا) . وبقيت ترجمته هذه المصدر المعول عليه فى جامعات (سالرنو) و (مونتبليه) ... واستشهد (جى دى شولياك) بأقوال الزهراوى فى الجراحة أكثر من مئتين مرة ...

يتبين من كتاب التصريف هذا أن « الزهراوى » أول من استعمل ربط الشرايين زمنا طويلا قبل (امبروازيايه) ، كما أنه أول من استعمل السنابير فى استئصال العنينة (البوليب) ، ويعترف (سبرنجل) أن « الزهراوى » أول من علم طريقة استئصال الحصى المثانية فى النساء عن طريق المهبل ، وأول من وصف الاستعداد الخاص فى بعض الأجسام للنزيف (هيموفيليا) فقد شاهد عدة حوادث نزيف فى عائلة عالجها بالكي ... وجاء فى كتاب الطب العربى ، أن الزهراوى نجح فى عملية شق القصبة الهوائية (تراكيوتومى) ، كما عمل عملية تفتيت الحصاة فى المثانة .

ولقد خرج الدكتور « سامى حداد » من دراسة كتاب التصريف ، أن « الزهراوى » كان جراحا ماهرا ذا خبرة واسعة حصلها من ممارسة فنه وملاحظة سير مرضاه ومرضى معاصريه من الأطباء ومن أتى قبلهم ، كما خرج بعد دراسة البحث المتعلق بمعالجة السرطان بالاعتراف ... فكأنه — أى الزهراوى — فهم مبدأ انتشار الأورام السرطانية وسروحها ...

١٢ — ابن سينا^(١)

« . . . ابن سينا أعظم علماء الإسلام
ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين . . . »
سارطون

ابن سينا من الخالدين الذين يحتلون مكانا ساميا في تاريخ تقدم الفكر والطب والفلسفة ، وهو من أصحاب الثقافة العالية والاطلاع الواسع ومن ذوى المواهب النادرة والعبقرية الفذة . وعلى الرغم من عدم امتداد حياته ، إلا أنها كانت عريضة تفيض نشاطا وحيوية وتحفل بالإنتاج والتأليف والإبداع .

لقد كان إنتاجه متنوعا وغزيرا ، فكتب في الفلسفة والطب والطبيعات والإلهيات والنفس والمنطق والرياضيات والأخلاق ، ووضع فيها ما يزيد على مائة مؤلف ورسالة ، يعتبر بعضها موسوعات ودوائر ومعارف ، إذ جمع فيها شتات الحكمة والفلسفة وما أنتجه المفكرون الأقدمون ، وأضاف إليها إضافات أساسية وهامة جعلته من الخالدين المقدمين في تاريخ الفكر والعلم ، مما دفع البروفسور (جورج سارطون) إلى الاعتراف بأن « . . . ابن سينا أعظم علماء الإسلام ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين . . . » .

ولقد سحرت عبقرية ابن سينا المستشرقين والعلماء ، والشرق والغرب على السواء ، فلقبه بعضهم بأرسطو الإسلام وأبقراطه . وجعله دانتى بين أبقراط وجالينوس ، وقال دى بور : « . . . وكان ابن سينا أسبق كتاب المختصرات الجامعة في العالم . . . » ويرى فيه مثالا للرجل الواسع الاطلاع والمترجم الصادق عن روح عصره . وإلى هذا يرجع تأثيره العظيم وشأنه في التاريخ . كما كان « مونك » يرى في ابن سينا أنه من أهل العبقرية الفذة ومن الكتاب

(١) ولد في ميشن من ضياع بخارى سنة ٩٨٠ م ، وتوفى في همدان سنة ١٠٣٧ م .

المنتجين . أما « أوبرفيك » فيقول : إن ابن سينا اشتهر في العصور الوسطى وتردد اسمه على كل شفة ولسان ، « ولقد كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره ... وكان من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق » .

لقد أجمع علماء الشرق والغرب على تقدير ابن سينا وتمجيده ، واستقوا من رشح عبقريته وفيض نتاجه ، فكان من الذين ساهموا مساهمة فعالة في تقدم العلوم الطبية والفلسفية والنفسية .

وما المهرجانات التي أقيمت في مصر وانكلترا ، والتي أقيمت في العراق وإيران ، وتسابق علماء العالم وفلاسفته ومختلف الهيئات العلمية والأدبية للاشتراك فيها ، إلا صور رائعات تعكس اعتراف العالم بعبقريته وقضله وأثره في الفلسفة والفكر والعلم .

* * *

ظهر ابن سينا في عصر كثرت فيه مباحث النظر ومذاهب الفلسفة ومدارس الحكمة والتصوف ، ونشأ في بيت عريق في خدمة الدولة ، وهو دعامة من دعائم الإسماعيلية ومركز من مراكز دعوتهم ومباحثهم الفلسفية والبحوث الدينية في النفس والعقل وأسرار الربوبية والنبوة . وتعهده أبوه بالتعليم والتثقيف ، وأحاطه بالأساتذة والمربين يعلمون ولده ابن سينا معارف زمانهم وشروح العلماء في الفلسفة والمنطق والهندسة والإلهيات والطبيعات . فخرج من ذلك كله واقفا على دقائق الهندسة ، بارعا في الهيئة ، محكما علم المنطق ، مبرزاً في الطبيعات والفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة . ولم تقف عند هذا الحد بل دفعه طموحه ورغبته في العلم والمعارف إلى الاستزادة ، فعكف على دراسة الطب وقراءة الكتب المصنفة فيه .

ويقول عن نفسه بهذا الصدد : « ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم أتني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون علي علم الطب ، وتعمدت المرضى ، فافتتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف .. »

واشتهر كثيرا في هذا العالم وطار اسمه في الآفاق ، فدعاه الأمراء لتطعيمهم ، ووفق في مداواة الأمراء ونجح في معالجتهم فأنعموا عليه وفتحوا عليه خزائهم ودور كتبهم . وهنا وجد المجال واسعا أمامه لإتمام دراساته والتعمق في مختلف العلوم . وبعد وفاة والده (وكان في الثانية والعشرين من عمره) ترك (بخارى) ورحل إلى (جرجان) حيث كان يسكن رجل اسمه : الشيرازي اشتهر بشغفه في العلوم ، فتعرف إليه ابن سينا وتوثقت بينهما الصداقة حتى اشترى الشيرازي لابن سينا دارا في جواره وأزله فيها . وفيها ألف الرئيس ابن سينا بعض مؤلفاته القيمة : كالقانون — وهو من أهم الكتب الطبية التي تشتمل على أساس علوم الطب — وقد بقي قرونا عديدة من هلا عاما يستقي منه الراغبون في الطب في الشرق والغرب على السواء .

ولم تطل إقامة ابن سينا كثيرا في (جرجان) لأسباب سياسية ، واضطر إلى تغيير موطنه مرارا ، فأتى (همدان) حيث استوزره الأمير « شمس الدولة البويهى » ، وكادت الأجواء تصفوه له ولكنها تلبدت بالغيوم فحالت الظروف دون بقائه في الوزارة . وأخيرا دفعته الظروف إلى أن يستقر في (أصفهان) في رعاية الأمير « علاء الدولة » ، حيث بقي إلى أن وافته منيته في (همدان) . وكان قد رجع إليها مع علاء الدولة في إحدى غزواته لها .

ويتبين من دراسة حياته أنه اشتغل بتدبير أمور الدولة ، وأنه لم يكن لذلك أى أثر على إنتاجه أو دراساته فلم يصرفه عن الدرس والبحث ، ولم تحل دون الكتابة والتأليف والمذاكرة . والمتتبع لحياة ابن سينا يجد أنها تحفل بالشدوذ والخروج عن المألوف ؛ فقد كان كثير الحركة غزير الحيوية لا يستقر على حال ، يقضى الليالي بطولها في القراءة والكتابة ، وكثيرا ما كان يلجأ إلى المنبهات لتحفظ عليه وعيه .

ومن الطبيعى أن تتناوبه الأحلام عند النوم وعقله مشغول بما قرأ ودرس . وكان حين يفتى من ذلك يستسلم لشرب الخمر . والانهماك في الملهيات . لقد استغل ابن سينا كل وقته استغلالا تاما ، واستثمر بعضا منه في تدبير شؤون

الدولة وبعضه في التعليم والدرس والتأليف ، وبعضه الآخر في الاستمتاع بمحافل الصداقة والآنس . وبذلك أعطى الدولة حقها من جهوده وعقله ، وأعطى الفلسفة والعلم حقهما من مواهبه وقابلياته ، كما أعطى نفسه حقها من الراحة والترفيه .

لقد عاش ابن سينا في عصر الانقسام والتنازع على الملك بين أمراء الأقاليم في الرقعة الشرقية من الدولة العباسية . ومن الطبيعي أن يتبارى الأمراء في تقريب رجل نادر المثال كابن سينا ، وأن يتهافتوا على مجالسته وتزيين مجالسهم به .

وهنا دخل في منازعات الأمراء وغير الأمراء وتعرض للوشايات والمكائد ، فمأرك الحياة وعاركته وتقلبته مع الأحوال ، فتعرض مرات للقتل والسجن ، وذاق حلو الحياة ومرها ، وانغمس في السياسة وغاص في صميم الحياة ، وتغلغل في المجتمع ، وكان عليه أن يتحمل ما تجره الشهرة والفضل من حسد وغيره ومتاعب فليحقه من حسد الحاسدين وكيدهم ألوان من الآلام النفسية وأنواع من المشاكل ضاعفت في الأخطار المحيطة به ، وأذته في عافيته ومعنوياته*.

* * *

إن انغماس ابن سينا في الحياة العامة ، وتعرضه لتقلباتها واندماجه في صميم مجتمعه ورحلاته المتعددة — كل ذلك قد أثر في آرائه ونظرياته فجعل في فلسفته مسحة من العملية ، وكانت أميل إلى الناحية العقلية منها إلى الناحية الروحية والتصوفية .

كان ابن سينا يقدس العقل ويرى فيه أعلى قوى النفس . وفي الإنسان عقل عملي « . . . » وفعله يظهر التعدد في الطبيعة الإنسانية ظهورا اعتياديا ، غير أن وحدة العقل تتجلى مباشرة في شعورنا بأنفسنا ، وإدراكنا لذاتنا إدراكا خالصا

والعقل يقاوم الوقوف ويعمل على الارتقاء ويقوى النفس ، ولهذا قال ابن سينا بسلطان العقل . وقد تغلب هذا السلطان على سلطان الروح ، حتى إنه يرى في العقل سبيلا إلى الوصول إلى الملكوت .

وخالف ابن سينا أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان في كثير من النظريات والآراء ، فلم يتقيد بها ، بل أخذ منها ما وافق مزاجه وانسجم مع تفكيره وزاد عليه ، وقال إن الفلاسفة يخطئون ويصيبون كسائر الناس ، وهم ليسوا معصومين عن الخطأ والزلل . وهذا ما لم يجرؤ على التصريح به الفلاسفة والعلماء في تلك الأزمان ، والأزمان التي سبقت أو تلت ، إلا النادر من الذين يملكون عقلا راجحا وبصيرة نافذة واستقلالا في التفكير . ولا شك أن موقف ابن سينا هذا يدل على شجاعته ونزعه إلى الاستقلال في الرأي ورغبته في التحرر العقلي ، فهو لا يتقيد بآراء من سبقه بل يبحث فيها ويدرسها ويعمل فيها العقل والمنطق والخبرات التي اكتسبها ، فإن أوصلته هذه كلها إلى تلك الآراء الصحيحة أخذ بها ، وإن أوصلته إلى غير ذلك نبذها وبين فسادها .

وجعل ابن سينا للتجربة كذلك مكاناً عظيماً في دراساته وتحرياته . ولجأ إليها في طبه ، وتوصل عن طريقها إلى ملاحظات دقيقة ، كما توفق إلى تشخيص بعض الأمراض وتقرير علاجها .

ولهذا لا عجب إذا رأيناه يحارب التنجيم وبعض نواحي الكيمياء بحجج العقل وحده ، يخالف معاصريه ومن تقدموه فيما يختص بإمكان تحويل الفلزات الخسيسة إلى الذهب والفضة . ونفى إمكان إحداث هذا التحويل في جوهر الفلزات . . . لأن لكل منها تركيباً خاصاً لا يمكن أن يغير بطرق التحويل المعروفة . . . وإنما المستطاع تغيير ظاهري في شكل الفلز وصورته . واختلط ابن سينا فقال : « وقد يصل هذا التغيير حداً من الإيقان يظن معه أن الفلز قد تحول بالفعل وبجوهره إلى غيره . . . »

وتجلى سلطان العقل عند ابن سينا في رأيه في الخوارق ، ويذهب في تعليقه لها إلى أسباب وأمر تجري على قانون طبيعي يتصل بالجسم والنفس والعقل .

كما يتجلى سلطان العقل في شرحه معنى « العناية الإلهية » فهو — بعد أن تأمل في نظام العالم — أدرك أن صانعه مدبر حكيم عالم بما عليه هذا الوجود من نظام الخير والكمال ، وهذا في رأيه معنى العناية الإلهية . فالظواهر الطبيعية إنما تحدث حسب القوانين الطبيعية التي وضعها الصانع الحكيم وقيد الوجود بها . فالعناية الإلهية تعني جريان القوانين الطبيعية في العالم على أدق ما يمكن وليس معناها الاهتمام بالأفراد والشعوب .

والإنسان في رأى ابن سينا يقترب من الكمال إذا اتسمت معرفته بالوجود وأدرك حقائق العالم واستغرق في تفهمها . ولا يتم ذلك إلا عن طريق الإرادة والعقل .

وعلى الرغم من تقديس ابن سينا للعقل ومن إيمانه بسلطانه إلا أنه في مواضع كثيرة يؤكد نقص العقل الإنسانى — وهذا النقص يجعله في حاجة إلى القوانين المنطقية ؛ ولهذا نرى ابن سينا قد اعتبر المنطق من الأبواب التي يدخل منها إلى الفلسفة ، كما أنه الموصل إلى الاعتقاد الحق . ذلك لأنه — على حد قوله — « الآلة العاصمة عن الخطأ فيما تتصوره ونصدق به ، والموصلة إلى الاعتقاد الحق بإعطاء أسبابه ونهج سبله . . . »

تتماز مؤلفات ابن سينا بالدقة والتعمق والترتيب ، وهذا ما لا نجد في كثير من كتب القدماء في علماء اليونان والعرب . ويظهر أن (الشهرستاني) لاحظ ما امتازت به مؤلفات ابن سينا فقال : « . . . إن طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة ، ونظيره في الحقائق أغوص . . . »

وابن سينا منظم الفلسفة والعلم في الإسلام ، وقد فهم الفلسفة عن طريق « الفارابى » ، ولكنه توسع فيها وألف ، وله فيها آراء ونظريات لا يزال بعضها يدرس في مدارس أوروبا . وقد اعتمد على فلسفة أرسطو واستقى منها كثيراً . ويعترف الباحثون بأنه أضاف إليها وأخرجها بنظام أتم ونطاق أوسع وتسلسل محكم .

وقد ظلت الفلسفة الأرسطية المصطبغة بمذهب الأفلاطونية الحديثة معروفة عند الشرقيين في الصورة التي عرضها فيها ابن سينا . وكثيرا ما اعتمد (باكون) في توضيح آراء أرسطو على « ابن سينا » .

وبقيت كتب ابن سينا في الفلسفة والطب تدرس في الجامعات في أوروبا إلى القرن السابع عشر للميلاد . ويقول دى بور : « وكان تأثير ابن سينا في الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى عظيم الشأن . واعتبر في المقام كأرسطو » . وتأثر به إسكندر الهالى الإنجليزى ، وتوماس اليوركى الإنجليزى أيضاً . وتأثر بابن سينا كذلك كبار فلاسفة العصور الوسطى أمثال : ألبرت الكبير ، والقديس توماس الاكوينى ، فقد قلده في التأليف وتبنوا بعض نظرياته وآرائه . وقال سارطون : « ... إن فكر ابن سينا يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى » ...

وما يدل على ميله إلى التجدد والتحرر قوله : حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء ، وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا ..

لقد شغلت « النفس » منذ القدم الفلاسفة والحكماء ، وفكروا في أمرها ، وبقائها بعد الموت ، فقالوا بخلودها ، ويتجلى الاهتمام بالنفس ومصيرها في فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو . وكان للباحث النفسية التي وردت في فلسفة أرسطى أثر كبير ، حتى إن كتابه في النفس كان المرجع الأول للفلاسفة الذين أتوا بعده .

درس « ابن سينا » كتاب أرسطو في النفس ، ورجع إلى آراء بعض الفلاسفة اليونان في النفس . وخرج من دراساته ومراجعاته هذه بأشياء استطاع بعد مزجها وصهرها أن يكون منها نظرية ذات لون خاص وصورة خاصة « ... تختلف عن ألوان الأجزاء المقومة لها ... » إذ جمع فيها آراء الفلاسفة إلى أصول الدين وأضاف إليها شيئاً من تصوف الشرق ومذاهب الجنود . فجاءت نظريته في النفس جميلة رائعة ساحرة انتقد فيها رأى أفلاطون في النفس وعده بعيداً عن الصواب وسفه فكرة التقمص التي أخذ بها أفلاطون .

وعالج ابن سينا موضوع السعادة وأتى بآراء تدل على تفاؤله وإيمانه بأن الخير موجود في كل شيء ، وهو لا يرى السعادة في اتباع كل لذة ، بل يراها في الكمال والخير ، وكان يدعو إلى التجرد عن المادة وشواغلها للوصول إلى السعادة الحقيقية . ولا يعني هذا أنه كان يدعو إلى الجود والروحانية البحتة ؛ بل إنه كان يؤمن بالعقل والعلم ، وحسبه أن يعتقد أن السعادة القصوى لا تكون إلا عن طريق العلم . وكان لابن سينا مثل عليا يهيم بها ، وقد سخر عقله ومواهبه للدعوة إليها ، وكان يؤمن بالفكر ويقدره كما كان كثير الثقة بالفطرة الإنسانية .

واستنبط ابن سينا آلة تشبه آلة الورنير (Vernier) ؛ وهي آلة تستعمل لقياس طول أصغر أقسام المسطرة المقسمة لقياس الأطوال بدقة متناهية .
ودرس ابن سينا دراسة عميقة بحوث الزمان والمكان ، والخير ، والإيصال ، والقوة والفراغ ، والنهاية ، واللانهاية ، والحرارة ، والتنوير . وقال : إن سرعة النور محدودة وإن شعاع العين يأتي من الجسم المرئي إلى العين ، وعمل تجارب عديدة في الوزن النوعي ووحدة الوزن النوعي للمعادن كثيرة . وبحوث ابن سينا في الحركة وأضاف إلى معانيها معنى جديدا ، وتناول الأمور التي تتعلق بالحركة وموضع الميل القسري والميل المعاود . وقد خرج الأستاذ « مصطفى نظيف » من دراساته لآراء الفلاسفة الإسلاميين في الحركة إلى أن ابن سينا ، وابن رشد ، والغزالي ، والرازي ، والطوسي ، وغيرهم ، قد ساهموا في التمهيد لبعض معاني علم الديناميكا الحديث ، وأنهم قد أدركوا القسط الأول في المعنى المنصوص عليه في القانون الأول من قوانين نيوتن الثلاثة في الحركة ، وأرادوا على ذلك نصوصا صريحة .

ولابن سينا بحوث نفيسة في المعادن وتكوين الجبال والحجارة كانت لها مكانة خاصة في علم طبقات الأرض . وقد اعتمد عليها العلماء في أوروبا ، وبقيت معمولا بها في جامعتهم حتى القرن الثالث عشر لليلاد ، وشرح طريقة إسقاط التسمعات وتوسع فيها . وفي كتاب (الشفاء) بحث في الموسيقى ، وقد أجاد

فيها إجابة كبيرة وأقامها على الرياضيات والملاحظات النفسية ، وسجل في رسائله وكتبه ملاحظات عن الظواهر ؛ كالرياح ، والسحب ، وقوس قزح ، لم يترك فيها زيادة لمستزيد من معاصريه .

وضع ابن سينا مؤلفات في الطب جعلته في عداد الخالدين ، وقد يكون كتابه القانون من أهم مؤلفاته الطبية وأنفسها . اشتهر كثيرا في ميدان الطب وذاع اسمه وانتشر انتشارا واسعا في الجامعات والكليات . وشغل هذا الكتاب علماء أوروبا ولا يزال موضع اهتمامهم وعنايتهم . وقد ترجمه إلى اللاتينية (جيرارد أوف كريمةونا) وطبع في أوروبا خمس عشرة مرة باللاتينية ما بين ١٤٧٣ و ١٥٠٠ م ، وبقي بفضل حسن تبويه وتصنيفه وسهولة مناله الكتاب التدريسي المعمول عليه في مختلف الكليات الأوروبية حتى أواسط القرن السابع عشر للميلاد .

وفي هذا الكتاب جمع ابن سينا ما عرفه الطب عن الأمم السابقة إلى ما استحدثته من نظريات وآراء وملاحظات جديدة ، وما ابتكروه من ابتكارات هامة ، وما كشفه من أمراض سارية وأمراض منتشرة الآن « كالانكلستوما » ، مما أدى إلى تقدم الطب خطوات واسعة جعلت بعضهم يقول : كان الطب ناقصا فكملة ابن سينا .

وكذلك ضمن ابن سينا كتاب القانون شرحا وافيا لكثير من المسائل النظرية والعملية ، كما أتى فيه على تحضير العقاقير الطبية واستعمالها . وقرن ذلك ببيان عن ملاحظاته الشخصية .

وفي كتاب القانون ظهرت مواهب ابن سينا في تصنيفه وتبويه للمعلومات الطبية ، وما كشفه من نظريات جديدة فيها ، وأبرزها في قالب منطقي . فقد كان قوى الحجج ، قاطع البرهان ؛ وهذا ما جعل كتابته شديدة التأثير في رجال العلم في القرون الوسطى وما جعل السير (ويليم أوسلر) يقول عن كتاب القانون : « إنه كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمن . . . » .

وابن سينا أول من وصف التهاب السحايا الأولى وصفا صحيحا وفرقه عن التهاب السحايا الثوى وعن الأمراض المشابهة لها . أما وصفه للأمراض التي تسبب اليرقان فواضح ومستوف . وقد فرق بين شلل الوجه الناتج عن سبب داخلي في الدماغ وشلله الناتج عن سبب خارجي . و فرق بين داء الجنب وألم الأعصاب ما بين الاضلاع وخراج الكبد والتهاب الحيزوم . و وصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم مخالفا بذلك التعاليم اليونانية . ويقول الدكتور « خير الله » في كتابه القيم : الطب العربى : « ويصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئا جديدا إلى وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية » .

وابن سينا أول من كشف مرض « الانكلوستوما » وسبق بذلك (دويني) الإيطالى بتسعمائة سنة . وقد قام الدكتور « محمد خليل عبد الحاق » بفحص ودرس ما جاء فى كتاب القانون عن الديدان المعوية ، وتبين من هذا أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالانكلوستوما ، وقد أخذ جميع المؤلفين فى علم الطفيليات بهذا الرأى فى المؤلفات الحديثة ، وكذلك مؤسسة روكفلر .

وأشار ابن سينا إلى عدوى السل الرئوى وإلى انتقال الأمراض بالماء والتراب ، وكذلك أحسن ابن سينا وصف الأمراض الجلدية والأمراض التناسلية . ودرس الاضطرابات العصبية ، وعرف بعض الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسى ، وكان ابن سينا يرى أن للعوامل النفسية والعقلية كالحزن والخوف والقلق والفرح وغيرها تأثيرا كبيرا فى أعضاء الجسم ووظائفها . ولهذا فقد لجأ إلى الأساليب النفسية فى معالجة مرضاه .

وهناك مؤلفات ورسائل أخرى فى الطب ، والفلسفة ، والرياضيات ، والموسيقى ، واللغة ، والإلهيات ، والنفس ، والمنطق ، والفلك ، والطبيعيات ؛ وهى تزيد فى عددها على المائة . وقد ترجم بعضها إلى اللاتينية وسائر اللغات الأوروبية من انكليزية وفرنسية وألمانية وروسية . وبقيت لعدة قرون

المرجع الأول والرئيسى للجامعات والكليات فى أوروبا وعند كل من يرغب فى درس الفلسفة والطب .

وجماع القول : أن ابن سينا قد أدى رسالة الحياة على أفضل وأنتج ما يكون الأداء ، وحرك عقله الفعال ومواهبه وقابلياته فى ميادين الثقافة الإنسانية ، فأخرج من المؤلفات والرسائل ما جعله من مفاخر العالم ومن أشهر علمائه وأعظم حكمائه ؛ فقد أبدع فى الإنتاج فى الحكمة والفلسفة مما أدى إلى حركة فكرية واسعة دفعت بالعلم والفكر إلى النمو والتقدم .

١٣ - ابن الهيثم^(١)

« قلب الأوضاع القديمة ، وأنشأ علماً جديداً ، أبطل فيه علم المناظر ، وأنشأ علم الضوء الحديث ، وإن أثره في الضوء لا يقل عن أثر نيوتن في الميكانيكا ... »
(مصطفى نظيف)

ابن الهيثم من عباقرة العرب الذين ظهرُوا في القرن العاشر للميلاد في البصرة ، ومن الذين نزلوا بمصر واستوطنوها .

ترك آثاراً خالدة في الطبيعة والرياضيات ؛ ولولاه لما كان علم البصريات على ما هو عليه الآن . ولا أظن أنى حاجة إلى القول إن البصريات من عوامل تقدم الاختراع والاكتشاف ؛ وأن كثيراً من آلات البصر والكهرباء مرتكزة في صنعها على قوانين ومبادئ تتعلق بعلم الضوء . جاء في كتاب : « تراث الإسلام » : « ... وقد وصل هذا العلم إلى أعلى درجة بفضل ابن الهيثم ... » وثبت أن (كبلر) أخذ معلوماته في الضوء ، ولا سيما فيما يتعلق بانكساره في الجو ، من كتب ابن الهيثم . واعترف بهذا العالم الفرنسي الشهير (فياردو) . ويقول أحد كبار الباحثين من علماء أمريكا : « إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله . . » وقد بقيت كتبه منهلاً ينهل منه فحول علماء أوروبا ؛ كروجر باكن ، وكلمر ، وفنزي ، ووايتلو . وسحرت بحوثه في الضوء « ما كس ماير هوف » وأثارت إعجابه إلى درجة جعلته يقول : « إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى لنا في البصريات ... » . ومن الثابت أن كتاب المناظر لابن الهيثم من أكثر الكتب استيفاءً لبحوث الضوء وأرفعها قدراً ؛ هو لا يقل مادةً وتبويباً عن الكتب الحديثة العالية إن لم يقف بعضها

(١) ظهر ابن الهيثم في البصرة وكانت ولادته حوالي سنة ٩٦٥ م وتوفي في مصر في حدود

في موضوع انكسار الضوء وتشرح العين وكيفية تكون الصور على شبكة العين .
وليس المجال الآن مجال البحث في تفاصيل بحوث الكتاب ، ولكن يمكن القول : إنه من أروع الكتب في القرون الوسطى وأبدع ما أخرجته القريحة الخصبية ؛ فلقد أحدث انقلابا في علم البصريات وجعل منه علما مستقلا له أصوله وأساسه وقوانينه . ونستطيع أن نقول جازمين : إن علماء أوروبا كانوا عالة على هذا الكتاب عدة قرون ، وقد استقوا منه جميع معلوماتهم في الضوء . وبفضل بحوث هذا الكتاب المبتكرة وما يحويه من نظريات استطاع علماء القرن التاسع عشر والعشرين أن يخطوا بالضوء خطوات فسيحة ، أدت إلى تقدمه تقدما ساعد على فهم كثير من الحقائق المتعلقة بالفلك والكهرباء .
في هذا الكتاب القيم ما يدل على أن « ابن الهيثم » عرف الطريقة العلمية ، وأنه سار عليها ومهد لأصولها ، وكشف عناصرها . ولا يخفى أن هذا من أهم العوامل التي جعلت ابن الهيثم علما من الأعلام وخالدا في الخالدين .
ما كنت أظن أن للعرب أثرا في كشف الطريقة العلمية أو التمهيد لكشفها حتى بحثت في مآثر العرب في الطبيعة وأطلعت على كتاب « الحسن بن الهيثم » بحوثه وكشوفه ، لمصطفى نظيف بك .

أنا لا أقول إن علماء العرب توسعوا في هذه الطريقة واستغلوها على النحو الذي استغلها به علماء أوروبا ؛ أنا لا أقول إنهم كانوا يدركون ما لهذا الأسلوب من شأن كما يدركه علماء أوروبا ، ولكن أقول إنه وجد بين علماء العرب من سبق (باكون) في إنشائها ، بل ومن زاد على طريقة (باكون) التي تتوافر فيها جميع البحوث العلمية .

أما العناصر الأساسية في طريقة البحث العلمي فهي : الاستقراء ، والقياس ، والاعتماد على المشاهدة ، والتجربة والتمثيل .

وكنت أظن كما يظن الكثيرون أن هذه الطريقة في البحث هي من مبتكرات هذا العصر ، ولكن بعد درس كتاب المناظر وتعليقات الأستاذ مصطفى نظيف وشروحه المستفيضة ، ظهر لي أن ابن الهيثم قد أدرك الطريقة المثلى فقد قال :

بالأخذ بالاستقراء وبالقياس وبالتثليل وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ،
على المنوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة . ولسنا في مجال ضرب الأمثلة ؛
فالكتاب لا يتسع لذلك . ومن التجارب التي وردت في كتاب المناظر ونظرياته
تنجلي الخطة التي كان يسير عليها في بحوثه ، وأن غرضه في جميع ما يستقره
ويتصفحه « استعمال العدل لا اتباع الهوى » ، وأنه يتحرى في كل ما يميزه
« طلب الحق لا الميل مع الآراء » . وبعد ذلك نراه قد رسم الروح العلمي
الصحيح ، وبين أن الأسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق العالى .
فقواعده التجرد عن الهوى والإنصاف بين الآراء ، فيكون قد سبق علماء
هذا العصر في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي ، وكان يرى في الطريق
المؤدى إلى الحق والحقيقة « ما يثلج الصدر » على حد تعبيره ، وهذا ما يراه
باحثو هذا العصر من رواد الحقيقة العاملين على إظهار الحق ، فإن وصلوا إلى
ذلك : فهذا غاية ما يرغبون ويأملون .

يتبين مما مر أنه وجد في العرب من مهد إلى الأسلوب العلمي ومن سبق
(باكون وغاليلو) في إنشائه والعمل به . ولا شك أن هذا من الأمور الجديرة
بالنظر والاعتبار — لا سيما — إذا علمنا أن أعظم خدمة أسداها العلم وأجد
أثر له ، هو الأسلوب العلمي والنتائج الرائعة التي أسفر عنها تطبيقه .

ومن يطلع على كتاب المناظر والموضوعات التي تتعلق بالضوء وما إليه ،
يخرج بأن « ابن الهيثم » قد طبع علم الضوء بطابع جديد أوجده . وأنه كما يقول
« مصطفى نظيف » : « بدأ البحث من جديد . . . وأعاد بحوث الذين تقدموه
لا لاستقصاء البحث لحسب ، بل لقلب الأوضاع أيضاً . . . فظاهرة الامتداد
على السموات المستقيمة ، وظاهرة الانعكاس ، وظاهرة الانعطاف ؛ تلك
الظواهر التي استقصى ابن الهيثم حقائقها ، لم تكن تتعلق ألبتة بالشعاع الذي
زعم المتقدمون بأنه يخرج من البصر ، إنما كانت تتعلق بالضوء ؛ الضوء الذي له
وجود في ذاته مستقل عن وجود البصر ، والذي رأى ابن الهيثم — وكان
أول من رأى — أن الإبصار يكون به . فابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة وأنشأ

علما جديدا : لقد أبطل علم المناظر الذى وضعه اليونان ، وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى. والحدود التى نريدها الآن . وأثر ابن الهيثم فى هذا لا يقل فى نظرى عن أثر نيوتن فى الميكانيكا إلى أن يقول : « . . . إن عد نيوتن بحق رائد علم الميكانيكا فى القرن السابع عشر ، فإن ابن الهيثم خالق بأن يعد بحق رائد علم الضوء فى مستهل القرن الحادى عشر لليلاد . . . » .

وابن الهيثم رياضى بارع ، وتتجلى مقدرته فى تطبيق الهندسة والمعادلات والأرقام فى المسائل المتعلقة بالفلك والطبيعة وفى البرهنة على قضايا توافق الواقع الموجود من الأمور الطبيعية . ومن براهيته ما هو غاية فى البساطة ، ومنها ما هو غاية فى التعقيد ، وهى تتناول الهندسة بنوعها المستوية والفراغية . ويمكن القول إنه رياضى بأدق ما يدل عليه هذا الوصف .

وقد بحث ابن الهيثم فى المعادلات التكريرية بوساطة قطوع المخروط . ويقال : « إن « الخيامى » رجع إليها واستعملها ، وتمكن من استخراج حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محور السينات ومحور الصادات . ولا شك أن جولاته هذه قد ساعدت على تقدم الهندسة التحليلية ، ووضع أربعة قوانين لإيجاد مجموع الأعداد المرفوعة إلى القوى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ . واستعمل نظرية إفناء الفرق ، وفوق ذلك طبق الهندسة على المنطق ، وهذا من أهم الأسباب التى تحمل رجال التربية الحديثة على تعليم الهندسة فى المدارس الثانوية بصورة إجبارية . وقد وضع فى ذلك كتابا يقول فيه : « . . . كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعديدية من كتاب إقليدس ، وأبولونيوس ، ونوعت فيه الأصول وقبعتها ، وبرهنت عليها ببراهين نظمها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالى إقليدس ، وأبولونيوس . . . » وأعطى قوانين صحيحة لمساحة الكرة والهرم والأسطوانة المائلة والقطاع الدائري والقطعة الدائرية ، وحل مسائل هندسية عامة وعالج موضوعات رياضية عامة تتعلق بالأعداد وخصائصها ونظرياتها . وقد أوضحت ذلك فى كتابي : « تراث العرب العلمى » .

ولابن الهيثم رسائل عديدة في الفلك تزيد على عشرين رسالة ، عرف منها ثلاث رسائل : تبحث في مائة الأثر على وجه القمر ، وفي ارتفاع القطب ، وفي هيئة العالم .

ويستدل من هذه الرسائل أنه استنبط طريقة جديدة لتعيين ارتفاع القطب أو عرض المكان على وجه التدقيق ، وهي تدل على مقدرته العلمية الفلكية ومقدرة رياضية فائقة ، إذ استطاع أن يلجأ إلى التحليل الرياضي ، فكانت بحوثه ونتائج خالية من الغلط والأخطاء .

وبسط ابن الهيثم سير الكواكب وتمكن من تنظيمها جميعا على منوال واحد . فكانت هذه بمثابة آراء جديدة أدخلها إلى العلوم الفلكية وهي لا تقل أهمية عن الآراء الجديدة التي نوه عنها في الضوء ، حيث أدخل خط الإشعاع الضوئي بدلا من الخطوط البصرية . وكانت هذه الآراء الجديدة التي أتى بها ابن الهيثم عاملا من عوامل تقدم الفلك وخطوة لا بد منها في تطور هذا العلم . وقد درس الأستاذ الفلكي محمد رضا ، بعض رسائل ابن الهيثم في الفلك تخرج بالقول : . . . وإذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر ، قلن أكون مغاليا إذا اعتبرت الحسن بن الهيثم في مرتبة تضاهي العلامة أينشتين في عصرنا هذا

ولابن الهيثم جولات في ميدان الفلسفة . وقد وضع فيها مؤلفات عديدة لم تتناولها أيدي الباحثين . ولكن ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء ، يورد بعض آراء ابن الهيثم الفلسفية بصورة عامة ، فهو يدخل شؤون الدنيا والدين في الفلسفة ، ويجعل علم الحق وعمل العدل نتيجة لها . وهنا نراه يخالف رأى الفلاسفة الاسلاميين الذين سبقوه أو الذين أتوا بعده . . . فإنهم يجعلون علم الحق وعمل العدل شركة بين الفلسفة والدين على نحو يختلف تفصيله باختلاف الفلاسفة . . . ويقول ابن الهيثم في هذا الشأن ما يلي : « إنى لم أزل منذ عهد الصبا مرييا في اعتقادات هذا الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى ، فكنت متشككا في جميعه موقنا بأن الحق واحد وأن

الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه — فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق ... تخضعت لذلك ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الديانات ، فلم أحظ من شيء منها بطائل ولا عرفت منه للحق منهجا ، ولا إلى الرأي اليقيني مسلكا جددا ؛ فرأيت أنى لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية ، فلم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسطو بطاليس ... فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى في طلب علوم الفلسفة وهي ثلاثة : علوم رياضية ، وطبيعية ، وإلهية ... ، وبعد أن يعدد مصنفاته ورسائله يقول : « ... ثم شغعت جميع ما صنفته من علوم الأوائل برسالة بينت فيها أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هي من نتائج العلوم الفلسفية ... فإن ثمرة هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور الدنيوية ، والعدل هو محض الخير الذى يفعله يفوز ابن العالم الأرضى بنعيم الآخرة السامى ... » .

وابن الهيثم (كما يقين من كتابه المناظر ويتجلى من آرائه الفلسفية) حريص على طلب الحق والعدل ، يشتهى إثبات الحق وطلب العلم ، وذلك لأنه قد استقر عنده « ... أنه ليس ينال من الدنيا أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين ... » .

هذا بعض ما أنتجه ابن الهيثم في ميادين العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والفلكية . ومنها يتجلى للقارى الخدمات الجليلة التى أسداها إلى هذه الميادين والمآثر التى أورثها إلى الأجيال والتراث النفيس الذى خلفه للعلماء والباحثين ، مما ساعد كثيرا على تقدم علم الضوء الذى يشغل فراغا كبيرا فى الطبيعة والذى له اتصال وثيق بكثير من المخترعات والمكتشفات ، والذى لولاه لما تقدم علماء الطبيعة والفلك تقدمهما العجيب ، وهو تقدم مكن الإنسان من الوقوف على بعض أسرار المادة فى دقائقها وجواهرها وكهاربها ، وعلى الاطلاع على ما يجرى فى الأجرام السماوية من مدهشات ومخبرات .

١٤ — البيروني^(١)

«... البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ...»

(سخاو)

اطلع سخاو العالم الألماني الشهير على بعض مؤلفات البيروني ؛ وبعد دراستها والوقوف على دقائقها خرج باعتراف خطير هو : « أن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ » . ولهذا الاعتراف قيمته : لأنه صادر عن عالم يزن كلماته ولا يبدى رأيا إلا بعد بحث وتمحيص .

و « البيروني » من علماء القرن الحادي عشر لليلاد ومن ذوى العقول الجبارة . اشتهر في كثير من العلوم وفاق علماء عصره وعلا عليهم ، وكانت له ابتكارات وبحوث مستفيضة ونادرة في الرياضيات والتاريخ .

ذهب « البيروني » إلى الهند وساح فيها ، وبقي هناك مدة تزيد على الأربعين عاما ، قام خلالها بأعمال جليلة في ميدان البحث العلمي ، فجمع معلومات صحيحة عن الهند لم يتوصل إليها غيره . واستطاع أن يلم شتات كثير من علومها وآدابها ، وأصبح بذلك من أوسع علماء العرب والإسلام اطلاعا على تاريخ الهند ومعارفها . يقول سيديو : « إن أبا الريحان اكتسب معلوماته المدرسية البغدادية ، ثم نزل بين الهنود حين أحضره « الغزنوي » يستفيد منهم الروايات الهندية المحفوظة لديهم قديمة أو حديثة ، ويفيدهم استكشافات أبناء وطنه وينقلها إلى كل جهة مر فيها . وألف لهم ما يخصات من كتب هندية وعربية ، وكان مشيرا وصديقا للغزنوي . وقد استعد حين أحضره إلى ديوانه لإصلاح الغلطات الباقية في حساب الروم والسند وما وراء النهر ، وعمل قانونا جغرافيا كان أساساً لأكثر القسموغرافيات المشرقية . وقد نفذ كلامه مدته في البلاد المشرقية ، ولذا استند إلى قوله جميع المشرقيين في الفلكيات ، واستمد منه « أبو الفداء » الجغرافيا في جداول الأطوال والعروض... » ويعترف

(١) ولد في خوارزم سنة ٩٧٣ م ، وتوفي فيها سنة ١٠٤٨ م .

(سميث) في كتابة تاريخ الرياضيات : « ... إن البيروني كان ألمع علماء زمانه في الرياضيات ، وإن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند وآثرها في العلوم ... » . وكذلك يعترف الدكتور (سارطون) بتبوغه وسعة اطلاعه فيقول : « ... كان البيروني باحثا فيلسوفا رياضيا جغرافيا ومن أصحاب الثقافة الواسعة ، بل من أعظم عظماء الإسلام ومن أكبر علماء العالم ... » .

و « البيروني » ذو مواهب جدية بالاعتبار ، فقد كان يحسن السريانية والسنسكريتية والفارسية والعبرية ، عدا العربية . وقد نقل مؤلفات من السنسكريتية إلى العربية ، كما نقل علوم المسلمين إلى الهندوس . وكان أثناء إقامته في الهند يعلم الفلسفة اليونانية ويتعلم هو بدوره الهندية . ويقال إنه كانت بينه وبين ابن سينا مكاتبات في بحوث مختلفة ورد أكثرها في كتب ابن سينا .

وبرى « البيروني » أن الفلسفة قد كشفت له غرامض كثيرة « ... فجعل لها حظا من عنايته ، لأنه يعدها ظاهرة من ظواهر المدنية ... » وفي رأيه أن مطالب الحياة تستلزم إيجاد فلسفة عملية تساعد الإنسان على تصريف الأمور وتمييز الخير من الشر والعدو من الصديق .

كان « البيروني » باحثا علميا مخلصا للحق نزيها . وقد بين أن التعصب عند الكتاب هو الذي يحول دون تقريرهم الحق ؛ يتجلى ذلك في مقدمة كتابه النفيس : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، حيث يقول : « ... وبعد ، فقد سأني أحد الأدباء عن التواريخ التي تستعملها الأمم ، والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها ، والفروع التي هي شهورها ، والأسباب الداعية لأهلها إلى ذلك ، وعن الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال ... » إلى أن يقول : « ... وأبتدى فأقول : إن أقرب الأسباب إلى ما سئلت ، هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال عنهم ، ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل إلى التوصل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والتحل المستعملين لذلك ، وتصيير مامم

فيه أسا يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في إثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المرددة لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشياء ذلك

ويتبين من المآثر التي خلفها في مختلف ميادين العلوم ومن كتابة الشهير : « الآثار الباقية » أنه كان يمتاز على معاصريه بروحه العلمي وتسامحه وإخلاصه للحقيقة ، كما كان يمتاز بدقة البحث والملاحظة ، ينقد فيصيب ، يعتمد على المشاهدة ولا يأخذ إلا ما يوافق العقل ، يكتب رسالاته وكتبه مختصرة مثقفة وبأسلوب مقنع وبراهين مادية .

« والبيروني ، يمثل رغبة عصره في نقد الأمور والجرأة في الرأي ، ويقول المستشرق الدكتور شخت : والحق أن شجاعة البيروني الفكرية وحبّه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم وحبّه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه — كل هذه الخصال — كانت عديمة النظير في القرون الوسطى ، فقد كان البيروني في الواقع عبقرى مبدعاً ذا بصيرة شاملة تفاذة

لقد انتقد البيروني المنهج الذي اتبعه الهنود ؛ لأنه على رأيه غير علمي ، فلم يبعد عنهم عن الأوهام ، واستطاع بأسلوبه أن يبين أحسن بيان وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية والأفلاطونية والحكمة الهندية والكثير من مبادئ الصوفية . والبيروني يرى « أن التعلم اليقيني لا يحصل إلا من إحساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقي » . وهذا على ما يظهر هو الذي سيطر على طريقة البيروني وفلسفته . ومن هنا كان نهج نهجاً علمياً تتجلى فيه دقة الملاحظة والفكر المنظم .

قال البيروني عن الترقيم في الهند : إن صور الحروف وأرقام الحساب تختلف باختلاف الأماكن ، وإن العرب أخذوا ما عندهم — أي عند الهنود — فقد كان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام ؛ فذهب العرب بعضها وكونوا من الهندية وهي التي تستعملها بلادنا سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية ، وهي التي تستعملها بلادنا وأكثر الأقطار العربية والإسلامية .

وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية ، وقد انتشر استعمالها في بلاد المغرب والاندلس ؛ وعن طريق هذه دخلت الأرقام الغبارية إلى أوروبا وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية (Arabic Numbers) .

واشتهر « البيروني » بالطبيعة وله فيها جولات موفقة — لا سيما — في علم الميكانيكا والأيديروستاتيك ، ولجأ في بحوثه إلى التجربة وجعلها محور استنتاجه . فقد عمل تجربة لحساب الوزن النوعي ، واستعمل لذلك وعاء مصبه متجه إلى أسفل ، ومن وزن الجسم في الهواء والماء تمكن من معرفة مقدار الماء المزاح . ومن هذا الأخير ووزن الجسم في الهواء حسب الوزن النوعي . ووجد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصرا ومركبا بعضها من الأحجار الكريمة ، وكانت نتائجه دقيقة إلى حد كبير وهي لا تختلف عن النتائج الحديثة ، وله كتاب في خواص عدد كبير من العناصر والجواهر وفوائدها التجارية والطبية . وورد في بعض كتبه شروح وتطبيقات لبعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وشرح صعود مياه الفوارات والعيون إلى أعلى ، كما شرح تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مأخذها من المياه القريبة منها ، وتكون سطوح ما يتجمع منها موازية لتلك المياه ، وبين كيف تفور العيون ، وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلى القلاع ورءوس المنارات ، وقد شرح كل ذلك بوضوح تام ودقة متناهية ، وفي قالب سهل لا تعقيد فيه . ومن هنا يمكن القول إنه من الذين وضعوا بعض القواعد الأساسية في الميكانيكا والأيديروستاتيك .

ومن أجل الأعمال التي قام بها « البيروني » أرصاده في الفلك ووضعه المؤلفات البسيطة فيه . ومنها يتبين أنه ابتكر نظرية جديدة لاستخراج مقدار محيط الأرض ، واستعمل لذلك معادلة لحساب نصف قطر الأرض سماها بعض علماء الأفرنج : « قاعدة البيروني » . ويقول نالينو (Nallino) : « وبما يستحق الذكر أن « البيروني » بعد تأليف كتابه في الأسطرلاب أخرج تلك الطريقة من القوة إلى الفعل ، ويعترف (نالينو) بأن قياس « المأمون » وقياس « البيروني » لمحيط الأرض من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة للعرب » .

و « للبيروني » رسالة سامية كانت تتجلى في ثنايا مؤلفاته وكتبه ، ومن سياحاته وسلوكه . فهو يرى في وحدة الاتجاه العلمي في العالمين الإسلامي والغربي ، اتحاد الشرق والغرب ، وكأنه كان يوعو إلى إدراك وحدة الأصول الإنسانية والعلمية بين الشعوب في عالم واحد .

ففي بعض مؤلفاته يطرى اليونانيين ويطرى العرب ولعنتهم (على الرغم من أصله الأعجمي) وينصف الهند ويعدد مزايا كل من هذه الأقاليم ، فيقول في هذا الصدد : « . . . كل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم في علم ما أو عمل . واليونانيون قبل النصرانية موسومون بفضل العناية بالمباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها . ولو كان (ديسقوريدس) في نواحيها وصرف جهده على تعرف ما في جبالنا وبواديها لكانت تصير حشائشها كلها أدوية وما يمتحن منها بحسب تجاربه أشفية ، ولكن ناحية المغرب فازت به وبأمثاله وأفادتنا بشكور مساعيم علما وعملا . وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتز لعلم غير الهند ، ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغريين ، ثم المباشرة بيننا وبينهم في اللغة والملة والعادات والرسوم وإفراطهم في المجانية بالطهارة والنجاسة تزيل المخالطة عن الدين وتفصم عرى المباحثة . ديننا والدولة عريان وتوأمين يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية . وكما احتشد طوائف من التوابع في لباس الدولة جلايب العجمة فلم تنفق لهم في المراد سوق . وما دام الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمس مرات وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف الأئمة صفافا ، ويخطب به لهم في الجوامع بالإصلاح كانوا كاليدنين والقم ، وحبل الإسلام غير منقسم وحصنه غير منقسم وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم وصارت محاسن اللغة منها في الفرائين والأوردة ، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألهمتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع ألفتها وأشكالها ، وأقرب هذا بنفسه وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لا مستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة

في المكرا ب ، ثم منتقلة إلى العربية والفارسية . فأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية

ويمكن الخروج من أقواله ورسائله أنه يؤمن بإنسانية المعلم وبالوحدة الشاملة التي يؤدي إليها العلم . فيوحد بين العقول ويزيل التنافر بينها ، ويقرب بعضها من بعض ، ويدعو إلى التفاهم على أساس المنطق والحقيقة .

و « للبيروني » ، مآثر في ميادين أخرى ضمنها أكثر من مئة وعشرين كتابا ورسالة ، وقد نقل القليل منها إلى اللاتينية والإنكليزية والفرنسية والألمانية ، وكانت منها نهل منه الغربيون ومصدرا من المصادر الهامة في دراستهم العلمية والتاريخية .

وفي بعض هذه المؤلفات أوضح كيف أخذ العرب الترقيم عن الهند وكيف انتقلت علوم الهند إلى العرب ، كما نجد فيها تاريخاً وافياً لتقدم الرياضيات عند العرب . وقد يكون كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، من أشهر كتبه وأغزرها مادة ، يبحث فيها هو الشهر واليوم والسنة عند مختلف الأمم القديمة . وكذلك في التقاويم وما أصاب ذلك من التعديل والتغيير ، وفيه جداول تفصيلية للأشهر الفارسية والعبرية والرومية والهندية والتركية . وأوضح كيفية استخراج التواريخ بعضها من بعض ، وفيه أيضا جداول للملك آشور وبابل والكلدان والقبط واليونان قبل النصرانية وبعدها ، وكذلك للملك الفرس قبل الإسلام على اختلاف طبقاتهم ، وغير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بأعياد الطوائف المختلفة وأهل الأوثان والبدع . وفي هذا الكتاب فصل في تسطيح الكرة ، ولعل هذا الفصل هو الأول من نوعه ولم يعرف أن أحدا كتب فيه قبله ، وهو بهذا الفصل وضع أصول الرسم على سطح الكرة . ولا يخفى ما لهذا من أثر في تقدم الجغرافيا والرسم .

وقد ترجم « سخاو » ، هذا الكتاب إلى الإنكليزية وطبع عام ١٨٧٩ في لندن . ولدينا نسخة عربية لكتاب (الآثار الباقية) المذكور ، مطبوعة

في ليزغ عام ١٨٧٨ ، وفيه مقدمة باللغة الألمانية لـ « سخاو » عن « البيروني » ،
وأقول المؤرخين العرب القدماء في مآثره في العلوم .

وله كتاب تاريخ الهند ، وقد ترجمه أيضا « سخاو » إلى الإنكليزية وطبع
الأصل في لندن سنة ١٨٨٧ . والترجمة فيها سنة ١٨٨٨ . وفيه تناول « البيروني »
لغة أهل الهند وعاداتهم وعلومهم .

واعتمد عليه « سميث » وغيره من المؤلفين عند بحثهم في رياضيات الهند
والعرب .

وهناك تفصيلات أخرى عن مؤلفات « البيروني » ومآثره العلمية يجدها
الراغبون والباحثون في كتابنا : « تراث العرب العلي » .

١٥ — ابن حزم الأندلسي^(١)

« ابن حزم مجموعة من المواهب والعقريات »

ابن حزم وزير وابن وزير ومن أصحاب الجاه الواسع العريض ، هذا في ميدان الحياة العامة . أما في المعارف والعلوم فهو فيلسوف لمع في الدين والشعر والآداب والتاريخ .

نشأ في قرطبة في القرن الحادى عشر لليلاد ، من أسرة قال عنها الفتح ابن خاقان : « بنو حزم قتيه علم وأدب ، وثنية مجد وحسب » . وهو من بيت عريق بالمجد حافل بالترف والتعظيم . لكن ذلك لم يدم ، فقد تنكر له الزمان وتعرض للنكبات والمصائب وأصابه الاعتقال والتغريب والإغرام القادح . لحقه الاذى والكيد من كل جانب لم ينعم بالاستقرار والاطمئنان ،

انصرف ابن حزم للعلم بكل عزائمه وأخلص له ولم يخلط له مارباً بآخره . وهذا ما يميزه عن كثير من الذين يعنون بالعلم والآدب ، ولم يقف عند هذا الحد بل « ... تفرغ لنشره بين الناس فنفع به خلقاً كثيراً ... » ، ذلك لأنه كان يؤمن بأن للعلم زكاة هي نشره وإذاعته .

نشأ في بداية أمره في جو ساعد على بروز مزاياه النفسية والفكرية ، فظهرت عبقريته متعددة النواحي ، وتعمق في البحث والدرس ، فكان المرجع لأعيان الفكر في زمانه والأزمان التي تلت ، ومصدراً من المصادر المعتمد عليها التي يستشهد بها رجال الدين والعلماء .

وقد اعترف بفضله وعلمه الأقدمون والمحدثون فقال عنه أفاضل القدماء : « ... ابن حزم حامل فنون من : حديث ، وفقه ، وجدل ، وما يتعلق بأذيال الآدب ، مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديم من المنطق والفلسفة ... » ، وقال الذهبي : « ... ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد

(١) ولد في قرطبة سنة ٩٩٤ م ، وتوفي في قرطبة سنة ١٠٦٤ م .

كاملة...»، وقال صاعد: «برز ابن حزم على فحول العلماء بالآندلس حتى تفرد دونهم بميزات...»، وشهد الغزالي بفضله: «وعظم حفظه وسيلان ذهنه...». ولقد درس بعض تآليفه المستشرقون ورجال التاريخ في أوروبا وأميركا فأنصفوه بعض الإنصاف واعترفوا بأثره في الفقه والعلوم. وقال رينيه باسيه: «... ابن حزم عالم عربي أندلسي متفطن في علوم جمّة. وهو فقيه مشهور، مؤرخ وشاعر مبرز، دقيق الملاحظة شيق الأسلوب...».

وتناول آراؤه جولدنزهر، وشيريز، وإسرائيل فردليندر، وفيسكل، وبتروف، فشرحوها وعلقوا عليها وأبانوا أثره في الفقه والمنطق والتاريخ. ويعترف سارطون في كتابه: «مقدمة لتاريخ العلم» بفضل ابن حزم وعلمه فيقول: «ابن حزم أعظم عالم في الآندلس ومن أكبر المفكرين المبكرين المسلمين فيها...».

ترك ابن حزم مؤلفات ضخمة تدل على سعة اطلاعه وغزير علمه وعظيم أدبه، وقد «... ملأ المغرب بعلمه وكتبه ومذهبه. وشغل أهله (طرفاً صالحاً من حياته) أحقاباً طوالاً، حتى لكأنه أمة وحده لا فرد من أمة... اعتر به الآندلس، وباهى بفضله العراق الذي كان يومئذ يعج بحضارة ما رأى التاريخ لها مثيلاً، ويتجلى من كتبه ورسائله أنه كان يتمتع بفكر ثاقب وبصيرة نافذة وملاحظة دقيقة، فهم الشريعة حق الفهم وأفهمها بإخلاص وصدق للناس، وكان صريحاً ومخلصاً للحق إلى أبعد الحدود، وقد ضاق علماء عصره وحكامه بصراحته وإخلاصه فشهروا عليه الحرب العوان، فأحرقوا كتبه واضطهدوه شر اضطهاد وصبوا عليه النكبات والمتاعب. ويمكن القول: إنه «... ملأ الآندلس حركة فكرية عنيفة أثارها سلبية وإيجابية وجعل مجالس للعلم وأقطاب الفكر معسكرين أنصاراً وخصوماً...» وللسنا بحاجة إلى القول: إن حيوية ابن حزم لم تنقطع بموته بل أودعها كتبه وتآليفه، فاستمرت تعمل عملها زمناً طويلاً، وإن المتصفح لأدبه وأسلوبه يجد أن فيهما ثورة على التقليد، فلم يتقيد بأسلوب من تقدموه ولم يلتمس في أدبه طريقهم. وهو يقول في هذا الشأن:

«... وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتجلى بجلى مستعار...» وهذا — كما يقول الأستاذ سعيد الأفغانى — : «... السر فى تأثير بلاغته وأخذها بمجامع القلوب ونفاذها إلى أعماق النفوس...». ولهذا لا عجب إذا امتاز بأسلوب خاص وأدب له لونه الخاص، وقد خلق به عاليا لجعله «أديبا عالميا سبق عصره قرونا عديدة...».

«وابن حزم»: صاحب رأى مستقل يأخذ بالعقل ويخالف بالعقل. لهذا نراه حارب الخرافات وهاجمها بشدة، حتى إنه استعمل ألفاظا نابية لا يليق بمثله أن يأتى بها مما يعطى فكرة عن شدة ألمه من الأخذ بالآوهام والاعتقاد بالخرافات. كان يدعو للأخذ بالعلم الصحيح والاعتماد على العقل. يتجلى ذلك فى كتابه: «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، بشأن النجوم وأثرها فى الناس وهل تعقل.

قال «ابن حزم»: زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع... وهذه دعوى بلا برهان. وصحة الحكم بأن النجوم لا تعقل أصلا وأن حركتها أبدا على رتبة واحدة لا تتبدل عنها. وهذه صفة الجناد (المدير) الذى لا اختيار له. وليس للنجوم تأثير فى أعمالنا ولا لها عقل تدبرنا به إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعيا كتدبير الغذاء لنا كتدبير الماء والهواء ونحو أثرها فى المد والجزر وتأثير الشمس فى عكس الحر وتصفيد الرطوبات (التبخير). والنجوم لا تدل على الحوادث المقبلة...».

ومن هذه الآراء يتبين ويتضح أن «ابن حزم» لا يأخذ رأيا إلا بعد أن يحصيه ويسلط عليه العقل والبرهان. فإن أجازاه العقل وأمكن البرهنة عليه أخذ به، وإلا فهو غير مقبول لديه.

وخالف ابن حزم الأقوال التى تشير أن النيل، وجيحون، ودجلة والفرات تنبع من الجنة، وتهكم على قائلها. وبعد أن فند هذه الأقوال بين أن لهذه الأنهار منابع معروفة فى الأرض على ما هو موضح فى كتب الجغرافيا. ولا بن حزم آراء علمية ونظريات فلسفية «هى فى الطبقة الأولى من القيمة الذاتية الحقيقية»، كما يقول الدكتور عمر فروخ.

ومن هذه النظريات الجديرة بالذكر والاعتبار نظرية « المعرفة » ، وقد عقد لها فصلا خاصا في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » .

وتتركز الاستلة في هذه النظرية على ما يلي :

كيف نعرف الأشياء ؟ وما نعرف عنها وما الدليل على صحة هذه المعرفة ؟ ولقد بحث في هذه النظرية اليونان ، لكن بحثهم لم يكن من العمق والسعة بحيث يجعلها كاملة ، إلى أن جاء الفيلسوف الألماني (كانت Kant) في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، فبحثها بحثا وافيا شاملا جعل مؤرخي الفلسفة الأوروبية يقولون : إن الفضل في إيجاد نظرية « المعرفة » وفي شرحها يعود أولا إلى كانت .

ولكن الدكتور عمر فروخ في كتابه : « عبقرية العرب » ، درس الآراء التي وردت في كتاب ابن حزم وقارنها بما قاله (كانت) فتبين له أن نظرية المعرفة قد عرضت لابن حزم قبل (كانت) بسبعة قرون ونصف قرن . يرى ابن حزم أن المعرفة تكون : (١) بشهادة الحواس : أى بالاختيار لما تقع عليه الحواس . (٢) بأول العقل : أى بالضرورة وبالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس . (٣) برهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس وأول العقل . ويرى « ابن حزم » أن الغرض من الفلسفة والشريعة يجب أن يكون إصلاح النفس حتى تستعمل (النفس) الفضائل وتكون في دائرة السيرة الحسنة المؤدية إلى السلامة في المعاد وحسن السياسة للنزل والرعية . جاء في كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ما يلي :

« . . . الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها ، والغرض المقصود نحوه بتعلوها ، ليس هو شيئا غير إصلاح النفس ، بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد وحسن سياستها للنزل والرعية . وهذا نفسه لا غيره هو الغرض في الشريعة . هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء في الفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة . . . » .

و « ابن حزم » من المتقدمين في الظاهرية والمتحمسين لها . ومذهب

الظاهرية هو مذهب الجماعة الذين يقبلون ما جاءت به الآيات الكريمة والأخبار الموثوقة من الحديث والسنة ، ولا يتأولون شيئاً على ما لم تجربه ستة العرب في فهم لغتهم . وقد وضع في الظاهرية تأليف قيمة تعرض فيها لمسائل فقهية ومشاكل دينية ، وكان فيها مبتكراً إذ طبق الأصول الظاهرية على العقائد . ومن آرائه التي أودعها كتبه يتبين أنه من الذين « انتقصوا على التوسل بالأولياء ومذاهب الصوفية وأصحاب التنجيم » . كان يميل إلى المناظرة والهجوم على خصومه والذين يخالفونه في آرائه ، لكنه كان يتوخى دائماً إنصاف الخصوم ويتجنب التضليل واختلاق التهم .

ولابن حزم رسالة طريقة قيمة ، هي رسالة في المفاضلة بين الصحابة ، شرح فيها مذهبه في المفاضلة سالكا طريقاً منطقية محكمة . ولقد أحسن الأستاذ « سعيد الأفغانى » ، في نشرها تقديم بذلك خدمة علمية جليلة يشكر عليها أجزل الشكر .

في هذه الرسالة النفيسة كان ابن حزم مبتكراً في الطريقة التي اتبعها في ترتيب موضوعاتها ، وكانت على النمط الآتى : تقرير الأسس ثم بسط للدعوى ، ثم استعراض آراء الخصوم وشبههم ، وأخيراً دفع للشبه وبرهان للدعوى : وهي كما يقول الأستاذ الأفغانى « طريقة محكمة كاملة » تعلم الحوار المضبوط والمناقشة الدقيقة والجدل الصحيح القوى . وفوق ذلك دلت هذه الرسالة على « براعة في تحليل النصوص وجودة الاستنباط ودقة الفهم لها ... » يرى « ابن حزم » في هذه الرسالة أن العامل يفضل العامل في عمله بسبعة أوجه لا ثامن لها وهي : الماهية وهي عين الفعل وذاته ، والكمية وهي العرض في العمل ، والكيف ، والكم ، والزمان ، والمكان ، والإضافة . ثم يشرح كلا من هذه الأوجه في قالب جذاب يستهوى القارىء ، وبأسلوب سهل فيه ابتكار وفيه إحكام ومنطق .

والآن لا يتسع المجال لشرح آرائه ونظرياته ، ولكن يمكن القول إنه ترك تراثاً ضخماً لم يصل إلينا منه إلا القليل ، وهو يبحث في الفقه والأدب

والأخلاق والفلسفة وأخلاق النفس والأصول والإمامة والسياسة والمنطق والإيمان والفرق الإسلامية والإجماع والتاريخ . ولعل أشهر كتبه كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، وكتاب طوق الحمامة ، ورسالة المفاضلة ، وقد مر ذكرها .

وهذه كلها تدل على علم واسع وعقل حصيف وفكر خصب ، وأنه كما يقول الأستاذ الأفغانى : « أحد ذهنية انبثقت عنها الأندلس في جميع عصورها » . وهو يمثل العبقرية الأندلسية أروع تمثيل . وقد سما نبوغه وارتفع درجاته ، جعلت المؤرخين والباحثين يعتبرونه من المقدمين في تاريخ تقدم الفكر والعلم ومن أعلام العلماء الخالدين .

١٦ - الغزالي^(١)

«... الغزالي أعجب شخصية في تاريخ الإسلام...»

(دى بور)

الغزالي حجة الإسلام وزين الدين ومن أكبر أعلام الفكر الذين يعترف بهم الإسلام ويفتخر . ظهر في القرن الخامس للهجرة في عصر سادت فيه آراء الشك والاختلافات وعمت أوساطه الفوضى في المعتقدات والمذاهب . وكان لهذا أثر في حياة الغزالي ، كما كان لنشأته الصوفية الروحية أثر كبير فيها . فترجع إلى الانتصار للدين وسلك في ذلك مسلكاً جديداً لم يسلكه أحد من قبله حتى قال رينان : «... إن الغزالي هو الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذى اتجه لنفسه طريقاً خاصاً في التفكير...»

واجه الغزالي في أول حياته مذاهب مختلفة من كلام وباطنية وفلسفة وتصوف ، وساورته نزعات الشك والتحليل المنطقي ، واحتار في أمره ولم يدر أيها يتبع . وقد لجأ إلى دراسة هذه المذاهب واختبار حسناتها وسيئاتها ، رائده في ذلك الوصول إلى الحقيقة التي تروى النفس وتنير العقل ؛ فخاض بحار التفكير ، وتوغل في كل مظلمة ، وافتحم كل مشكلة وورطة ، وتفحص الفرق والعقائد ليميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع . درس الفلسفة على كنهها ، ودرس علم الكلام ليطلع على غاية المتكلمين ومحاولاتهم ، ودرس الصوفية ليعثر على سرها . وكان في دراساته واسع الصدر سما بتفكيره وحلق . وقد أدرك أنه لا يمكن للمحقق أو الباحث عن الحقيقة المتعطش لها أن يستوعب سبلها بغير الجمع بين سائر مظاهرها بما يقال للشيء أو عليه .

إن هذا الطريق سار عليه الغزالي يدل على قوة شخصية وعلى إيمانه بنفسه وثقته بمواهبه ومزاياه : بما ساعده في الانتصار على خصومه وعلى الفلسفة .

(١) ولد في طرس سنة ١٠٥٩ م ، وتوفي فيها سنة ١١١٢ م .

والغزالي يمتاز على غيره من علماء الكلام بكونه قرب الدين من العقل الاعتيادي وكشف دقائقه أمام أذهان العامة . في حين أن الكثيرين من الفقهاء ورجال الدين في عصره والعصور التي سبقت ساروا في تفكيرهم على أساس من الغموض وفي بحار من المغميات والأسرار ، وذلك مخافة على شخصياتهم من بروزها على حقيقتها ضعيفة واهية ، وخشية على نفوذهم أن يتلاشى إذا وضحت الأمور وزال الغموض .

والغزالي حين قرب الدين لم ينزل به ، بل استطاع بما أوتي من قوة العارضة وصفاء التفكير وسعة الاطلاع ، أن يرفع الإيمان من « حضيض السذاجة إلى قوة التفكير العالي مما جعل المفكرين في الشرق والغرب يرون فيه المثل الأعلى للتفكير الإلهي ، والنور المبدد لروح الشك والتشاؤم » . وقد قال (سارطون) في هذا الشأن : « إن أثر الغزالي في العلم الإلهي أعظم من أثر القديس توما .. »

درس الغزالي الفلسفة « ولم يكن الذي حمله على دراستها مجرد شغف بالعلم ، بل كان يتطلع إلى مخرج من الشكوك التي كان يثيرها عقله .. » ليطمئن قلبه ويتذوق الحقيقة العليا . وخرج من دراساته هذه وسياحاته وتنقلاته بكتب قيمة نفيسة أهمها : كتاب تهافت الفلاسفة ، وهو عمل عظيم لا يخلو من قيمة فلسفية : إذ هو : « ثمرة دراسة محكمة وتفكير طويل ، يبين المسائل الكبرى التي كانت محل خلاف بين الدين والفلسفة » ، بما يدل على طول نظر في الفلسفة ودراسة وافية لها . وقد بلغ فيه أقصى حدود الشك ، فسبق زعيم الفلاسفة الشكيين (دافيد هيوم) بسبعة قرون في الرد على نظرية « العلة والمعلول » .

لقد وصل « الغزالي » من دراساته الفلسفية وغيرها إلى ما وصل إليه (كانت) فيما بعد ؛ من أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا الغطاء عن جميع المعضلات ، وأنه لا بد من الرجوع إلى القلب وهو الذي يستطيع أن يدرك الحقائق الإلهية بالذوق والكشف ، وذلك بعد تصفية النفس بالعبادات والرياضات الصوفية ، وهو بذلك حاول أن يخضع العلم والعقل للوحي والدين لكي يصل إلى الحقيقة العليا .

وعلى الرغم من محاولته إخضاع العلم والعقل للوحي والدين ، فإنه كان يمجّد العقل ويرى فيه (كما جاء في كتاب إحياء علوم الدين) منبع العلم ومطلعه وأساسه ، وأن العلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والنور من الشمس . وقد أتى بجملة أحاديث نبوية تشير إلى مقام العقل وشرفه .

و « الغزالي » لم يأخذ بأقوال فلاسفة اليونان ، بل كان يعرضها ويسلط عليها العقل فيخرج بنقد صائب ورأى عبقرى . لقد اعترض على قول (جالينوس) اليونانى : « أن الشمس لا تقبل الانعدام » ويستدل على ذلك بأن الارصاد لم تدل على أى تبدل فى حرارة الشمس أو حجمها ، وهنا يأخذ الغزالي هذا القول ويرى فيه خطأ وخروجاً عن الصواب ، فأرصاد القدماء لم يصب إلا على التقريب ، والشمس قد تنخفض حرارتها أو ينقص حجمها دون أن يلاحظ الناس ذلك فى مدة قصيرة . وعلى ذلك يخرج الغزالي برأى صحيح هو ما توصل إليه علماء الفلك الحديث . فلقد انتهى العلم إلى أن الشمس تحتضر على حد تعبير السير جيمز جينز ، وأنها فى تناقص . وقد حسبوا ما ينقص منها (على الرغم من القوى والذخيرة التى تصل إليها بعوامل شتى) فوجدوا أنها تفقد من مادتها عن طريق الإشعاع (٣٦٠) ألف مليون طن فى كل يوم ! .

وللغزالي آراء تدل على حسن إيمانه بالبشرية وصفاء نظره إلى الخليفة الإنسانية ، وهو لم يأخذ بأقوال الذين يجعلون الشر مركباً فى طبع الإنسان . بل أحسن اعتقاده فى النشأة ، فجعله خيراً . ويرى أن الفطرة الإنسانية قابلة لكل شئ ، فالخير يكتسب بالتربية وكذلك الشر . وفى رأيه أن الإنسان لا يميل بفطرته إلى إحدى الجهتين ، وإنما هو يسعد ويشقى تبعاً لعوامل عديدة تتعلق بالآبوين والمحيط ، غير حاسب أى حساب للوراثة وما إليها .

وأراد الغزالي فى كتاب الإحياء قواعد ومبادئ ليسير عليها المعلم والمتعلم . ويمجد المتصفح لها أنها سامية الغايات ، فيها تحليل نفسى دقيق يدل على النضج وخصب القريحة ، وعلى معرفته التامة بنفسية المعلم والمتعلم . ويرى المؤرخون

أنها لا تقل عن النظريات الحديثة في علم التربية . وكذلك وضع الغزالي مبادئ جليلة في آداب المناظرة هي في الواقع الدستور الذي يجب أن يسلكه المتناظرون وأصحاب الجدل والبحث . وفي رأى الغزالي أن الخروج على هذه الآداب قد أشاع الخصومات وأنشأ العداوات ، لأن الغاية من الجدل والمناظرة لم تكن الحق والحقيقة كما يجب أن يكون ، بل كانت التغلب على الخصم والتفوق على المناظر .

والغزالي لم يذهب مذهب المعتزلة في أن العمل يكون حسنا أو قبيحا لأنه حسن أو قبيح بحكم العقل ، كما أنه لم يقل إنه حسن أو قبيح بحكم الشرع ، لكنه قال إن الحسن والقبح يرجعان إلى العقل والشرع معا . فالعمل خير إذا وافق العقل والشرع ، وشر إذا خالف العقل والشرع . وهكذا قاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع .

وتوفر الغزالي على بحث الأخلاق ، فأجاد في هذا الشأن وترك أبقى الآثار وأرفعها شأنًا ، ضمنها كتابه الشهير : « إحياء علوم الدين » ، لقد نهج الغزالي في فلسفة الأخلاق الناحية الدينية من حيث النظر والتقدير ، والناحية التحليلية النفسية من حيث التناول والوصف والتفسير .

والغزالي يجعل للعلم منطقة ، وللدين منطقة ، ولكل مزاياها وأحوالها الخاصة . والنفس البشرية تتصل بالمنطقتين ، فهي تتصل بالعالم الحسى عن طريق المعرفة والبرهان ، وبالعالم الروحى عن طريق الاختبار الشخصى والكشف . ويرى أن السعادة الروحية لا تأتى من الإيمان الفلسفى ، بل بالعمل انؤدى إلى الاتصال بالروح الأعلى . ومن هنا يتبين أن الغزالي حين يتناول الصوفية والروحيات ، فإنه يحررها من سخافات غلاتها ، وحين يتناول الدين : فإنه يجرده من أطمار الكلاميين ثم « يمزج حيوية الأولى بحيوية الثانى ، ويولد منهما مذهباً روحياً يقبله العقل ولا يدحضه البرهان . . . » .

وقد أعرض الغزالي عن معرفة هذا العالم عن طريق العقل ولكنه أدرك المسألة الدينية إدراكاً أعمق من إدراك فلاسفة عصره فقد كان

هؤلاء الفلاسفة عقليين شأن أسلافهم اليونان ، فاعتبروا أن أمور الدين ثمرة لتصور الشارع ووهمه بل هو ثمرة لهواه ، واعتبروا الدين انقياداً أعمى أو ضرباً من المعرفة فيه حقائق أدنى من حقائق الفلسفة . وقد عارض الغزالي هذا الرأي واعتبر الدين ذوقاً باطنياً لا مجرد أحكام شرعية أو عقائد ، بل هو شيء أكثر من ذلك ، وأنه شيء تتذوقه الروح . ويعلق « دى بور » على هذا فيقول : « . . . ولا يحتاج كل إنسان أن يبلغ في هذا الأمر مبلغ الغزالي . والذين لا يستطيعون متابعته إذ يعرج في مدارج السالكين متخطياً المعارف المكتسبة كلها ، لا يحصى لهم عن الإقرار بأن محاولاته في الوصول إلى الله ليست أقل شأنًا في تاريخ العقل الإنساني من مذاهب فلاسفة عصره ، وإن بدت هذه المذاهب أدنى إلى اليقين ، لأن أصحابها إنما ساروا في بلاد قد كشفها غيرهم من قبل . . . »

وجاء في كتاب : « نهاية الميزان » ما يشير إلى أن الشك هو طريق اليقين ، لأن الشكوك هي الموجبة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال ، ولم يفك الغزالي أن ينبه في مواطن عديدة من كتبه إلى أنه « يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاختصار مع العامة على المتداول المألوف . . . » فهو يرى أن يستعمل الشك بمقدار محدود ، وهذا المنهج يبين أن الغزالي يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية وينفر من كل ما يقربها من الانحلال . . . »

والمجال لا يتسع لعرض الآراء المختلفة التي أوردتها الغزالي في كتبه في الأخلاق والآداب والحقوق والواجبات ، ولكن يمكن القول إنه ترك تراثاً ضخماً في كتبه وتآليفه يجعله في الخالدين . وهو يعد بحق إمام أهل البيان في الأسلوب العلمي والأسلوب الاجتماعي ، ومزاجاً من علوم شتى . . . أنضجها البحث وصلها التفكير وأضتها تجاربه وشكوكه القاسية التي عاناها في نشأته

وأخيراً نعرض لمقام الغزالي عند الغربيين فنقول : « . . . كان للغزالي قيمة

ومقام عند الغربيين وقد أحلوه المكان اللائق ودرسوا مؤلفاته ورسائله وكتبه ، وكتبوا عنه المؤلفات الطوال . ومنهم من يتعصب له ويرى فيه واحداً من أربعة . يقول الدكتور زويمر : « ... كل باحث في تاريخ الإسلام يلتقي بأربعة من أولئك الفطاحل العظام ، وهم : محمد نبي المسلمين ، والبخارى ، والأشعري ، والغزالي ... »

ويرى « دى بور » أن الغزالي أعجب شخصية في تاريخ الإسلام . وكتب « كارا دى فو » عن الغزالي وقد أنصفه بعض الإنصاف . وهناك رسائل كثيرة كتبت عن الغزالي بالإنكليزية والفرنسية والألمانية ، وهي تدل على أنه شغل الباحثين والمستشرقين أمثال : الدكتور مولترو ماكدونالد ، ووستنفلد ، وشمولدرز ، ودى پور ، والاب بويج ، وماسينيون ، وجولد زيهر ، وغيرهم . فكان محل اهتمامهم وعنايتهم ، كما تدل على فضله وأثره الكبيرين في العلوم وخاصة الإلهية والصوفية والإخلاق .

١٧ - ابن باجة^(١)

«... ابن باجة خلع عن الفلسفة الإسلامية سيطرة
الجدل وأدخلها في دائرة العلم الصحيح...»

ابن باجة من الفلاسفة العرب الأعلام الذين ظهوروا في الأندلس في أواخر
القرن الحادى عشر للميلاد. اشتهر بالطب والرياضيات والفلك ، وكان محل
تقدير العلماء والمؤرخين . فقد اعترف بفضل ابن القفطى ، وابن أبى أصيبعة ،
وابن خلدون ، والمقرئ ، ولسان الدين بن الخطيب ، وغيرهم ، وقالوا عنه :
إنه علامة وقته ومن أكابر فلاسفة الاسلام . ولقد باغ الغاية في بعد الصيت
والشهرة والذكر الواسع العريض ونال إعجاب ابن رشد وابن طفيل . جاء
في كتاب « حى بن يقظان » عند التعرض لأهل النظر « أن ابن باجة كان
ثاقب الذهن صحيح النظر صادق الروية... »

وضع ابن باجة كثيراً من المؤلفات : في أرسطو وشروحه ، والمنطق ،
والطب ، والهندسة ، والنبات ، والأدوية المفردة ، والفلك ، والنفس ،
والعقل . ول سوء الحظ ضاع معظمها وبقي منها رسائل وصفحات في ترجمات
لاتينية وعبرية . وله كتاب عثر عليه أخيراً في مكتبة برلين . قال عنه الدكتور
« عمر فروخ » : «... غير أن الدهر لم يشأ أن يقسو على ابن باجة كثيراً
فانه قد حفظ لنا مخطوطة عظيمة الفائدة في مكتبة برلين العامة تقع في ٤٠
صفحة... » وهذا المخطوط قد غير أحكام العلماء على ابن باجة . وأزال
الغموض عن بعض النقاط ، وألقى نورا على تراثه وآرائه .

و « ابن باجة » ، فيلسوف ، بنى فلسفته العقلية على الرياضيات والطبيعات ،
وهذا ما أراد (كانت Nant) أن يسير عليه في فلسفته ، ومن هنا يرى بعض
الباحثين أن « ابن باجة » خلع عن مجموع الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل ،

(١) ولد في سرقسطة في أواخر القرن الحادى عشر للميلاد وتوفي في طاس سنة ١١٦٢م .

ثم خلع عليها لباس العلم الصحيح وسيرها في طريق جديدة وكذلك فصل بين الدين والفلسفة في البحث ، فهو بذلك أول فيلسوف في العصور الوسطى نحا هذا النحو : ويقول الدكتور فروخ : « . . . لما وقف ابن باجة — كما وقف من سبقه من فلاسفة الإسلام — أمام مشكلة الخلاف بين الشريعة والحكمة ، أنتجت له عبقريته أمرا مهما جدا . ذلك بأنه ليس من الضروري أن يهتم بأمر لم يستطع أحده قبله أن يبت فيه ، من أجل ذلك لم يتعرض ابن باجة للدين ، بل انصرف بكليته إلى الناحية العقلية وهو يرى في بحثه عن الحقيقة والعدل سعادة اجتمعت حول نفسه ، وأن الحياة السعيدة يمكن نيلها بالأفعال الصادرة عن الروية ، وتنمية القوى العقلية تنمية خالصة من القيود وقد بين هذا كله وأشار إلى الأفعال الإنسانية وأنواعها في كتابه : « تدبير المتوحد » . وفي رأى ابن باجة أن الفرد لكي يعيش كما ينبغي أن يعيش الإنسان على نور العقل وهديه ، عليه أن يعتزل المجتمع في بعض الأحيان . وهو يطالب الإنسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه ، وأنه يستطيع أن يفتنع بمحاسن الحياة الاجتماعية تاركا مساوئها وأن على الحكام أن يؤلفوا من أنفسهم جماعات صغيرة أو كبيرة ، وعليهم أن يتعدوا عن ملذات العامة ونزعاتهم ويحاولوا أن يعيشوا على الفطرة . ويظهر أن الآراء التي توصل إليها في اعتزال الناس والمجتمع قد أتت من المحيط والأوضاع التي نشأ فيها ، والذي يظهر لنا من حياته أنها لم تكن هادئة سعيدة ، بل كانت حافلة بالفاقة والقلق والاضطراب ، فلم يجد في عصره أنيسا يشاطره آراءه « وكان يرى نفسه أنه في وحدة عقلية سودت الحياة في نظره وجعلته يتمنى الموت ليحصل على الراحة الأخيرة .

ويعالج في كتابه هذا أعمال الإنسان ويفصل أنواعها للتمييز بينها ، وأنها إنما تنمايز بالعرض الذي ينتهي إليه ، وهو يرى أن بين الإنسان والحيوان رابطة كالتى بين الحيوان والنبات والتي بين النبات والجماد . والأعمال البشرية المحضة والخاصة بالإنسان — دون سواه — هي الناشئة عن الإرادة المطلقة : أى عن إرادة صادرة عن التفكير ، لا عن غريزة ثابتة في البشر ثبوتها في الحيوان .

فلو أن رجلا كسر حجرا لأنه جرح به ، فإنه يعمل عملا حيوانيا ، وأما من يكسر حجرا لئلا يجرح به سواه ، فعمله هذا يعد عملا إنسانيا . ويمكن القول : إن « ابن باجة » يرى أن أعمال البشر مركبة على عناصر حيوانية وإنسانية ، وأن على « المتوحد » أن يجعل العناصر الإنسانية تتغلب على أعماله ، وأن يجعل للتفكير والعقل التأثير الأول في حركاته ونواحي نشاطه . هذا إذا أراد ذلك « الإنسان المتوحد » أن يسمو بفضائله ويتميز بها . أما الذي يحارب فكرة وينقاد إلى شهواته : فهو ذلك الرجل الذي يفضل الحيوان السائر في طريق الضلال والظلام .

و « لابن باجة » رسالة الوداع . وقد كتبها قبيل رحلة طويلة وبث بها إلى أحد أصدقائه من تلاميذه ليسكون على بيته من آرائه فيما يتعلق بمسائل هامة . وفي هذه الرسالة تتجلى رغبة « ابن باجة » في الإشارة بمقام العلم والفلسفة ، ذلك لأنهما جديران بإرشاد الإنسان إلى الإحاطة الطبيعية وبمعرفة ذاته . وقد ضمن هذه الرسالة بعض آرائه الفلسفية ، ومنها أن المحرك الأول في الإنسان هو أصل الفكر ، وأن الغاية الحقيقية من وجود الإنسان ومن العلم هي القرب من الله والاتصال بالعقل الفعال الذي يفيض منه . و « ابن باجة » ينتقد الغزالي ، ومن رأيه أنه خدع نفسه وخدع الناس حين قال في كتاب (المنقذ) : إنه « بالخلوة ينكشف للإنسان العالم العقلي » ، ويرى الأمور الإلهية فيلتذ لذة كبيرة . وكذلك نقد ابن سينا فيما ذهب إليه من أن انكشاف الأمور الإلهية والاتصال بالملأ الأعلى يحدث التذاذاً عظيماً . بالتول : إن هذا الالتذاذ هو للقوة الخيالية لا غير . وعلى كل حال يمكن الخروج بالقول : إن « ابن باجة » أعطى الفلسفة العربية في الأندلس حركة ضد الميول الصوفية . . . وإن العلم النظري وحده قادر على الوصول بالإنسان إلى فهم ذاته وفهم العقل الفعال .

وقد تأثر ابن رشد بهذه الآراء ، والآراء التي تتعلق باتحاد النفوس ، وكذلك كان لها أثر كبير عند الفرق المسيحية وفلاسفة الكنيسة مما جعل القديس توماس ، وألبرت الأكبر ، يؤلفان رسائل خاصة لإبطالها .

وبذلك يكون ابن باجة « قد مهد السبيل للاتجاه الجديد الصحيح في الشرق والغرب معا . . . » ولعل هذا من أهم العوامل التي جعلت بعض معاصريه يحملون عليه ، فقالوا : إنه « قذى في عين الدين وعذاب لأهل الهدى » . وجاء في كتاب قلائد العقبان للفتح بن خاقان : « وقد اشتهر ابن باجة بين أهل عصره بهوسه وجحوده واشتغاله بسفاسف الأمور . ولم يشتغل بغير الرياضيات وعلم النجوم ، واحتقر كتاب الله الحكيم وأعرض عنه . وكان يقال بأن الدهر في تغير مستمر ، وأن لا شيء يدوم على حال ، وأن الإنسان كـبعض النباتات والحيوان ، وأن الموت نهاية كل شيء . . . »

هذه الأقوال التي نسبت إلى « ابن باجة » دفعت بعض منافسيه من أعمام الحسد والجهل إلى أن يتهموه بالزندقة وأن يقتلوه بالسـم في سنة ١١٣٨ م . و « لابن باجة » أثر كبير في الغرب المسيحي ، وفضل عظيم في ازدهار الفلسفة في المغرب . وقد تنبذ عليه جماعات لمع أفرادها في ميادين البحث والإنتاج . فتأثر به وبنـتاجه علماء اشتغلوا في الفلك والرياضيات والطب . فكان له ملاحظات قيمة على نظام بطليموس في الفلك ، وقد انتقده وأبان مواضع الضعف فيه . وكان لهذه الملاحظات وذلك النقد أثر على جابر بن الأفلح ودراساته في الهلك مما دفعه إلى إصلاح المجسطى في منتصف القرن الثاني عشر لليلاد . ويؤيد (سارطون) هذا كله ويضيف إليه بأن البطروجي تأثر كذلك بآراء ابن باجة في الفلك حتى قاده ذلك إلى القول بالحركة اللولبية (Spiral Matian) ، وامتد أثر ابن باجة إلى الطب فاستشهد به ابن البيطار في كتاب (الأدوية المفردة) في مواضع كثيرة ، واعتمد على رسالة ابن باجة في الطب .

وفوق ذلك كان أثر ابن باجة واضحا في الطريق التي سار عليها ابن طفيل في كتابه : « حى بن يقظان » كما كان أثره بالغاً في ابن رشد واتجاهه العقلي . . . ويرى مونك أن نظرية ابن رشد في العقل والخلود التي أثار بها ابن رشد أوروبا النصرانية ؛ إنما هي نظرية ابن باجة . . .

وعلى الرغم من قلة المصادر التي تتناول آثاره أو حياته فإن الغربيين قد عرفوا فضله وأدركوا ما تنطوى عليه فلسفته من الرسائل القليلة التي اطلعوا عليها . . قال رينان : « ولا ريب أن ابن باجة من أعظم الذين عملوا على ازدهار عصرهم ومن الذين حرصوا أن تباغ الفلسفة العقلية فيه المستوى الذي بلغته . . »

والعلامة « ديوبور » يرى أن آراء ابن باجة في الطبيعة وفيما بعدها متفقة في مجملها مع ما ذهب إليه المعلم الثاني وأن « الشيء » الوحيد الذي له بعض الشأن هو طريقته في بيان تكامل العقل الإنساني ومباني الإنسان في العلم ومكانه بين الموجودات .

وقبل أن نختم بحثنا عن « ابن باجة » لابد لنا من القول : إنه شاعر رقيق حوى شعره من دقة المعاني وسلامة المباني ما يدل على ذوق أدبي وشاعرية قوية ، وإحساس مرهف .
فن شعره :

قد أودعوا القلب لما ودعوا حرنا	فظل في الليل مثل النجم حيرانا
راودته يستعير الصبر بعدم	فقال إني استعرت اليوم نيرانا
وله :	

ضربوا القباب على أقاحى روضة	خطر التسيم بها نقاح عيرا
وتركت قلبي سار بين حوالمهم	دامى الكلام يسوق تلك العيرا
هلا سألت أميرهم هل عندهم	عان يفك وهل سألت غيورا
لا والذي جعل الغصون معاطفا	لهم وصاغ الألقحوان ثغورا
ما مر بي ريح الصبا من بعدم	إلا شهقت له فماد سعيرا

١٨ - الشريف الإدريسي^(١)

« إن كتاب الإدريسي في الجغرافيا أعظم وثيقة
علمية جغرافية في القرون الوسطى . . . »
(دائرة المعارف الفرنسية)

الإدريسي أشهر جغرافي العرب والإسلام :
ظهر في الأندلس وتثقف فيها وظاف البلاد ونزل في صقلية على ملكها
(روجر الثاني) : « .. فأجله وقربه لسعة علمه .. »

وقد ألف كتابا (بناء على طلب الملك روجر) في الجغرافيا سماه : (نزهة
المشتاق في اختراق الآفاق) ضمنه ما توصل إليه الأقدمون ، وزاد عليه
ما اطلع عليه بنفسه ، وما وصل إليه من دراسات وبحوث وخبرات ،
وما رواه عن السياح . وبقي هذا الكتاب المعتمد والمصدر لعلماء أوروبا
لأكثر من ثلاثة قرون .. ويقول (سيبولد) : « .. وهذا الكتاب نشر
بعضه مع إحدى وسبعين خريطة .. » (وقد ترجم وطبع أقسام من هذا الكتاب
على أيدي بعض المستشرقين . وطبع (دوزي) القسم المختص بالمغرب والسودان
ومصر والأندلس سنة ١٨٦٤ في لندن ، وطبع (روزن ملر) وصف الشام
وفلسطين في ليدسيك سنة ١٨٢٨ . وطبع (اماري) وغيره القسم المختص بإيطاليا
سنة ١٨٨٥ في روما . وطبع (كوندى) الأصل العربي مع الترجمة الإسبانية
الأقسام التي تتعلق بوصف الأندلس في مدريد سنة ١٧٩٩ .

ويرى (سيبولد) : « .. أن الدراسات العربية في حاجة ماسة إلى نشر
كتاب الإدريسي الذي يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافيا ،
مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط هامة له يعتمد في ذلك على المخطوطات
المعروفة لنا الآن في مكتبات باريس واكسفورد واستانبول . . . »

* * *

(١) ولد في سبته بالأندلس سنة ١١٠٠ م ، وتوفي سنة ١١٦٦ م .

لقد قضى الإدريسي شطرا من حياته في إعداد أول خريطة عالمية صحيحة . . . مبنية على الأصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة لذلك العهد والتي لا تختلف اختلافا كبيرا عما هو ثابت من ذلك لعهدنا هذا . . .

ويمتاز الإدريسي بدقته في حساب الأطوال والعروض للبلاد المختلفة ، فهو لم يكتف بما اتفق عليه العلماء في عهده أو العهود التي سبقتة ، بل كان يلجأ إلى أساليب جديدة ليتحقق من صحة ذلك ؛ فقد أحضر ما سماه : (لوح الترسيم) . . . وهو ولا شك تصميم جغرافي للككرة الأرضية ، أو بعبارة أدق مشروع خريطة العالم التي وضعها فيما بعد ، فيمتحن عليه مواقع البلدان واحدا فواحدا بواسطة بركار من حديد مقارنا ما عنده من معلومات بما قرره انثولفون في هذا العلم ، محققا بغاية العناية المواقع المذكورة ، ومرجعا بالاستناد إلى النظر الصحيح بين الأقوال المتضاربة في بعض المسائل حتى يقف على حقيقتها . وكان هذا بلاريب هو الإصلاح العظيم الذي أدخله الإدريسي على خريطة العالم ، فجعلها تقرب من وضعها العلمي الصحيح الذي هي عليه اليوم . . .

وقد أراد الإدريسي أن يخلد هذه الخريطة لتكون بمنجاة من عوامل التلف ، فأمر له الملك روجر بأن يوضع تحت تصرفه دائرة من النضة الخالصة . . . عظيمة الجرم ضخمة الجسم على حد تعبيره في وزن أربعمئة رطل بالرومي ، في كل رطل منها مائة درهم واثننا عشر درهما ، فلما كملت ، أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأنهارها وسيفها وريفها وخليجاتها وبحارها وبحار مياها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلد من بلدانها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسي المعروفة ، على نص ما يخرج إليهم ممثلا في لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئا ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه . . .

ولما أنجز هذا العمل انصرف الإدريسي إلى إنجاز كتابه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . . . الذي كان تأليفه هو الباعث على بذل هذه الجهود كلها ، والذي جاء به شبه التفسير والشرح لخريطة العالم الجديدة . وقد انتهى منه

ولقد كتب العلامة الألماني (ميلر) عن الإدريسي مطولا ، وأتى على ذكر خريطته ، ودفعه إعجابه وتقديره للإدريسي أن يجمع أطراف الخريطة الإدريسية وأن يدرس كتاب : نزهة المشتاق دراسة علمية ، فأخرج هذه الخريطة لأول مرة في طبعة ملونة غاية في الإتقان سنة ١٩٣١ .

ولقد رجعنا إلى ما كتبه الأستاذ « عبدالله كنون » عن الشريف الإدريسي ، وما ورد في كتاب : تراث الإسلام ، ودائرة المعارف الإسلامية ، وما نشر عنه من مقالات متفرقة في المقتطف والرسالة ؛ فتجلى أن الخريطة الإدريسية إنما تمثل القسم المعمور من الكرة الأرضية . وهو النصف الشمالي ، ويشمل العالم القديم أو مجموع القارات الثلاث التي هي آسيا وإفريقية وأوربا وإن كان هذا الاسم — القارة — لم يكن معروفا في ذلك الوقت

وكان تقسيم العالم مبنيًا على نظرية الأقاليم ، وهي سبعة . وقد أوردها الإدريسي بهذا العدد ، ولكنه حددها وقسمها بحسب درجات العرض فجعل الإقليم الأول بين (٠) ودرجة (٢٣) شمالا خط الاستواء ، والأقاليم الخمسة بعده ، كل واحد منها ست درجات ، والإقليم السابع من ٥٤ — ٦٣ . وما بعد هذه الدرجة الأخيرة منطقة غير مسكونة لكونها كثيرة البرودة ومغمورة بالثلوج .

ولقد أضاف الإدريسي إلى القسم الشمالي من الكرة الأرضية جزءا صغيرا من القسم الجنوبي حتى (١٦) عرضا جنوب خط الاستواء وهذا الجزء هو الذي تقع فيه منابع النيل ، وقد بينها ببراعة علمية فسبق بها علماء الجغرافيا والمكتشفين الذين أتوا بعده

ولقد قدر علماء الجغرافيا والباحثون في أوروبا وأميركا عبقرية الإدريسي في رسم خريطته ، فقد حاول بتقسيمه الأرض إلى الأقاليم السبعة إثبات درجات العرض وتحديداتها وأنه أفلح في هذه المحاولة إلى حد بعيد لقد قسم الإدريسي كلا من الأقاليم السبعة إلى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب إلى جهة الشرق ، وهذا التقسيم وإن لم يدل على درجات الطول فإنه يسهل القيام بالمهمة ويعين على رسم الخريطة .

وقد وضع لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة زيادة على الخريطة الجامعة ، وهذه الخرائط السبعون محفوظة في مختلف النسخ الموجودة من كتاب : نزهة المشتاق ، ومنها استخرج (ميلر) خريطة الإدريسي ونشرها بالحروف اللاتينية . .

وقد وجه المجمع العلمي العراقي عناية لهذه الخريطة ؛ فانتدب لها بعض أعضائه لإعادتها إلى أصلها العربي بعد أن رجعوا في تحقيقها وتصحيحها إلى خمس نسخ مصورة من كتاب : نزهة المشتاق ، وطائفة من كتب العرب الجغرافية واستدركوا على (ميلر) ما استدركوه وبينوا اختلاف النسخ ثم نشرها المجمع المذكور في حلة قشبية طولها متران وعرضها متر واحد في سنة ١٩٥١ . وقد تفضل المجمع العلمي مشكورا فأهدانا نسخة منها .
وقد يكون من الطريف أن نذكر أن قراءة خريطة الإدريسي تختلف عن قراءة الخرائط الحديثة ، فهو يجعل الجنوب في أعلى الصفحة والشمال في أسفلها ، وعندئذ يكون الغرب يمينا والشرق يسارا .

لقد أعجب المستشرقون والباحثون بخريطة الإدريسي وكتابه العظيم . فقال (دي فو) : « ... إن الإدريسي استعمل ملاحظاته الشخصية زيادة على الاتفاقيات بملاحظات معاصريه وأعمال المؤلفين قبله . ، ولا شك أن ما كتبه عن البلاد الغربية كان أحسن ما كتب عنها لأنه أعطاها بحثا من الطبقة الأولى . وقال البارون دي سلان : « ... إن كتاب الإدريسي لا يمكن أن يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له ، وهناك بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافي في الأمور المتعلقة بها
وجاء في دائرة المعارف الفرنسية : « ... إن كتاب الإدريسي هو أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب ، وإن ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى
وللإدريسي كتب أخرى في الأدبية المفردة ، تعرض فيها لقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومنايبتها وأعيانها ، وكذلك له كتاب : (روض الفرج ونزهة المهج) وهو مختصر لكتاب : نزهة المشتاق . . .

١٩ - ابن طفيل^(١)

« إن قصة ابن طفيل : (حى بن يقظان) فى مقدمة الآثار العربية التى تستحق الخلود فى تاريخ تقدم الفكر الإنسانى . »
فى القرن الثانى عشر للميلاد ظهر فى الأندلس مفكر عربى عظيم ترك آثارا خالدة فى ميدان الفلسفة ، هو ابن طفيل ، من أصحاب الكفايات النادرة ، ومن جبابرة المفكرين فى القرون الوسطى فى رأى الكثيرين من مؤرخى العلوم . شغل منصب الحجابة عند حاكم غرناطة وتبوأ مركز الوزارة عند الأمير « ابن يعقوب يوسف عبد المؤمن » صاحب المغرب . وكان لهذا الأمير الفضل الأكبر فى بروز مزايى ابن طفيل العقلية ، إذ شمله بمطفه وأحاطه برعايته وسهل له استغلال مواهبه التى جعلت من ابن طفيل عالما فلكيا رياضيا ، وطيبيا ، وفيلسوبا ، وأديبا من الطراز الأول .

نقد ابن طفيل بطليموس ، ونقد فلسفة الفارابى وابن سينا وابن رشد والغزالى . وكان فى كثير من الأحيان صائبا فى نقده عما يدل على أنه ذو بصيرة نافذة وعلى أنه كان مستقلا فى آرائه واتجاهاته الفلسفية . فهو — أى ابن طفيل — بعد أن اطالع على فلسفة الفلاسفة العرب وغير العرب ، وبعد أن وقف على آرائهم ونظرياتهم ، خرج بمذهب خاص به وضعه فى قصة سماها : « حى بن يقظان » وهى من أروع ما كتب فى القرون الوسطى وأحسن ما تفخر به الفلسفة العربية . وقد قال عنها الدكتور (سارطون) : « إن رسالة حى بن يقظان من أجل الكتب المبكرة فى موضوعها التى ظهرت فى القرون الوسطى . . . »

وقصة « حى بن يقظان » تشتمل على فلسفة ابن طفيل وقد ضمنها آراؤه ونظرياته . وتدور القصة حول « حى بن يقظان » الذى نشأ فى جزيرة من جزائر

(١) ولد فى قادس بالأندلس ، فى أوائل القرن الثانى عشر للميلاد ، وتوفى فى مهاكش سنة ١١٨٥ م .

الهند تحت خط الاستواء منعزلاً عن الناس في حضن ظبية قامت على تربيته وتأمين الغذاء له من لبنها، وما زال معها « وقد تدرج في المشى يحكى أصوات الطباء ويقلد أصوات الطيور ويهتدى إلى مثل أفعال الحيوانات بتقليد غرائزها ويقابس بينه وبينها حتى كبر وترعرع ، واستطاع بالملاحظة والفكر والتأمل أن يحصل على غذائه وأن يكشف بنفسه مذهباً فلسفياً يوضح به سائر حقائق الطبيعة ... » .

ومن يقرأ هذه القصة يجد أنها في الواقع تبحث في تطور عقل الإنسان تطوراً طبيعياً من حالة التحسس في الظلام إلى أعلى ذروة في النظر الفلسفي ، وكيف يستطيع الإنسان دون معونة من الخارج أن يتوصل إلى معرفة العالم العلوي ويهتدى إلى معرفة الله وخلود النفس . وكذلك يصف ابن طفيل ذهاب حى بن يقظان إلى الجزيرة المجاورة وإقامته بين سكانها ، وهو في هذا الوصف إنما يلجأ إلى وصف المجتمع من طرف خفي ، « فتمد أراد بذلك تشريح أحوال عصره الاجتماعية وبيان فساد الأنظمة وانحطاط الأخلاق وتفسخ العقائد الدينية . وفي نهاية القصة يقرر حى بن يقظان و « آسال » أن لا فائدة من بث أسرار الدين للعامة وأن ذلك مضر بهم ، وقد أدى بهما هذا القرار إلى الرجوع إلى جزيرتهما ليعبدا الله كما يعرفان . ويقرل الدكتور فروخ : « إن آسال الذي عرف الحق عن طريق الدين يترك طريق الدين ويقلد حياً في طريقة تعبده .. وهكذا يكون ابن طفيل قد فضل طريق العقل على طريق الدين ... » .

وقصة حى بن يقظان كانت محل تعليق عند كثير من أعيان الفكر ورجال الفلسفة في أوروبا ، فقال « دى بور » في كتابه النفيس : « تاريخ الفلسفة في الإسلام » : « وقصة حى بن يقظان أقرب لأن تمثل تاريخ الإنسان في تطوره مما كتبه المفكرون الأحرار في القرن الغابر ... وتدل نبذة كثيرة في القصة على أن ابن طفيل كان يقصد من حى أن يمثل الإنسانية لو لم ينزل عليها وحى سماوى ... » ويتابع « دى نور » كلامه ويقول : « ولا يخلو من مغزى قول ابن طفيل إن حياً نشأ في جزيرة سيلان التي يقال إن جوها صالح لإمكان التوالد الطبيعي ... » .

ولقد كان تأثير هذه القصة عظيما في مفكرى الافرنج فأخذوا عنها ،
ومنهم من نسج على منوالها . تأثر بها القديس « توما وسينوزا » ، وظهر أثرها
واضحا في قصة « اندريو » التي وضعها « بلتاسار غرانسيان » في القرن السابع ،
وكذلك في قصة « ربنسون كروزو » المشهورة . ونالت القصة إعجاب رجال
الفكر والفلسفة والتاريخ ؛ كالفيلسوف لينتز ، ومونك ، ورينان ،
وغويته ، وغيرهم .

وجاء في مقدمة كتاب حى بن يقظان الذى نشره الدكتوران : جميل صليبا
وكامل عياد ما يلى : « وتمتاز قصة ابن طفيل عن قصة ربنسون كروزو من
الناحية الفلسفية ، وكذلك تمتاز على غيرها من القصص الفلسفية الشرقية
بالقرب من الحقيقة الواقعة وبالوصف الطبيعى ، وبالتفصيلات الدقيقة عن
الحياة العلمية ، عدا رشاقة الأسلوب وسهولة العبارة وحسن الترتيب ، وهى
بهذه المزايا — ولا شك — فى مقدمة الآثار العربية التى تستحق الخلود
فى تاريخ الفكر البشرى »

وترجمت قصة حى بن يقظان إلى سائر اللغات . فظهرت ترجمتها فى
اللاتينية ، والانكليزية ، والهولندية ، والألمانية ، والفرنسية ، والاسبانية ،
والعربية ، والفارسية ، والروسية .

واشتهر ابن طفيل كذلك بتلاميذه ، وحسبه أن يكون ابن راشد أحدهم .
وكان يسير مع تلاميذه على أساس تنمية مواهبهم ، فكان يطلب منهم أن
يعالجوا مشكلات فلسفية وعلمية ، ويوضح لهم طرق المعالجة والبحث . واقترح
على ابن راشد تلخيص كتب أرسطو وتقريب عباراتها . ولم يصلنا شيء من
كتبه فى الفلك ، ولكن ما ورد فى بعض كتبه يدل على أنه واسع الاطلاع
فى هذا العلم . ونسب ابن راشد إلى ابن طفيل نظريات فى تركيب الأجرام
السمائية وحركاتها . وقال « البطروجى » وهو من تلاميذ ابن طفيل : إن
أستاذه (ابن طفيل) قد وفق لنظام فلكى جديد ، وأتى بآراء مبتكرة لم يأت
بها بطليموس ، وأن نظام ابن طفيل الجديد يحقق حركات الأجرام دون وقوع

في الخطأ . ولكن لم يصل إلى علمنا شيء من هذا النظام ، فقد يكون ضمن أحد المؤلفات التي ضاعت أثناء الانقلابات والحروب .

وكان ابن طفيل يأخذ بالبراهين العلمية في سائر دراساته ، إلا أنه خرج عن هذا الأسلوب عند البحث في معرفة الله . فقد أراد أن يقيد نفسه في معرفة كل شيء عن طريق العقل ، ولكنه عجز عن معرفة الله بالبراهين المجردة ، فاضطر إلى مجازاة الغزالي في معرفة الله عن طريق الكشف « بإشراق نور الله تعالى على قلوبهم بالمعرفة » .

وبحث في أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وقد أتى بآراء غير مخصصة على رأى « دى بور » . ويقرر ابن طفيل أهمية التجارب ، ويرى أن الإنسان عن طريق التجارب المتكررة يستطيع أن يفهم أسرار العالم المادى .

ولابن طفيل آراء في الأخلاق على غاية من الطرافة وردت في كتاب : حى ابن يقظان ؛ فالأخلاق عنده من حيز العقل والطبيعة ، لا من حيز الدين والاجتماع ، يرى أن « الأخلاق الحميدة هي التي لا تعترض الطبيعة في سيرها ، والتي لا تحول دون تحقيق الغاية الخاصة بالوجودات » ، « فن طبيعة الفاكهة مثلا أن تخرج من زهرتها ، ثم تنمو وتنضج ، ثم يسقط نواها على الأرض ، لتخرج من كل نواة شجرة جديدة . فإن قطف الإنسان هذه الثمرة قبل أن يستم نضجها بعد فإن عمله هذا يعد بعيدا عن الأخلاق لأنه يمنع النواة التي لم يتم نواها ونضجها بعد أن تحقق غايتها في هذا الوجود ، وذلك إخراج شجرة من نسلها .

وذهب ابن طفيل إلى أبعد من هذا فقال : إن الأخلاق الكريمة تقضى على الإنسان بأن يزيل العوائق التي تعترض الحيوان والنبات في سبيل تطوره وتحقيق غايته من الوجود . فإذا وقع نظره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه ؛ وجب على الإنسان أن يزيل ذلك الحاجب .

وهو يقرر مسؤولية الإنسان إذا سكنت على الخطأ ، ولم يعمل عل الإصلاح ، وإزالة أسباب الفساد والتأخر . وابن طفيل في هذا المجال يدعو

الفرد إلى أن يسير في سلوكه وجهوده وحيويته على أساس صالح المجموع وخير الجماعة ؛ ولعل تعريفه الجامع في أن الخلق هو أن تجري الطبيعة في كل شيء مجراها ، أدق تعريف وأوضحه ؛ فمجرى الطبيعة يوجب الاهتمام بالجماعة لبقائها ، ويوجب العناية بالجماعة لتقدمها وتحسينها . ولهذا جعل ابن طفيل الأخلاق الحميدة في هذا الإطار الرائع من الإيثار وحب الخير للمجموع .

وطالب الإنسان بالعمل على إزالة العوائق التي تعوق نموه وتحسينه ، وحمله مسئولية السكوت على الخطأ أو الظلم . وقال : إن الأخلاق الحميدة تنحتم عليه أن يصلح الخطأ أو يزيل الظلم المازل ، كما توجب على الإنسان أن يسعى دائما إلى الخير العام والصالح العام .

٢٠ - ابن رشد^(١)

« . . . ابن رشد فيلسوف متين متعمق ، صحيح
كثيراً من أغلاط الفكر الإنساني ، وأضاف إلى ثمرات
العقول ثروة قيمة لا يستغنى عنها يسواها . . . »
(بيكون)

ابن رشد أعظم حكماء القرون الوسطى على رأى الكثيرين ، ومن أكبر
فلاسفة الإسلام . وهو مؤسس الفكر الحر ، جرىء ومنطقي ؛ حصر جهده
في بادية الأمر في أرسطو ، فدرس مؤلفاته دراسة عميقة متحريراً دقائقها .
وهو لم يقف عند هذا الحد ، بل عمل على شرحها وخرج بشروح لم يسبق
إليها . وقد مضى في شروحه على طريقة النقد وفي أسلوب خاص . وبذلك
أورث الإنسانية علم أرسطو كاملاً بريئاً من الشوائب على رأى « دى بور » .
قال رينان : « . . . ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره
وشرح غامضه ، ثم جاء ابن رشد فالتقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها
وشرح غامضها . . . » واعترف « جون روبرتسون » بأن ابن رشد أشهر
مفكرى الإسلام وأنه أبعد الفلاسفة نفوذاً ، وأعظمهم أثراً في الفكر
الأوربي ؛ ذلك لأن طريقته في شرح أرسطو بلغت الغاية .

ولقد اطلع « بيكون » على مؤلفات ابن رشد ودرسها دراسة عميقة ،
واستفاد منها فوائد جليلة كان لها أثر كبير في نتاجه واتجاهات تفكيره . وكان
معجباً بابن رشد إعجاباً دفعه إلى الاعتراف : « أن ابن رشد فيلسوف متين
متعمق . صحيح كثيراً من أغلاط الفكر ، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة
لا يستغنى عنها يسواها ، وأدرك كثيراً مما لم يكن قبله معلوماً لأحد . وأزال
الغموض من كثير من الكتب التي يتناولها بحثه . . . »

امتاز ابن رشد بالنقد ، وكان أثره بالغاً عند اليهود والمسيحيين ؛ فقد نقد
بطليموس في فلكه ، كما نقد شروح أسكندر فردوس وغستوس ، وكذلك

(١) ولد ابن رشد في قرطبة سنة ١١٢٦ م ، وتوفي في مراكش سنة ١١٩٨ م .

نقد ابن سينا وهاجمه ورد على الفارابي والغزالي . وكان شديدا في نقده ورده قاسى اللهجة ، ولكن القلم سما به في هذا إلى أعلى درجات الكمال الفكرى . لقد اقتبس الغرب فلسفة ابن شد بكاملها ، وكان من حسناتها أن حلت عقل الفكر الأوروبي وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريحها . وعلى هذا يقول الدكتور فروخ : « . . . ولم يكن من المستغرب أن يعجب مفكرو العصور الوسطى بشروح ابن رشد وبإصابة آرائه . . . » وهكذا نشأ مذهب الرشيدية للأخذ بالعقل عند البحث وعدم الاعتماد على الروايات الدينية .

كان ابن رشد مخلصا للحق إلى أبعد الحدود ، يسعى إلى الحقيقة ويعمل جادا على الوصول إليها والأخذ بها دون اعتبار القائل أو الدين . وكان يدعو إلى قبول الآراء الصحيحة سواء جاءت من مسلم أم غير مسلم . فقال في هذا الشأن في كتابه : فصل المقال ما بين الحكمة والشرعية من اتصال : « . . . يجب علينا إذا ألقينا لمن تقدمنا في الأمم السالفة نظرا في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ، أن ننظر في الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم . فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم . . . » وعلينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك . . . وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا في الملة أم غير مشارك في الملة ، فإن الآلة التى تصح التزكية ليس يعتبر في صحة التزكية كونها آلة المشارك لنا في الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة . . . » وقد تعرض الدكتور عمر فروخ في كتابه : « عبقرية العرب » لنظرية (كانت) الفيلسوف الألماني في المكان والزمان ، فأجاد في العرض والتحليل ، وكان موفقا في النتيجة التى خرج بها ، فقد بين أن ابن رشد سبق (كانت) في بحوث الزمان والمكان ، وأنه لم يكن للفيلسوف الألماني فضل الابتكار ، بل كان له فضل التوسع لا غير .

ويدلل الدكتور فروخ على ذلك بما جاء في كتاب : « تهافت التهافت » من أقوال وآراء سبق بها ابن رشد فلاسفة القرنين : الثامن عشر والتاسع عشر .

ويرى كثيرون من الفلاسفة وأعيان الفكر ، أن فلسفة ابن رشد تركت أكبر الأثر في أوروبا وأخرجتها من ظلمات التقليد إلى نور العقل والفكر . ولهذا نجدهم يسمونه (أى ابن رشد) مع أفلاطون وأرسطو وكانت في صف واحد في الفلسفة العقلية .

رأى ابن رشد من دراساته الدينية والفلسفية ، وفي حملة الغزالي على الفلسفة ، أن الخلاص للحق يوجب عليه أن يدفع عنها . وهنا برقت له رسالته في الحياة ، فقام يدعو إلى الانتصاف للفلسفة ورد اعتبارها لها وإحيائها والتوفيق بينها وبين الشريعة .

ويتبين من الآراء التي بثها في كتبه ، أنه كان بعيداً عن التصوف ، يتقيد بالعقل ، ولا يسير إلا على هداه . وكان من ذلك أن اصطدم بوجهة النظر الدينية في بعض المسائل ، فنشأ عداً بينه وبين رجال الدين أدى إلى اضطهاده في أواخر أيام حياته .

وكان ابن رشد ينظر من علم الكلام الإسلامي ، لكنه كان يرى في الدين ضرباً من الحق . وقد ذهب إلى ما ذهب إليه « سينيوزا » ، فيما بعد من أن الوحي يرمى إلى إصلاح الناس وتحسين أحوالهم لا إلى تعليمهم فقط ، وأن غرض الشارع ليس تنقيت العلم ، بل أخذ الناس بصالح الأعمال والطاعة . وهو ينظر إلى الدين بعين الرجل السياسي (كما يقول دي بور) ويرى فيه وسيلة فعالة للإصلاح لما يستهدف من غايات خلقية سامية ، فهو يؤمن بالمجتمع ولا يرى السعادة إلا فيه ، وأن سعادة الفرد في سعادة المجموع ، ومصلحة الدولة يجب أن يكون لها الاعتبار الأول ، وهي فوق مصلحة الفرد . ولهذا لا عجب إذا رأيتاه ينتهز الفرص ليوجه حملاته على الحكام الجاهلين لأنهم لا يقدررون الصالح العام ولا يهتمون إلا بمصلحتهم الخاصة مهملين مصلحة المجمع الذي يعيشون فيه .

ولعل هذا كله يعود إلى روحه العلمي الصحيح ، فقد سما به هذا الروح فجعله من أشد الناس تواضعاً وأخفهم جشاعاً وأعلمهم أنانية ، واستغل نفوذه

عند المسئولين والملوك والأمراء في الصالح العام ، ولم يطلب جاهها ، ولا مالا لنفسه ، بل كان يتجه إلى خير المجموع من أهل بلده ووطنه ، الأندلس . ومن هنا يتجلى أن فلسفته العملية كانت تتجه نحو الخير العام الشامل ، فدعا إلى الاهتمام بصالح الجماعة ، وأن على الإنسان أن يأخذ بنصيب في إسعاد المجموع . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يدعو النساء إلى القيام بخدمة المجتمع والدولة قيام الرجال . وهو يرى أن حالة العبودية التي نشأت عليها المرأة قد أتلفت مواهبها وقضت على مقدرتها العقلية ، ولهذا قل أن تجد امرأة ذات فضائل أو على خلق عظيم ، وهن عالة على أزواجهن كالحیوانات الطفيلية . وعلى ذلك فهو يرى أن الكثير من الفقر في عصره . . . يرجع إلى أن الرجل يمسك المرأة لنفسه كأنها نبات أو حيوان أليف لمجرد متاع فان ، يمكن أن توجه إليه جميع المطاعن ، بدلا من أن يمكنها من المشاركة في إنتاج الثروة المادية والعقلية ، وفي حفظها . . .

ويحمل ابن رشد على مذهب الفقهاء الذين يقولون إن الخير يكون خيرا لأن الله أمر به ، وأن الشر يكون شرا لأن الله نهى عنه . ويخالفهم في هذا كله ويعلم أن العمل يكون خيرا لنفسه وشرا لنفسه أو ذاته أو بحكم العقل . والعمل الخلقى هو الذى يصدر عن روية عقلية ، ويلاحظ أن عقل الفرد قد يشط في بعض الأحيان ويحتاط لهذا القول : . . . وينبغي أن لا يكون مرجعنا الأخير إلى عقل الفرد بل إلى ما تمليه مصلحة الدولة . . .

وتناول ابن رشد في بعض مؤلفاته معنى الميل وأنى بآراء في الحركة والقصور الذاتى (وآراء أخرى لابن سينا وغيره من الفلاسفة الإسلاميين) هى فى واقع الأمر تمهيد لبعض معانى الديناميكا الحديث .

ويدفعنا الإخلاص للحقيقة إلى القول إن الأستاذ « مصطفى نظيف » أول من عنى بتتبع خطوات التطور الذى سبق نشوء معنى القصور الذاتى ، وأول من عرض لآراء ابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، والطوسي ، وغير الدين الرازى ، فى هذا الصدد ، وقد تبينها من رسائل هؤلاء ومؤلفاتهم . وضمن

دراسته لهذه الآراء وتعليقاته عليها في المحاضرة الرابعة من محاضرات ابن الهيثم التذكارية ، التي ألقاها في كلية الهندسة بجامعة القاهرة في أواخر عام ١٩٤٢ .

يأتى الأستاذ « نظيف » على أقوال في الحركة والجسم ومعنى الميل من المقالة الثامنة من كتاب ما بعد الطبيعة لابن رشد ، وبعد أن يناقشها ويقارنها بأقوال في البحوث نفسها لابن سينا وغيره من الفلاسفة العرب ، يخرج بالنتيجة التالية : « ... فإني لا أراى أخطى » أو أخرج عن مدلولات ألفاظ . أقوال ابن رشد إذا قلت إن رأى ابن رشد يتلخص في أن الشيء الأول الذى تشترك فيه جميع الأجسام مع ما بين الأجسام من الاختلاف فى القوة أو قبول الفعل . وفى الأفعال والتأثيرات بعضها فى الآخر ، وفى مقدار قبولها الامتداد فى الأبعاد الثلاثة : أى بمعنى الاحياز التى تشغلها ، وهذا الشيء الذى هو كالمقاسم المشترك الأول بينها جميعا هو « صورة الميل من جهة ما عرض لها الأبعاد ... » ، فإن كل معنى الميل هو معنى المعاوقة للتحريك القسرى وهو الذى يتضح من أقوال ابن سينا وغيره ، كان مدلول رأى ابن رشد فى اصطلاحاتنا الحديثة أن ما نسميه « المادة » فى الأجسام المادية جميعا هو قصور ذاتى يشغل حيزا من الفراغ . وهذا فى نظرى من أبلغ ما يعبر به عن معنى المادة بحسب وجهة النظر فى علم الديناميكا ... »

ويتابع — الأستاذ نظيف — تعليقه فيقول : « فإن كانت الفلسفة الإسلامية قد بدأت بتعريف الجسم بأنه الجوهر المحسوس الذى يشغل حيزا من الفراغ فإنها لم تقف بالجسم عند هذا التعريف ، بل أضافت إليه معنى آخر ، هو أن المعاوقة عن التحريك القسرى خاصية أساسية فيه . وهذا المعنى هو أحد الأسس الأولى التى ينبنى عليها صرح علم الديناميكا . »

٢١ - الخازن^(١)

«... ان كتاب ميزان الحكمة للخازن من أجل الكتب العلمية وأروع ما أنتجته القريحة في القرون الوسطى...»
(سارطون)

أحاطت بحياة «الخازن» غيوم كثيفة من الغموض والإبهام، وأصاب نتاجه إهمال، ولحق بآثره إجحاف لم يلحق بغيره من أعيان الفكر عند العرب، مما أدى إلى الخلط بينه وبين علماء آخرين، فنسبت آثاره إلى غيره كما نسبت آثار غيره إليه.

وقد خلط بعض الباحثين بينه وبين ابن الهيثم، فقال (دراير) الأميركي: إن الخازن هو الحسن بن الهيثم. ومنهم من قال: إن الخازن من الأندلس. وذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فشكوا في ظهور عالم باسم الخازن؛ وقال إن هذا الاسم قد جاء من تحريف لاسم الهيثم. وهذا ما جعلهم يظنون بأن الاسمين هما لشخص واحد، فوقعوا في أخطاء وأغلاط نراها مبثوثة في كتب تاريخ العلوم.

و«الخازن» من علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد. وهو من (مرو) من أعمال خراسان؛ لمع في سماء البحث والابتكار. واشتغل في الطبيعة ولا سيما في بحوث الميكانيكا فبلغ فيها الذروة، وأتى بما لم يأت به غيره من الذين سبقوه من علماء اليونان والعرب. كما وفق في عمل زيج فلكى سماه (الزيج المعتبر السنجاري) وفيه حسب مواقع النجوم لعام ١١١٥ - ١١١٦ م. وجمع أرصادا أخرى هي في غاية الدقة بقيت مرجعا للفلكيين مدة طويلة. وفي هذا الزيج أيضاً جداول السطوح المائلة والصاعدة ومعادلات لإيجاد الزمن من خطوط العرض لمدينة (مرو). ولقد كان هذا الكتاب مصدرا من المصادر التي اعتمد عليها «نلاينو» في تأليفه عن الفلك عند العرب.

(١) ظهر الخازن في مرو (من مدن خراسان) في النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد.

لقد عثر مصادفة على كتاب « ميزان الحكمة » للخازن في منتصف القرن الماضي ، وهو من أروع آثاره ، بل هو الكتاب الأول من نوعه في العلوم الطبيعية القديمة عامة وعلم « الهيدروستاتيكا » خاصة . كتب عنه بعض الباحثين عدة مقالات في المجلات الأميركية والألمانية . ولعل الأستاذ « ويدمان » أكثر العلماء اعتناء بهذا الكتاب النفيس ؛ فلقد ترجم فصولا عدة من « ميزان الحكمة » وشرحها وعلق عليها ، وهناك من المؤرخين من حرر رسائل عن محتويات الكتاب المذكور ودلوا فيها على فضل الخازن في علم الطبيعة .

ويدفعني الإنصاف إلى القول إن الأستاذ « مصطفى نظيف » أول عربي أشار إلى بعض محتويات الكتاب المذكور في مؤلفه : « علم الطبيعة — تقدمه ورقه » ، ولا أدري لماذا لم ينشر هذا الكتاب ؟ وكنا نندظر أن تقوم جامعة القاهرة بمصر بذلك .

وأخيرا كتب الله لكتاب « ميزان الحكمة » أن يخرج من مخطوط محفوظ إلى كتاب منشور ؛ وقد تولى نقله وطبعه ونشره السيد فؤاد جيعان . وكتاب « ميزان الحكمة » من أنفس الكتب العلمية ، وهو الوحيد الذي يحتوي على بحوث مبتكرة جليلة لها أعظم الأثر في تقدم (الهيدروستاتيكا) وقد قال عنها الدكتور سارطون : « إن بحوث ميزان الحكمة من أجل البحوث وأروع ما أنتجته القريحة في القرون الوسطى . . . » .

من هذا الكتاب تتجلى عبقرية « الخازن » وبدائع ثمرات التفكير العربي . واعترف « بلتن » في أكاديمية العلوم الأميركية بما لهذا الكتاب من الشأن في تاريخ الطبيعة وتقدم الفكر عند العرب .

لا يجمل طلاب الفيزياء أن « توريشللي » بحث في وزن الهواء وكثافته والضغط الذي يحدثه . وقد مر على بعضهم في تاريخ الطبيعة أن « توريشللي » المذكور لم يسبق في ذلك ، وأنه أول من وجه النظر إلى مثل هذه الموضوعات وبحث فيها وأشار إلى منزلتها وشأنها . والواقع غير هذا ؛ فلقد ثبت من كتاب « ميزان الحكمة » أن من بين الموضوعات التي تناولها ، موضوع الهواء ووزنه ،

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أشار أن للهواء قوة رافعة كالسوائل ، وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتبع كثافة الهواء .

وبين الخازن أيضا أن قاعدة أرخيدس ، لا تسرى على السوائل فحسب بل تسرى على الغازات . وأبدع في البحث في مقدار ما يغمر من الأجسام الطافية في السوائل . ولا شك أن هذه البحوث هي من الأسس التي بنى عليها العلماء الأوربيون — فيما بعد — بعض الاختراعات الهامة ؛ كالبارومتر ، ومفرغات الهواء ، والمضخات المستعملة لرفع المياه . ولسنا هنا نقتص من قدر « توريشلي » و « بسكال » و « بويل » وغيرهم من العلماء الذين تقدموا بعلم (الهيدروستاتيكا) خطى واسعة . ولكن ما نريد تقريره هو أن « الخازن » قد ساهم في وضع بعض مباحث علم الفيزياء ، وأن له فضلا في هذا كما لغيره من الذين أتوا من بعده . وقد توسعوا في هذه الأسس ووضعوها في شكل يمكن معه استغلالها والاستفادة منها .

وبحث « الخازن » في الكثافة وكيفية إيجادها للأجسام الصلبة والسائلة ، واعتمد في ذلك على كتابات البيروني وتجاربه فيها ، وعلى آلات متعددة ، وموازن مختلفة استعملها لهذا الغرض . واخترع ميزانا لوزن الأجسام في الهواء والماء ، وكان لهذا الميزان خمس كفات تتحرك إحداها على ذراع مدرج . ويقول « بلتن » إن « الخازن » استعمل « الإيرومتر » لقياس الكثافات وتقدير حرارة السوائل . . ومن الغريب أن نجد الكثافات لكثير من العناصر والمركبات التي أوردها في كتابه قد بلغت درجة عظيمة من الدقة لم يصلها علماء القرن الثامن عشر للميلاد . وفي بعض مؤلفاته ما يدل على أن العرب تمكنوا من إيجاد الأثقال النوعية للمعادن المخلوطة وإيجاد مقدار كل منها .

وتقدم « الخازن » ببحوث الجاذبية بعض التقدم وأضاف إليها إضافات لم يعرفها الذين سبقوه . ويتجلى في كتاب « ميزان الحكمة » أن الخازن قال بقوة جاذبة على جميع جزئيات الأجسام ، وأن هذه القوة هي التي تبين صفة

الاجسام . وأجاد في بحوث مراكز الاتقال وفي شرح بعض الآلات البسيطة وكيفية الانتفاع بها . وقد أحاط بدقائق المبادئ التي يقوم عليها ائزان الميزان والقبان واستقرار الاتزان إحاطة مكنته من اختراع نوع غريب من الموازين لوزن الأجسام في الهواء والماء كما مر بنا .

هذا ما استطعنا الوقوف عليه من آثار « الخازن » بعد الرجوع إلى مصادر عديدة . والذي نرجوه أن تكون هذه النبذة حافزة لغيرنا للاعتناء بتراث هذا العالم العربي الذي ترك ثروة علمية ثمينة للأجيال ، كما نأمل أن تدفع الباحثين والمؤرخين إلى الاهتمام برفع الإجحاف الذي أصابه والعمل على إزالة الغيوم المحيطة بنواح أخرى من ثمرات قريحته الخصبة المنتجة .

٢٢ — ابن النفيس^(١)

« الإمام الأول لهارفى الطيب اليريطانى الشهير » .
كان ابن النفيس إماماً فى الطب لا يضاهى فى ذلك ولا يدانى استحضارا
واستنباطا .

هذا ما قاله أحد معاصريه :

صنف فى المنطق والفلسفة وأصول الفقه والعربية والحديث وعلم البيان .
وله فى هذا كله رسائل نفيسة وتآليف قيمة .

وكان لتضلعه فى هذه الألوان المختلفة من المعرفة أكبر الأثر فى قوة
الاستيعاب عنده وفى التوسع فى ميادين الفكر والعلم والطب . ولم يكن هذا
هو الذى حلق به فى أجواء العبقرية والنبوغ ، بل إن سر عبقريته ونبوغه
يكن فى مزايا لم يحملها غيره من معاصريه أو من كثير من الذين أخذ عنهم
ودرس عليهم .

فقد كان مستقلا فى التفكير والرأى ، يعتمد فى استنتاجاته على العقل
والملاحظة والتجربة . وقد أشرب روح النقد بما دفعه إلى مخالفة الآراء الشائعة
المتداولة ومعارضة الفلاسفة والحكام ، من الذين سبقوه .

كان يمحس الآراء ويدرسها ويساط عليها عقله ومنطقه وخبرته ؛ فإذا
خرج بصحتها أخذ بها ، وإذا لمس فيها خطأ أو الشذوذ بين فسادها ودعا إلى
نبتها وإهمالها .

ولعل استقلاله هذا وروح النقد — التى كان يحملها — كائنا من العوامل
التى جعلت ابن النفيس يسبق عصره فى العلاج والتطبيب العلمى . فجاء بآراء
ونظريات هى فى الواقع فتح فى ميدان الطب وعلم وظائف الأعضاء .

لقد كشف « ابن النفيس » الدورة الدموية الصغرى ، وقال : « إن الدم
ينقى فى الرتين ، قبل (سرفيتوس) بثلاثة قرون .

(١) ظهر فى دمشق فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد .

لقد كان الشائع في زمن « ابن النفيس » الرأى الذى قال به جالينوس وابن سينا ، وهو « ... ان الدم يتولد في الكبد ومنه ينتقل إلى البطين الأيمن في القلب ثم يسرى بعد ذلك في العروق إلى مختلف أعضاء الجسم فيغذيها ، وأن بعضه يدخل البطين الأيسر عن طريق مسام في الحجاب الحاجز حيث يمتزج بالهواء الذى يأتى من الرئتين . وكان هذا المزيج يسمى بالروح الحيوى الذى ينساب في الشرايين إلى مختلف أنحاء الجسم . والظاهر أن هذا الاعتقاد جاء مصداقا للحقيقة الآتية : وهى أن عروق الموتى تكون عادة طافخة بالدم مملوءة به في حين تكاد الشرايين أن تكون خالية منه . على أننا نعلم الآن أن السبب في ذلك يعود إلى أن النبضات الأخيرة للقلب تنضج بالدم من الشرايين . ولكن الأطباء في العصور الوسطى والقديمة لم يدركوا هذه الحقيقة ولم يعرفوا شيئا عن الدورة الدموية . . . » .

ولقد قام « ابن النفيس » يعارض هذه الآراء وينقدها حتى ولو كانت من جالينوس أو ابن سينا .

ولم يقف عند هذه الحدود ، بل خطا خطوات إيجابية وخرج من ملاحظاته وخبراته ودراساته إلى أن الدم ينساب من البطين الأيمن إلى الرئة ، حيث يمتزج بالهواء ثم إلى البطين الأيسر ؛ وهى الدورة التى نسميها اليوم بالدورة الدموية الصغرى .

وهكذا كما يقول الدكتور « يوسف شخت » : أصبح « ابن النفيس » الإمام الأول لهارفى الطبيب البريطانى الشهير ، الذى خطا في المسألة خطوة جديدة ، وكشف سنة ١٦٢٨ م الدورة الدموية الكبرى من البطين الأيسر إلى الشرايين ، ومنها إلى الأوردة ثم البطين الأيمن .

« ألف ابن النفيس » مؤلفات عدة ، أهمها (الموجز) ، وهو ملحق لقانون ابن سينا ، وكتاب (شرح تشريح القانون) يوصى به بدرس التشريح المقابل ويشير في مقدمته إلى المصادر التى أخذ عنها .

وقد ورد في مقدمة هذا الكتاب ما يدل على أماتته وإرجاع كل رأى أو نظرية إلى صاحبها ، كما دلت هذه المقدمة على استقلاله فى التفكير وعدم اعتماده على آراء من سبقه ، إلا على أساس الدرس والملاحظة والبحث . قال فى أحد المواضع فى هذه المقدمة : « . . . وأما منافع الأعضاء فإنما يعتمد فى تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم . ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أم خالفه . . . »

٢٣ - ابن البيطار^(١)

« ابن البيطار أعظم عالم نباتي ظهر في القرون الوسطى ،

« ابن البيطار ، أعظم عالم نباتي ظهر في القرون الوسطى ، ومن أكثر العلماء إنتاجا . درس النبات في بلاد مختلفة ، وكان لملاحظاته الخاصة وتنقيحاته القيمة الأثر الكبير في السير بهذا العلم خطوات واسعة . ويقول عنه معاصروه : « ضياء الدين بن البيطار هو الحكيم الأجل العالم النباتي المألقي . . أوحده زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختباره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها . . سافر إلى بلاد اليونان وتجول في المغرب ومصر والشام رغبة في العلم وجمع الحشائش والنباتات ، واجتمع هناك إلى بعض الذين يعنون بالتاريخ الطبيعى ، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير وعائنه في مواضعه . . كما عاين منابته وتحقق ماهيته . . .

كان « ابن البيطار ، موضع إعجاب ابن أبى أصيبعة الذى يقول : « . . . وأول اجتماعى بابن البيطار بدمشق سنة ٦٣٣ هـ . . . » ويقول أيضا إنه رأى فيه أخلاقاً سامية ومروءة كاملة ، وجمع وإياه الحشائش في ظاهر دمشق ، فوجد فيه العلم غزيراً ومن الدراية والفهم شيئاً كثيراً . ولابن البيطار قوة ذاكرة عجيبة ذكرها ابن أبى أصيبعة في طبقاته . فقد كانا يجتمعان معاً للذاكرة ويحضران الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة ؛ مثل كتاب ديسقوريدس ، وجالينوس ، والفاقي ، وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن ؛ فكان « ابن البيطار ، يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني ثم يذكر جملة ما قاله (ديسقوريدس) من لغته وصفته وأفعاله ، ويذكر أيضاً ما قاله جالينوس فيه من لغته ومزاجه وأفعاله وما يتعلق بذلك ، ويذكر أيضاً ما قاله المتأخرون وما اختلفوا فيه ومواضع الغلط والاشتباه الذى وقع لبعضهم في نعته .

(١) ولد في الربع الأخير من القرن السادس للهجرة (الثاني عشر الميلادى) ، وتوفى

في دمشق سنة ١٢٤٨ م .

وفوق ذلك كان لا يذكر دواء إلا ويعين في أية مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس ، وفي أى عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة . وهذا يدل على حافظة عجيبة وذاكرة قوية إلى أبعد الحدود مما أدهش الذين عاصروه ولازموه .

ومن هنا يتجلى أن « ابن البيطار » كان واقفا على ما حوته كتب الذين سبقوه من علماء اليونان وكتب الفارسي والإدريسي ، وقد فهمها جيدا ، ولم يغادر صغيرة أو كبيرة فيها إلا وطبقها على النباتات ، واستخلص منها الأدوية والعقاقير المتنوعة .

كان في خدمة الملك : « الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب » ، وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة والحشائش ، وقد جعله في الديار المصرية رئيسا على سائر العشابين . وبعد وفاة الكامل أبقاه ابنه « الملك الصالح نجم الدين » في خدمته في دمشق ، وكان حظيا عنده متقدما في أيامه .

ألف ابن البيطار في النبات فزاد في الثروة العلمية ، وكان موفقا منتجا إلى أبعد الحدود . ويعد كتابه : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » من أنفس الكتب النباتية . ويقول ابن أبي أصيبعة : « ... استقصى في كتاب الجامع ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه . ولم يوجد في الأدوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منه ... » . ويقول عنه ماكس ماير هوف : « إنه أعظم كاتب عربي ظهر : في علم النبات » واعترف « روسكا » بأهمية هذا الكتاب وقيمه وأثره الكبير في تقدم علم النبات . وقد ألقه بعد دراسات طويلة ، وتحقيقات « هندية » في بلاد اليونان والإسبان والمغرب وآسيا الصغرى ، واعتمد في بحوثه على كتب عديدة لا أكثر من مئة وخمسين مؤلفا بينهم عشرون يونانيا . ولم يقف الأمر عند حل النقل بل وضع فيه ملاحظاته الخاصة وتنقيحاته المتعددة ، كما وصف فيه أكثر من (١٤٠٠) عقار بين نباتي وحيواني ومعدني منها (٣٠٠) جديدة . وقد بين الفوائد الطبية لجميع هذه النباتات وكيف يمكن استعمالها كأدوية وأغذية .

وفي مقدمة هذا الكتاب أوضح « ابن البيطار » أغراض مؤلفه وقد جاء فيها : « بهذا الكتاب استيعاب القوى في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج إليها في ليل كان أو نهار ، مضافا إلى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار . واستوعبت فيه جميع ما في الخمس المقالات من كتاب الأفضل (ديسقوريدس) بنصه ، وهذا ما فعلته أيضا بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست المقالات من مفرداته بنصه ، ثم ألحقت بقولها من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكره ، ووصفت فيها عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه . وأسندت في جميع ذلك الأقوال إلى قائمها ، وعرفت طريق النقل فيها بذكر ناقلها ، واختصصت بما تم لي به الاستعداد وصح لي القول فيه ووضع عندي الاعتماد عليه »

وكذلك كان « ابن البيطار » يدقق في النقل عن الأقدمين أو المتأخرين ؛ فاصح عنده بالمشاهدة والنظر وثبت لديه بالخبر ، أخذ به ، وما كان مخالفا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والمالمة للصواب والتحقيق ، فبذه ولم يعمل به .

وفي كتابه هذا كان يتجنب التكرار حسب الإمكان (كما أشار في المقدمة) إلا فيما تمس الحاجة إليه لزيادة معنى وتبيان .

ومن مزايا الكتاب أنه رتب على حروف المعجم لتقريب مأخذه ، وليسهل على القارئ والطلبة مطالعته دون مشقة أو عناء . وفي هذا الكتاب أشار « ابن البيطار » إلى كل دواء وقع فيه وهم أو غلط متقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم (كما يقول) على النقل واعتماده هو على التجربة والمشاهدة .

وذكر في الكتاب أيضا أسماء الأدوية بسائر اللغات المتباينة بالإضافة إلى منابت الدواء ومنافعه وتجاربه الشهيرة ، وكان يقيد ما يجب تقييده منها بالضبط وبالشكل والنقط تقييدا لا يقع معه تصحيف أو تحريف . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات الأوروبية ، واعتمد عليه علماء أوروبا وأخذوا عنه كثيرا .

وله كذلك كتاب : « المغنى فى الأدوية المفردة » ، وهو يلى الجامع فى الأهمية
« . . . وهو مرتب حسب مداواة الأعضاء الآلة . . . » ، وينقسم إلى عشرين
فصلا « تناول علاج الأعضاء عضوا عضوا بطريقة مختصرة كي ينتفع به
الاطباء » . فبحث فى الأدوية الخاصة بأمراض الرأس والأذن وتعرض
للأدوية المجملة والأدوية ضد الحمى وضد السم ، كما أتى على ذكر أكثر العقاقير
شيوعا واستعمالا .

وقد ذكر لسكرى (Leclerc) جملة من المواد الطبية التى أدخلها ابن
البيطار وغيره من العقاقير والمفردات الطبية وهى تربو على ثمانين مادة .

٢٤ - نصير الدين الطوسي^(١)

« إن مؤلفات الطوسي ورسائله في الرياضيات
والفلك تكون مكتبة قيمة زادت في الثروة
الإنسانية العلمية ودفعت بها إلى الارتقاء » .

نصير الدين الطوسي أحد الأفاضل القلائل الذين ظهرُوا في القرن السادس
للهجرة وأحد حكماء الاسلام المشار إليهم بالبنان ، وهو من الذين اشتهروا
بلقب علامة .

لمع في الدرس والبحث والابتكار ، وكانت له مكانة عند الخلفاء ، وأولى
الأمراء من الأمراء والوزراء . فكان المقدم عندهم وصاحب الرأي لديهم .
ولكن الحياة لم تسر معه على هذا المنوال وأبت الظروف إلا أن تما كسه ؛
فإذا بعض الوزراء والحاكمين يحرضون عليه ويشنون به بدافع من الحسد
والغيرة . فقد ترصدوا له وأوقعوه في حبال إجرامهم وشارك كيدهم .
وها هو ذا حاكم قهستان يحكم على الطوسي بالحبس إرضاء لاهواء الوزراء
وغيرهم من الحاسدين ويضعه في إحدى القلاع سجيناً مقيد الحرية .

ولئن كان السجن نقمة على الطوسي فهو في الواقع نعمة على العلم
والتأليف . إذ مكن الطوسي من إنجاز أكثر تأليفه في الرياضيات ؛ وهي
التي خلدهت وجعلته عالماً بين العلماء .

ودار الزمن دورته فنجد أن استيلاء هولاكو على بغداد قد أفاد الطوسي
فهو طليق حر . ولا يقف الأمر عند هذه الحدود ، بل استطاع أن يكسب
منزلة عالية عند هولاكو يطيعه فيما يشير عليه . وقد بلغت منزلته درجة جعلته
الأمين على أوقاف الممالك التي استولى عليها القائد المنتصر (هولاكو) .

وهنا تجلّت براعة الطوسي في أروع صورها . وتجلّى حبه للعلم ورغبته

(١) ولد في طوس سنة ١٢٠١ م ، وتوفي في بغداد سنة ١٢٧٣ م .

في البحث والدرس ، فاستغل الأموال التي تحت تصرفه وأنشأ بها مكتبة كبيرة ، وبني مرصد مراغة الذي اشتهر بآلاته وراصديه . أما المكتبة فقد احتوت على كل نقيس نادر ، وكانت الأولى من نوعها في العالم . ويربو عدد كتبها على أربعمائة ألف مجلد .

وأما المرصد ؛ فقد كان يشتمل على آلات كثيرة ، بعضها لم يكن معروفا عند الفلكيين . وقد جمع فيه الطوسي جماعة من كبار الحكماء وأصحاب العقول النيرة من شتى الأنحاء ؛ فمن أعيان هذا المرصد المؤيد العرضي من دمشق ، والفخر المراغي من الموصل ، والفخر الخلاصي الذي كان بتفليس ، والنجم دبيران القزويني ، ومحيي الدين المغربي من حلب . وفي هذا المرصد استطاع الطوسي إخراج أكثر مؤلفاته وأزياجه في الفلك التي كانت من المصادر المعتمد عليها في عصر الأحياء في أوروبا ، ويتجلى من مؤلفاته في الهيئة أنه أضاف إليها إضافات هامة . فقد تمكن من إيجاد مبادرة الاعتدالين ومن استنباط براهين جديدة لمسائل فلكية عويصة ، كما حاول أن يوضح بعض النظريات ، ولكنه لم يتوفق في تبسيطها ، وهذا هو السبب في كثرة الشروح التي وضعها علماء العرب والمسلمين لأزياجه ورسائله . ويتبين من مؤلفاته هذه أنه انتقد كتاب المجسطي ، وأنه اقترح نظاما جديدا للكون أبسط من النظام الذي وضعه بطليموس . ويعترف « سارطون » بأن انتقاد هذا يدل على عبقرية وطول باع في الفلك ، وهو في الواقع خطوة تمهيدية للإصلاحات التي تقدم بها كوبرنيكس فيما بعد . وقد ترجم « كارادي فو » ، بعض الفصول من كتب الطوسي إلى الفرنسية ، وكذلك كتب « تانري ودرابر » عن الطوسي وعن بحوثه في الكرة السماوية ونظام الكواكب وغيرها .

وللطوسي مؤلفات قيمة في الرياضيات ، ولعل كتاب « شكل القطاع » أجملها فهو كتاب وحيد في نوعه ، ترجمه الغربيون إلى اللاتينية والفرنسية والانكليزية وبقي قرونا عديدة مصدرا لعلماء أوروبا يستقون منه معلوماتهم في المثلثات الكرية والمستوية ، وقد اعتمد عليه (ريجيو مونتانيوس) كثيرا

عند وضعه كتاب المثلثات . ونقل عنه (عن كتاب شكل القطاع) بعض البحوث والموضوعات . ولدينا نسخة من هذا الكتاب ؛ وهو كتاب نفيس قد أحكم الطوسى ترتيب دعاواه وتبويب نظرياته والبرهنة عليها ، ووضع كل هذا فى صورة واضحة لم يسبق إليها .

وكتاب (شكل القطاع) أول كتاب يفصل المثلثات عن الفلك ويجعل المثلثات علما مستقلا . وهو ينقسم إلى خمس مقالات ، كل واحدة منها تتضمن عدة أشكال وفصول : المقالة الأولى تشتمل على النسب المؤلفة وأحكامها ، وهى تتضمن أربعة عشر فصلا . والمقالة الثانية فى شكل القطاع السطحي والنسب الواقعة فيها ، وهى أحد عشر فصلا . والمقالة الثالثة فى مقدمة القطاع الكرى وفيما لا تتم فوائد الشكل إلا بها ، وهى ثلاثة فصول . والمقالة الرابعة فى القطاع الكرى والنسب الواقعة عليها ، وهى خمسة فصول . والمقالة الخامسة فى بيان أصول تنوب عن شكل القطاع فى معرفة قسى الدوائر العظام ، وهى سبعة فصول . وبعض فصول هذا الكتاب مقتبس من بحوث علماء اشتهروا بالرياضيات : أمثال ثابت بن قرة ، والبوزجاني ، والأمير نصر أبى عراق ، كما أن بعضها الآخر يشتمل على براهين مبتكرة من وضع الطوسى لدعاوى متنوعة .

والطوسى أول من استعمل الحالات الست للثلث الكرى القائم الزاوية ، وقد أدخلها فى كتابه الذى نحن بصددده ، ومن يطالع هذا الكتاب يجد فيه ما لا يحده فى أنفس الكتب الحديثة المثلثات على نوعيها لهذا الكتاب فوق ذلك أثر كبير فى المثلثات وارتقاها . وفى وسعنا القول إن العلماء — فيما بعد — لم يزدوا شيئا هاما على نظريات هذا الكتاب ودعاواه . وتبجلى لنا عظمة الطوسى وأثره فى تاريخ الفكر الرياضى وغير الرياضى ، إذا علمنا أن المثلثات هى ملح كثير من العلوم الرياضية والبحوث الفلكية والهندسية ، وأنه لا يمكن لهذه أن تستغنى عن المثلثات ومعادلاتها . ولا يخفى أن هذه المعادلات هى حامل أساسى فى استغلال القوانين الطبيعية والهندسية فى ميادين الاختراع والاكتشاف .

وأظهر الطوسي براعة فائقة عند البحث في بعض القضايا الهندسية التي تتعلق بالمتوازيات . ويمكن القول إن الطوسي امتاز في البحوث الهندسية على غيره ، بإحاطته الكلية بالمبادئ والقضايا الأساسية التي تقوم الهندسة المستوية فيما يتعلق بالمتوازيات ، وقد فهمها كما نفهمها نحن الآن . ونجرب أن يبرهن على قضية « المتوازيات الهندسية » وتوفى في ذلك فني رهانه على فرضيات . واستطاع أن يضع هذه المبادئ وتلك القضايا وبراهينها في أوضاع مغايرة للأوضاع التي استعملها الذين سبقوه وصاغ كل ذلك في شكل مبتكر . وهو لا يعتبر من هذه الوجهة متفوقا على معاصريه فحسب بل على علماء الهندسة في هذا العصر . وقد أتينا على هذه البحوث بشيء من التفصيل في كتابنا : « تراث العرب العلي » .

وله كتب أخرى أدخل فيها بعض المسائل الهندسية المبتكرة ، وطرقا جديدة في معالجة نظريات الجبر والهندسة ، كما أتى فيها على براهين جديدة لقضايا رياضية هي محل تقدير الرياضيين وإعجابهم . ووضع « الطوسي » كتباً كثيرة في الحكمة ، والجغرافيا ، والطبيعات ، والموسيقى ، والتقاويم ، والمنطق ، والتنجيم ، والأخلاق ، والبصريات ، وعالج بعض الموضوعات التي طرقها الفلاسفة من قبله كالعقل والنفس . وخلاصة القول إن مؤلفات الطوسي ورسائله في الرياضيات والفلك وسائر الفروع تكون مكتبة قيمة زادت في الثروة الإنسانية العلية ودفعت بها إلى الارتقاء والتقدم .

وفوق ذلك فمؤلفات الطوسي تدل على أنه كان منصرفا إلى العلم وحده ، خصب القريحة ، قوى العقل والفكر ، صبورا ذا روح علمي صحيح ورغبة في البحث عن الحقيقة والوصول إليها . ولولا ذلك لما استطاع أن يترجم بعض كتب اليونان وينتقدها ويعلق عليها ، ولما كان بإمكانه أن يضع المؤلفات الكثيرة والرسائل العديدة في شتى فروع المعرفة ، مما كان له أكبر الأثر في تقدم العلوم تقدما ، جعل « سارطون » بعد دراسته مآثر الطوسي يخرج بالقول « ... إن الطوسي من أعظم علماء الإسلام ومن أكبر رياضيتهم ... »

٢٥ - ابن خلدون^(١)

« . . ابن خلدون في المقدمة التي كتبها
لتاريخه العام قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة
التاريخ . وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه
خلقه أي عقل في أي زمان ومكان . . .
(توبيخ)

إن مقدمة « ابن خلدون » أساس التاريخ وحجر الزاوية فيه كما يقول
ماكدونالد . وهي مقدمة تاريخية فلسفية لم ينسج أحد على منوالها قبلها ، حتى
علماء اليونان والرومان وغيرهم . وهناك من علماء الإفرنج من خرج بتصريح
خطير بعد دراسة المقدمة ، فاعترف بأثر هذه المقدمة في التاريخ وفلسفته ،
قال روبرت فلنت : « . . من جهة علم التاريخ وفلسفته يتحلى الأدب العربي
باسم من ألمع الأسماء ، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ، ولا العالم
المسيحي في القرون الوسطى يستطيعان أن يقدماسما يضاهي في لمعانه
ابن خلدون . . . » ويتابع كلامه هذا فيقول : « . . إن من يقرأ المقدمة
ياخلاص ونزاهة لا يستطيع إلا أن يعترف بأن « ابن خلدون » يستحق لقب
مؤسس علم التاريخ وفلسفته . . . » وفي هذه المقدمة يتجلى اتساع أفق تفكير
« ابن خلدون » وغزارة علمه ، فقد اتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من
الظواهر مادة لدرسه . وحاول أن يفهم من هذه الظواهر وأن يعالجها على ضوء
التاريخ ، وأن يرتب من سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة ، وهذا ما جعل
الباحثين يقولون بتفوق « ابن خلدون » على « مكيافلي » تفوقا عظيما في التفكير
ونوع النتائج ، وفي نظريات العصبية وأعمار الدول وخواصها ومعالجتها من
النواحي الاجتماعية ، مما حدا بالعالم الاجتماعي « جملوفتش » أن يصرح بأن
فضل السبق يرجع إلى العلامة الاجتماعي العربي « ابن خلدون » فيما يتعلق بكثير
من النظريات والآراء التي وردت في كتاب (الأمير) لمكيافلي .

(١) ولد في تونس سنة ١٣٣٢ م ، وتوفي في القاهرة سنة ١٤٠٦ م .

وقد قارن «كلوزيو» بين «ابن خلدون» ومكيافللي فقال في هذا الصدد :
«... إذا كان مكيافللي يعلننا وسائل حكم الناس فإنه يفعل ذلك كسياسي بعيد
النظر. ولكن العلامة التونسي ابن خلدون استطاع أن ينفذ إلى الظواهر
الاجتماعية كاقصادي وفيلسوف راسخ، مما يحملنا بحق على أن نرى في أثره
من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره...»

وقد درس الأستاذ «ساطع الحصري» المقدمة دراسة وافية وقارنها
بمؤلفات «فيكو» و «مونتسكيو» وغيرها، فجاء كتابه «... دراسات
في مقدمة ابن خلدون» من أروع الكتب الحديثة وأنفسها التي كشفت نقاطا
كانت غامضة عن «ابن خلدون» وآثاره وقيمه العلمية والتاريخية. ويرى
الأستاذ أن نزعة «ابن خلدون» الفكرية كانت أقرب من نزعة «فيكو»
إلى مناحي البحوث العلمية بوجه عام وإلى أصول علمي : التاريخ والاجتماع
بوجه خاص.

فهناك فروق بارزة بين المقدمة وكتاب «العالم الجديد» لـ «فيكو» من
وجهة النزعة العامة، فبينما نرى أن «فيكو» يمزج فكرة الله ببحوثه مزجا تاما
ويلتجى إليها في كل خطوة من خطوات تفكيره، حتى إننا لو حذفنا العبارات
المتعلقة بالله من كتاب العالم الجديد لا نقطع تسلسل الأفكار في أغلب الأحوال
ولضاعت المعاني في أحيان كثيرة، بينما نرى كل هذا في كتاب «فيكو» : نجد
أن سلوك «ابن خلدون» يختلف اختلافا كبيرا، فهو يسير في تفكيره وتعليله
سيرا مستقلا عن الدين، ولا يذكر الله وقدرته إلا في نهاية البحث بحيث لو حذفنا
العبارات المتعلقة بالله لما تغير شيء من تسلسل المعاني وقوة الدلائل بوجه عام.
ويرى الأستاذ ساطع، أن ابن خلدون لم يرم في بحوثه إلى غاية دينية، بل إنه
كان يقوم بتلك البحوث لمعرفة الحقيقة لذاتها، في حين أن فيكو يرمى إلى غاية
دينية صريحة، وهذا ما جعل الأستاذ الحصري يقول : «... ولا نرانا في حاجة
إلى البيان أن خطة ابن خلدون في هذا المضمار أقرب من خطة فيكو إلى الروح
العلمية وإلى مسالك التفكير الحديث...» واعترف بهذا دي بور فقال :
«... ولكن الدين لا يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية...»

ويتعرض الأستاذ الحضري بعد ذلك إلى سعة النظر وشمول البحث وعمق التفكير وطريق البحث والاستقراء في المقدمة وفي كتاب «العالم الجديد» فيجد أن كفة المقدمة ترجح على كفة «العالم الجديد» رجحانا كبيرا جداً في ذلك. وهو يقرر - بلا تردد - أن مقدمة ابن خلدون أقرب من كتاب (فيكو) إلى أسس علم التاريخ وفلسفته وعلم الاجتماع وفلسفته، وأنها تقترب من طرق البحوث العلمية الحديثة بوجه عام وطرق البحوث التاريخية والاجتماعية بوجه خاص اقتراباً كبيراً.

أما «مونتسكيو» فهو من أشهر رجال الفكر والقلم الذين نبغوا في القرن الثامن عشر في فرنسا. وقد شغل مقاما ممتازا في تاريخ فلسفة التاريخ وعلم التاريخ، من جراء الأهمية التي يعزوها إلى العوامل الاقتصادية في تكون طبائع الأمم وتسيير وقائع التاريخ، حتى إن بعض الباحثين يرى أن «مونتسكيو» أول من ربط علم الاقتصاد بعلم التاريخ، وأنه أول من شارك هذين العلمين في أمر تفسير الحوادث الاجتماعية وتعليلها. ولكن دراسات الأستاذ الحضري تخرج بغير ذلك وتنتهي إلى القول بأن ابن خلدون قد سبق «مونتسكيو». فقد جاء في المقدمة ما يشير إلى العلاقات القوية التي تربط الأحوال الاجتماعية بالحياة الاقتصادية، وإلى أهمية العوامل الاقتصادية في تطور الدول واستفحال الحضارة. وقد ظهرت هذه الآراء في ثنايا المقدمة بعبارات صريحة لا غموض فيها. وعلى هذا فإن القول: «... إن شرف إدخال عنصر الاقتصاد في علم التاريخ يعود إلى مونتسكيو ما هو إلا افتئات على الواقع والحقيقة، وأن هذا الشرف هو في حقيقة الأمر يعود إلى ابن خلدون الذي سبق مونتسكيو في هذا الشأن مدة تزيد على ٢٥٠ سنة...» وفوق ذلك فقد امتاز «ابن خلدون» على مونتسكيو بعمق التفكير ودقة النظر التي أظهرها في دراسة علاقة التاريخ بالاقتصاد، وهو يدرك التطورات والتقلبات التي تصيب المجتمع، وأن أهم عامل في هذه التطورات والتقلبات هو الاقتصاد وقال إن الفقر هو الذي يؤدي بالناس إلى النهب والحرب. بل إن الآراء التي يديها المفكر العربي في هذا الصدد تقر به كثيرا من مبادئ المذهب الاقتصادي

الاجتماعى الذى عرف فيما بعد باسم « المادة التاريخية » منذ عهد كارل ماركس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لليلاد ومن يطالع سيرة ابن خلدون يجد أنه خاض غمار السياسة وتعرض لمحنها وتقلباتها ، وأنه اعتكف ورغب عن الناس إلى العلم والدرس فى أواخر حياته . ويرى كثيرون أن هذه الحالة التى نشأ عليها قد أكسبته خبرة ، وبصرته بتجارب الحياة الخاصة والعامة .

كان « ابن خلدون » يرى أن الأقيسة المنطقية لا تتفق مع طبيعة الأشياء المحسوسة ، ذلك لأن معرفة هذه لا تنفى إلا بالمشاهدة ، وهو يدعو العالم أن يتفكر فيما تؤدي إليه التجربة الحسية ، وأن لا يكتفى بتجاربه الفردية . بل عليه أن يأخذ بمجموع التجارب التى انتهت إليها الإنسانية . و « ابن خلدون » مفكر متزن التفكير ، فقد حارب الكيمياء وصناعة النجوم بالأدلة العقلية وعقد لكل منهما فصلاً فى إبطاله وعدم الأخذ به .

لقد وضع قواعد الطريقة التاريخية (Historkal Method) ، ويرى أن الأغلاط التى وقع فيها الذين سبقوه ترجع إلى أسباب أهمها : تشيع المؤلفين وتصديقهم لكل ما يرى دون الفحص ، وجهلهم بطبائع العمران وأحوال الناس . وهو لا يقف عند هذا بل نراه يضع القوانين لدراسة التاريخ كربط الحوادث ببعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول ، وقياس الماضى بمقياس الحاضر ، ثم مراعاة البيئة واختلاف تأثيرها باختلاف الأقاليم ، والحالة الاقتصادية والوراثية وما شاكل ذلك .

والمقدمة تحتوى على ملاحظات نفسية وسياسية دقيقة يرى « دى بور » أنها فى جملتها عمل عظيم مبتكر . وهو أى (دى بور) يرى أن المؤرخين القدماء لم يورثونا التاريخ علماً من العلوم يقوم على أساس فلسفى على الرغم من جمال أسلوب بعضهم ، وأن القدماء كانوا يعملون عدم بلوغ الإنسانية منذ زمان بعيد درجة أعلى مما بلغته فى المدنية بالاستناد إلى حوادث أولية كالزلازل والظرفان ، وإلى أن المسيحية كانت تعتبر التاريخ بوقائعه تمهيداً للملكة الله على الأرض . أما ابن خلدون — يقول « دى بور » — فكان أول من حاول

أن يربط بين تطور الاجتماع الإنساني من جهة ، وبين علله القريبة مع حسن الإدراك لمسائل البحث وتقريرها مؤيدة بالأدلة المقنعة . فقد نظر في أحوال الجنس والهواء ووجوه الكسب وعرضها مع بيان تأثيرها في التكوين الجسمي والعقلي في الإنسان وفي المجتمع .

ويرى « ابن خلدون » أن حوادث التاريخ مقيدة بقوانين طبيعية ثابتة ، وأن ظاهر التاريخ هو أخبار عن الدولة . أما باطنه فهو نظر وتحقيق وتعليق للكائنات ومبادئها . وكذلك هو علم بكيفيات الوقائع وأسبابها .

وهناك من علماء الغرب من يعتبر « أوغست كنت » مؤسسا لعلم الاجتماع وأنه أول من نظر إلى المجتمع ككل ، إذ اتخذ موضوعا لعلم مستقل قائم بنفسه . ويرى الأستاذ الحصري أن حق ابن خلدون بلقب مؤسس علم الاجتماع أقوى من حق « كونت » ؛ ذلك لأنه كان قد فعل ذلك قبل « كونت » بمدة تزيد على ٤٦٠ عاما .

لم تكن المقدمة تلبسا بسيطا لعلم الاجتماع ، بل كانت محاولة ناجحة لاستحداث علم الاجتماع . لقد قال ابن خلدون بوجوب اتخاذ « الاجتماع الإنساني » موضوعا لعلم مستقل ، واعتقد تماما بأن الأحوال الاجتماعية تتأني من علل وأسباب . وقد أدرك أن هذه العلل والأسباب تعود في الدرجة الأولى إلى طبيعة العمران ، أو طبيعة الاجتماع ، وقد درسها دراسة مستفيضة وخرج منها يكشف بعض القوانين المتعلقة بها مما ينم عن تفكير عبقرى يستحق كل تقدير وإعجاب .

ونأتي الآن إلى العقل عند ابن خلدون . فنجد أن مقدمته تدل أولا على أنه كان مؤمنا بالله ، راسخ الإيمان بالإسلام . لكنه مع ذلك لم يذهب إلى ما ذهب إليه الكثيرون من رجال الدين من تحكيم الشريعة في كل شيء وإرجاع كل الأمور إلى أحكام الدين . فهو يرى أن الشريعة لا تشغل بكل شيء ولا تستهدف جميع شؤون الحياة . فإن مساحة عملها محدودة بحدود هي ما تقضيه الشؤون الأخروية . أما الأمور التي هي خارجة عن نطاق تلك الحدود فتروكه للفكر والعقل وحكمه .

ويرى في العقل أنه من نعم الله ، ميز به الانسان على المخلوقات ، وأن الانسان يستطيع أن يستنبط سنة الله في خلقه بقوة هذا العقل ، كما أنه يستطيع أن يستفيد من تلك السنن الثابتة في « جلب المنافع ودفع المضار ، في حياته الشخصية وفي تقرير سياسة عقلية . ولهذا يمكن القول إن « ابن خلدون » من الذين يعتمدون على العقل ويثقون به ولكن إلى حد ؛ فهو لا يسترسل في الاعتماد على العقل استرسالا كلياً ، بل إنه يرى أن نطاق مدركات العقل محدود بمحدود طبيعية لا سبيل إلى اجتيازها بالمحاكات النظرية وحدها إذ العقل البشرى عاجز عن إدراك ما يقع وراء المحسوسات من أمور التوحيد ومسائل المعاد وحقائق صفات الله وسائر الأمور الروحانية .

وفي المقدمة تشبيهات مادية يمكن الخروج منها بأن عقلية « ابن خلدون » تمتاز بصفات أبرزها : شدة التشوف ، ودقة الملاحظة ، ونزعة البحث ، والتعميم ، والقدرة على الاستقراء .

ولسنا بحاجة إلى القول إننا لا نستطيع الاسترسال في الكلام عن المقدمة ومزاياها ، فذلك يحتاج إلى مجلد ضخم . ولكننا نختم بحثنا باعترافات لكبار علماء الغرب . قال دى فو في كتابه : (مفكر الاسلام) : « إن نزعة الاهتمام بالبحث في كل شيء في تاريخ النشوء والتطور وأسباب الحدوث والتقدم ، تضع ابن خلدون (كاتب القرن الرابع عشر) في مصاف أرقى العقليات في أوروبا الحالية . وقال الأستاذ (فارد) الأمريكى في كتاب : (علم الاجتماع النظرى) : « كانوا يظنون أن أول من قال وبشر بالتحتمية في الحياة الاجتماعية هو مونتسكيو ، أو فيكو ، في حين أن ابن خلدون كان قد قال بذلك وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة . . . » . ويعد (توينبى) الأستاذ بجامعة اكسفورد في كتابه : (دراسة في التاريخ) ابن خلدون من العباقرة ويرى في مقدمته « دلائل ساطعة على سعة النظر وعميق البحث وقوة التفكير » . ويتابع أحكامه في ابن خلدون فيقول : « إن ابن خلدون في المقدمة التى كتبها لتاريخه العام ، قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ . وهى بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أى عقل فى أى زمان ومكان . » .

مصادر الكتاب

لصالح زكي	آثار باقية
للدكتور أحمد عيسى	آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب
للدكتور عمر فروخ	ابن باجة
للدكتور فروخ	ابن طفيل وقصة حي بن يقظان
للدكتور فروخ	أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية
لسان الدين بن الخطيب	الإحاطة في أخبار غرناطة
للقاربي	إحصاء العلوم
للعزالي	إحياء علوم الدين
لابن القفطي	إخبار العلماء بأخبار الحكماء
للدكتور زكي مبارك	الأخلاق عند الغزالي
لمحمد عثمان نجاتي	الإدراك الحسي عند ابن سينا
لابن مساعد	إرشاد القاصد إلى أسنى المطالب
للجاحظ	البخلاء
للجاحظ	البيان والتبيين
للدكتور أحمد عيسى	البياراتات في الإسلام
للخطيب	تاريخ بغداد
لجورجي زيدان	تاريخ التمدن الإسلامي وتاريخ الآداب العربية
لظهير الدين البيهقي	تاريخ حكماء الإسلام
لبروكلان	تاريخ الشعوب الإسلامية
لدي بور	تاريخ الفلسفة في الإسلام
للدكتور أحمد عيسى	تاريخ النبات عند العرب
لقدرى حافظ طوقان	تراث العرب العلمي
لجماعة من العلماء المصريين	تراث مصر القديمة
للدكتور مبارك	التصوف في الإسلام ج ١، ج ٢
لابن رشد	تفسير ما بعد الطبيعة

- التفهيم لأوائل صناعة التنجيم
تلخيص كتاب المقولات
تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية
تنقيح المناظر
التوقيقات الإلهامية
تهافت التهافت
تهافت الفلاسفة
المجاذب ، معلم العقل والأدب
الجبر والمقابلة
- الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه في الضوء ج ١ ، ج ٢
حضارة العرب
الحقيقة في نظر الغزالي
حي بن يقظان
الحيوان
خلاصة تاريخ العرب العام
دائرة المعارف الإسلامية
دائرة المعارف البريطانية
دراسات علي مقدمة ابن خلدون ج ١ ، ج ٢
ذكريات مشاهير المغرب
رسائل إخوان الصفا
رسائل الفارابي في العقل
رسائل فلسفية للرازي
رسائل الكندي الفلسفية
شكل المقطاع
ضمي الإسلام
الطب العربي
طبقات الأطباء
- لابيرونى (مخطوط)
لابن رشد
لمصطفى عبد الرازق
لابن الهيثم
لمختار المصرى
لابن رشد
للقزالي
لشفيق جبرى
للخوارزمي . نشره وعلق عليه :
علي مصطفى مشرفة ومحمداً أحمد مرسى
لمصطفى نظيف
لجستاف لويون
لسليمان دنيا
لتحقيق وتعليق أحمد أمين
للمجاذب
لسيدو
(الترجمة العربية)
لساطع الحصرى
لمبد الله بن كنون
- لتحقيق محمد عبد الهادى أبوريدة
لنصير الدين الطوسى
لأحمد أمين
للدكتور أمين أسعد خير الله
لابن أبى أصيبعة

طبقات الأمم	لصاعد الأندلسي
ظهر الإسلام	لأحمد أمين
عبقريّة العرب	لعمرو فروخ
عجائب المخلوقات	لقزويني
علم الطبيعة — تقديمه ورقه	لمصطفى نظيف
علم الفلك في القرون الوسطى	لنيلينو
عيون المسائل في المنطق	لفارابي
الفارابي	للخوري الياس فرح
فجر الإسلام	لأحمد أمين
فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال	لابن رشد
فلسفة ابن خلدون الاجتماعية	لطلح حسين
فلسفة ابن سينا	لجواشون
الفهرست	لابن النديم
فوات الوفيات	لابن شاكر الكتبي
قصة حي بن يقظان	نشرها مكتب النشر العربي بدمشق
كتاب ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة	لفارابي
كشف الظنون	لكاتب حلي
الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة	لابن رشد
الكندي وفلسفته	لمحمد عبد الهادي أبو ريده
الكيمياء عند العرب	لروحي الخالدي
مجلة التريّة الحديثة (بغداد)	
مجلة الثقافة	
مجلة الرسالة	
مجلة المقتطف (القاهرة)	
مجلة Nature (لندن)	
المجموع	لفارابي
مجموع الرسائل ؛ وهو يشتمل على عدة رسائل وكتب	للطوسي

محاضرات ابن الهيثم التذكارية	المحاضرة الأولى لمصطفى نظيف
» » » »	» الثالثة لعبد الحميد حمدي
» » » »	» الرابعة لمصطفى نظيف
» » » »	» الخامسة » »
» » » »	» السابعة لقدري حافظ طوقان
» » » »	» الثامنة لأحمد مختار صبرى
المدخل إلى الفلسفة	للأستاذ ازفلد كوله
المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن	لجولده تسهير
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار	لابن فضل الله العمري
مصطلح التاريخ	لأسد رستم
معجم الأدباء	لياقوت
معجم البلدان	لياقوت
مفاتيح العلوم	للخوارزمي (الكاتب الأديب)
المقاييس	لأبي حيان التوحيدي (تحقيق السندوني)
مقالات فلسفية قديمة	نشرها الآباء اليسوعيون
مقدمة ابن خلدون	لابن حزم
الملل والنحل	لجليل صليبا
من أفلاطون إلى ابن سينا	لعلى سامي الفشار
مناهج البحث عند مفكرى الإسلام	للأب قنواي
مؤلفات ابن سينا	للخازن
ميزان الحكمة	لابن سينا
النجاة	للقري
نفع الطيب	

المصادر الاجنبية

Arabic Thought and its Place in History by O'Leary
Greek Astronomy, by Heath
Hindu - Arabic Numerals by Karpinski & Smith.
History of Physics by Coji
History of Mathematics by Smith
History of Mathematics by Cajon
Introduction to the History of Science by Sarton
Legacy of Greece
Legacy of Islam
A Manual of Greek Mathematics by Heath
Men of Mathematics by Bell
Men of Science by Wilson
A Short History of Mathematics by Bell

فهرست

صفحة	
٣	هذا الكتاب
٥	مقدمة
١٥	الباب الأول : مآثر العرب في العلوم
١٧	الفصل الأول : الطب والصيدلة عند العرب
٢٩	الفصل الثاني : الكيمياء والنبات عند العرب
٣٥	الفصل الثالث : علم الطبيعة عند العرب
٥٢	الفصل الرابع : الرياضيات والفلك عند العرب
٧١	الفصل الخامس : الجغرافيا عند العرب
٧٧	الفصل السادس : النزعة العلمية في التراث العربي
٩٥	الباب الثاني : للتقدمون في العلوم من علماء العرب
٩٧	١ — جابر بن حيان
١٠٤	٢ — الخوارزمي
١١٢	٣ — الكندي
١١٩	٤ — الجاحظ
١٢٦	٥ — ثابت بن قرة
١٣٠	٦ — البتاني
١٣٤	٧ — أبو بكر الرازي
١٣٩	٨ — الفارابي
١٤٧	٩ — البوزجاني
١٥٠	١٠ — ابن يونس
١٥٤	١١ — الزهراوي
١٥٦	١٢ — ابن سينا
١٦٧	١٣ — ابن الهيثم

صفحة	
١٧٣	١٤ — البيروني
١٨٠	١٥ — ابن حزم الأندلسي
١٨٦	١٦ — الغزالي
١٩٢	١٧ — ابن باجة
١٩٧	١٨ — الشريف الإدريسي
٢٠١	١٩ — ابن طفيل
٢٠٦	٢٠ — ابن رشد
٢١١	٢١ — الخازن
٢١٥	٢٢ — ابن النفيس
٢٢٨	٢٣ — ابن البيطار
٢٢٢	٢٤ — نصير الدين الطوسي
٢٢٦	٢٥ — ابن خلدون
٢٣٢	مصادر الكتاب

مقدمة

في هذه المقدمة أقدم على تعريف القارئ بكتابي هذا
والذي هو من نوع النثر الحديث الذي ظهر في
الشرق في هذه السنين القليلة الماضية. وقد
حاولت في هذا الكتاب أن أعرض عن النثر القديم
والذي كان يكتفي بالوصف والتأنيد والهجاء
والذي كان يفتقر إلى القوة والجرأة والصدق
والذي كان يفتقر إلى القدرة على التعبير عن
الأمور المعقدة والعميقة. وقد حاولت أن
أعطي القارئ فكرة عن النثر الحديث الذي
هو من نوع النثر الذي ظهر في الغرب في
القرن التاسع عشر والذي كان يفتقر إلى
القوة والجرأة والصدق. وقد حاولت أن
أعطي القارئ فكرة عن النثر الحديث الذي
هو من نوع النثر الذي ظهر في الشرق في
القرن التاسع عشر والذي كان يفتقر إلى
القوة والجرأة والصدق.

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com